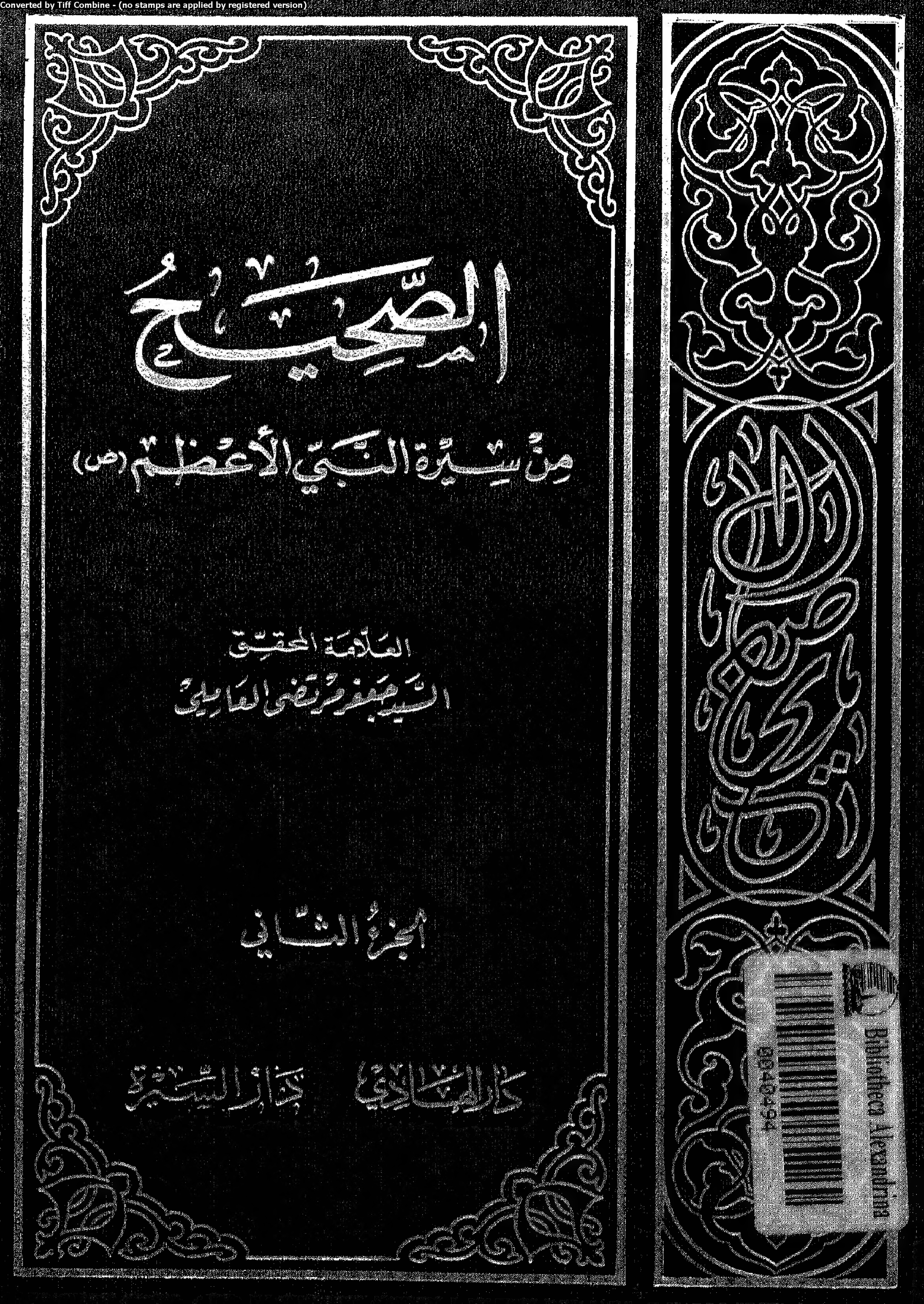


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)
الصحيح
من سيرة النبي الأعظم (ص)
العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي
الجزء الثاني
دار الهادي
دار السيرة
Bibliotheca Alexandrina






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





الصحيح

من سيرة النبي الأعظم (ص)



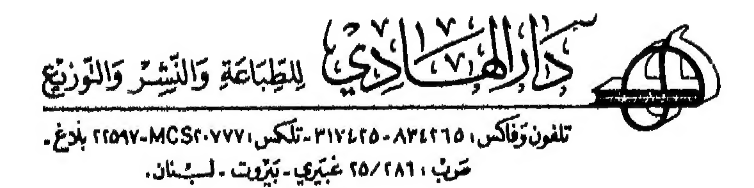
الصحيح

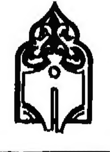
من سيرة النبي الأعظم (ص)

العلامة المحقق
السيد جعفر مرتضى العاملي

الجزء الثاني

الطبعة الرابعة
١٩٩٥م - ١٤١٥هـ





دار الصفوة - بيروت لبنان - ص.ب: ٢٥/٤٩

ايضاحات ضرورية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم.

والصلاة والسلام على محمد المصطفى، خاتم الأنبياء والمرسلين، وآله الكرام البررة الطيبين الطاهرين.

واللعنة على أعدائهم أجمعين، من الأولين والآخرين، إلى يوم الدين.

وبعد..

فإنني إذ أقدم إلى القراء الكرام هذا الكتاب: «الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم» أو «المصطفى من سيرة المصطفى» أرى لزاماً عليّ أن أشير ـ بإختصار ـ إلى الامور التالية:

١ ـ لقد اعتمدت ـ بالدرجة الأولى ـ فيما كتبته هنا على مؤلفات القدماء. أما مراجعتي لمؤلفات المعاصرين، فلا تكاد تذكر؛ لأن ما راجعته منها، رأيت أنه ـ عموماً ـ يكرر ما كتبه أولئك، إلا في كيفية التنسيق والتبويب والإخراج، ثم التبرير والتوجيه له. بزيادة: أنهم يظهرون

براعتهم وتفوقهم في ترصيف الكلمات البراقة، وصياغة الجمل والعبارات الرنانة في تأييده وتأكيده. من دون أي تحقيق له، أو تدقيق فيه، صحة وفساداً؛ حتى ليخيل إليك: أن تلك النصوص جزء من الوحي الإلهي، الذي لا يتطرق إليه الشك، ولا يرقى إليه الريب، مهما كانت متناقضة ومتنافرة؛ إذ لابد من الجمع بينها، وتمحُّل الوجوه لها، ولو كانت مما يأباه كل عقل، ولا يقره وجدان، ولا يرضاه ضمير، حتى إذا لم يمكن ذلك فلابد من السكوت عنها، والاعتراف بالعجز عن فهم حقيقة الحال فيها، وذلك هو أضعف الإيمان.

٢ ـ لقد انصبّ اهتمامي في هذا الكتاب على الناحية التحقيقية حول صحة، وعدم صحة الكثير مما يدّعى أنه سيرة نبوية، أو تاريخ إسلامي. ولكن بالمقدار الذي يتناسب مع كتاب كهذا، يريد أن يعطي صورة متقاربة الملامح، قدر الإمكان عن فترة زمنية ثرية بالأحداث والمواقف الحساسة، وقد كانت ولا تزال محط النظر ـ بشكل رئيسي ـ لأهل المطامح والأهواء السياسية، والمذهبية، وغيرها.

بل هي أخطر وأهم مرحلة تاريخية على الإطلاق؛ لأنها غيّرت جذرياً، وليس فقط أصلحت كل الأسس والمنطلقات الخاطئة لكل قضايا وشؤون الإنسان والإنسانية جمعاء.

وقد كانت المهمة في الحقيقة شاقة وصعبة للغاية. ولكنني رضيت بتحمل ذلك، لأنني أدركت مدى حاجة المكتبة الإسلامية إلى جهدٍ كهذا، مهما كان ناقصاً ومحدوداً؛ ليكون النواة والخطوة الأولى على طريق اعتماد المنهج التحقيقي العلمي في التعرف على قضايا التراث، بصورة شمولية، ومستوعبة.

٣ ـ وقد يلاحظ القارىء لهذا الكتاب بعض الفجوات فيه، أو مداً وجزراً في الشمولية والاستقصاء.

ولـه أن يرجـع ذلك إلى أن هـذا الكتاب قـد أُعِـدَّ في فتـرات زمنيـة متباعدة، فرضها واقع الظروف التي تمنع الإنسان من الاستفـادة من عنصر الوقت على النحو الأفضل والأمثل.

كمـا أنه لا يمكن استبعـاد حالات النشـاط والخمـود الفكـري التي تعتري الانسان تبعـا لتفاوت حـالات الهدوء والاستقـرار، الأمر الـذي يؤثر بشكـل واضـح على طبيعـة مـا يكتب، ويـظهـر فيـه شيئـاً من التفـاوت والاختلاف في مستوى التعرض لبحوثه وقضاياه.

٤ ـ حيث إن التاريخ الاسلامي ـ كما سنرى ـ قد تعرَّض لمحاولات جادّة للتلاعب فيه من قبل أصحاب الأهواء السيـاسية والمـذهبية وغيـرها، وتسرّبت إليه بعض الترهات والأباطيل من قبـل أهل الكتـاب وغيرهم، ثم حاولت الأيدي الأثيمة والحاقدة أن تعبث به تحريفاً، أو تزييفاً، فقد أصبح البحث، والوصول إلى الحقائق فيه على درجـة كبيرة من الصعـوبة، إن لم يصل إلى حد التعذر أحياناً، فقد كان لا بد لنا من أخذ الأمـور التاليـة بنظر الاعتبار:

أ : إن الاعتماد على نوع معين من المؤلَّفات والمؤلفين ربما يتسبب في حـرمـان القـارىء من الاطـلاع على نصـوص تنـاثـرت هنـا وهنـاك، واستطاعت أن تخترق الحجب، وتقفز فوق الحـواجز الثقيلة، وتصـل الينا سليمة ـ إلى حدّ ما ـ من التحريف، حين لم ير فيها السياسيون المحترفون خـطراً، ولا رأى فيهـا المتمـذهبـون المتعصبـون ضـرراً؛ فتـركهـا هؤلاء وأولئـك، ليتلقفهـا عشـاق الحقيقـة القليلون جـداً؛ بعيـداً عن غـوغـائيـة المتعصبين، وفي مأمن ومنأى من جبروت وتعنت الأشرار المحترفين.

ب : إننا رأينا ـ والحـالة هـذه ـ أن البحث في الاسانيـد، والإعتماد عليهـا كمقياس ومعيـار نهائي في الـردّ والقبول، إنمـا يعني: أن علينـا أن نقتنع بنصوص قليلة جـداً، لا تكاد تفي حتى بـالتصور العـام، وبالفهـرسة

الإجمالية للسيرة النبوية المباركة، فضلاً عن تفصيل أحداث تاريخ صدر الإسلام.

ولسوف نخسر كثيراً من النصوص الصحيحة، التي لم توفق لسند تتوفر فيه أدنى شرائط القبول.

هذا بالإضافة إلى أن الباحث سوف يفقد حرية الحركة، والربط والاستنتاج، ولسوف لن يكون لفهمه العميق للأجواء والظروف وللإتجاهات السياسية والفكرية وغيرها الذي اكتسبه من الممارسة الطويلة، أية فعالية تذكر في استخلاص الحقائق، التي أريد لها ـ لسبب أو لآخر ـ أن تبقى طي الكتمان، ورهن الإبهام والغموض.

هذا عدا عن المشكلات الكبيرة التي تواجه الباحث، ولا بد له من التغلب عليها، ليمكن للبحث السندي، أن يكون مقبولاً ومعقولاً لدى أرباب الفكر، وأساطين العلم والمعرفة.

وأهم هذه المشكلات هي مشكلة المعايير والمنطلقات والضوابط للبحث السندي، وموازين القبول والرد فيه. والتي يرتكز بعضها على أسس عقائدية أولية، يتطلب البحث فيها وقتاً طويلاً، وجهداً عظيماً. إن لم ينته إلى الطريق المسدود، ويعود ممجوجاً وعقيما في اكثر الأحيان؛ حيث يصّر البعض على اتخاذ منحى لا يتسم بالنزاهة ولا بالموضوعية، خصوصاً في النواحي العقائدية. ولا نملك إزاء هذا النوع من الناس إلا أن نقول:

قاتل الله الأهواء، والعصبيات، والمصالح الشخصية والفئوية.

وعلى هذا الأساس نقول: إننا إذا كنا قد بحثنا ـ أحيانا ـ في الاسانيد، فقد اعتمدنا في ذلك الطريقة المعقولة والمقبولة، المبتنية على قاعدة: الزموهم بما الزموا به أنفسهم. ثم الطرق التي يتوافق عليها إن لم يكن كل فأكثر أهل الفرق، وتؤدي إلى نتيجة مقبولة لدى الجميع، وإن

كان منشأ هذا القبول يختلف بين هؤلاء وأولئك في أحيان كثيرة.

ج : لقد حتم علينا ذلك المنهج، بالإضافة إلى ما تقدم: أن نتخذ من المبادىء الإسلامية، ومن القرآن، ومن شخصية وخصائص، وأخلاق الرسول الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» أساساً لتقييم كثير من النصوص المعروضة، والحكم عليها بالرد أو القبول من خلال انسجامها مع ذلك كله، أو عدم انسجامها معه.

وذلك ينسحب على كل شخصية استطعنا الحصول على فهم عام لسيرتها، ولخصائصها وأخلاقها، ومواقفها، واتجاهاتها.

د : هذا بالاضافة إلى الكثير من أدوات البحث، التي توفرها الممارسة الطويلة في هذا الاتجاه، كتناقض النصوص، والامكانية التاريخية، من خلال المحاسبات التاريخية الدقيقة. وغير ذلك من وسائل استفدنا منها في بحوثنا هذه، مما سوف يقف عليه القارىء الكريم لهذا الكتاب.

٥ ـ وبعد، فإن الكل يعلم: ان المسلمين قد اهتموا بتدوين تاريخ الإسلام، بشكل لا نظير له لدى أي من الأمم الأخرى، فهو بحق وبرغم كل المحاولات أثرى تاريخ أمة واغناه على الإطلاق.

وحيث إن البحث في جميع جوانبه أمر متعسر، بل متعذر علينا، فقد آثرنا الاكتفاء بالبحث في جانب يستطيع أن يهيىء لنا تصوراً عاماً، وهيكلية متقاربة الملامح والسمات، عن حياة نبينا الأكرم محمد «صلى الله عليه وآله وسلم».

٦ ـ لسوف يجد القارىء لهذا الكتاب أنني حاولت الإقتصار على أقل قدرٍ ممكن من الشواهد والدلائل ومصادرها المأخوذة منها. مع علمي بأن بالامكان حشد أضعاف ذلك في تأييد وتأكيد الحقائق التي أوردتها بشكل عام.

٧ ـ انني قد نسبت كل شيء استفدتـه أو استشهدت به إلى قائله، أو كـاتبه ونـاقله، فأمـا الافكار التي لا مصـدر لهـا، فهي جهـد شخصي، لم أعتمد فيه على أحد.

٨ ـ وأخيراً، فقد كانت الفرصة تسنح أحيانا، في فتـرات الاحساس بشيء من النشـاط الفكري لتسجيـل بعض الملاحـظات أو الإلتفـاتـات أو التفسيرات لبعض المواقف أو القضايا والأحداث.

وهي وإن كـانت لا تصـل في الأكثـر إلى مستـوى البحث الكـامـل والشامل؛ لأنهـا جاءت على الأكثـر بصورة عفـوية، ومـرتجلة، لم يسبقها إعـداد، ولا مراجعـة، ولا مطالعـة. إلا أنها تعتبـر ـ على الأقـل ـ بمثابـة استراحات للقارىء الكريم، كما كانت استراحات للكاتب نفسه من قبل.

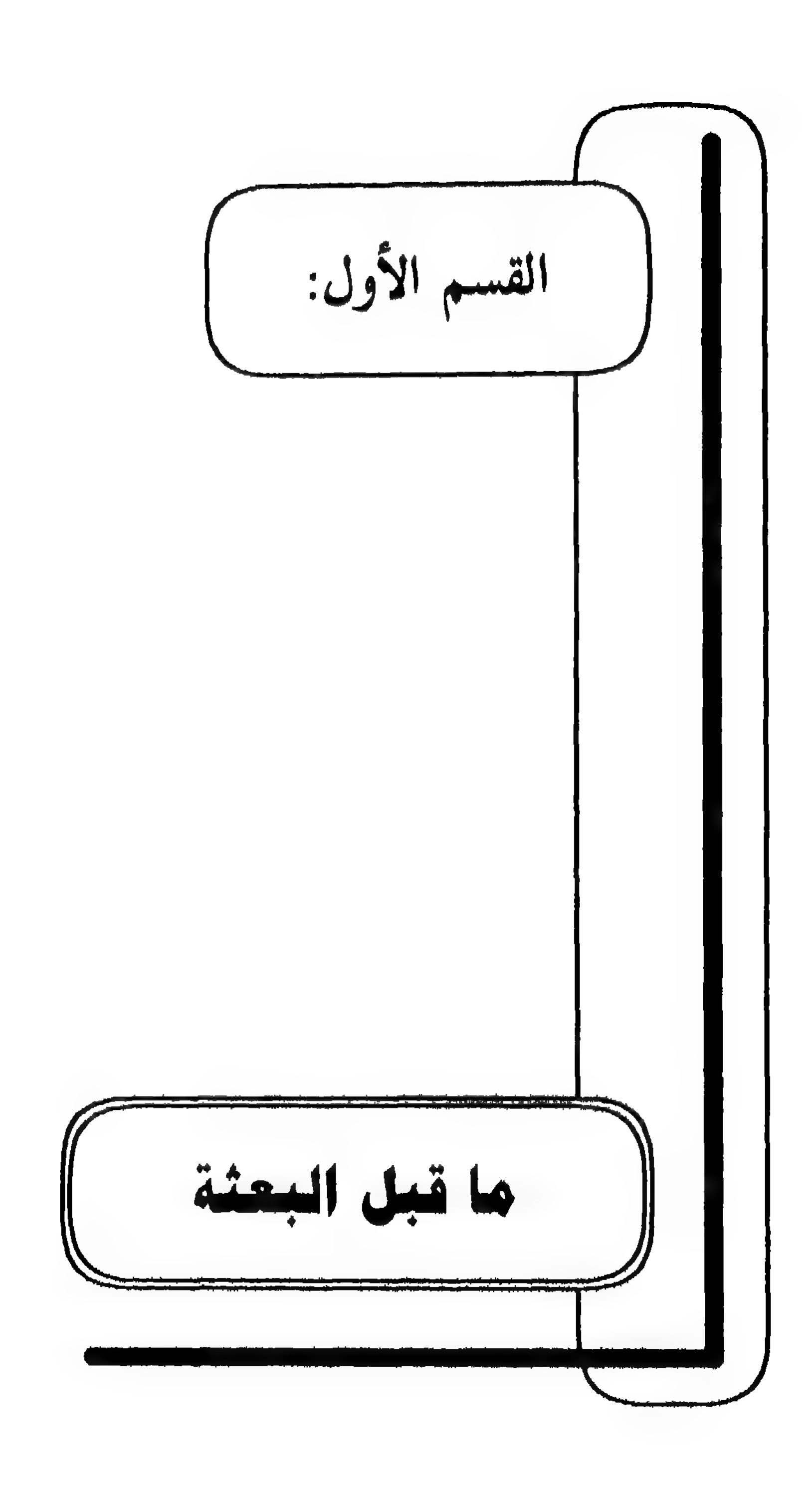
وللقـارىء الخيار بعـد هـذا في أن يحكم لهـا أو عليهـا. وإذا كـان حكمه لها فهو بالخيـار أيضاً في أن يتلمس فيهـا شيئاً من العمق، أو بعضـاً من الجمال.

وفي الختـام، فإنني أرجـو من القارىء الكـريم أن يتحفني بآرائـه، ومؤاخذاته ولسوف أكون له من الشاكرين.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطيبين الطاهرين.

ايران ـ قم المشرفة ١٦/١٢/١٤٠٠ هـ.ق.

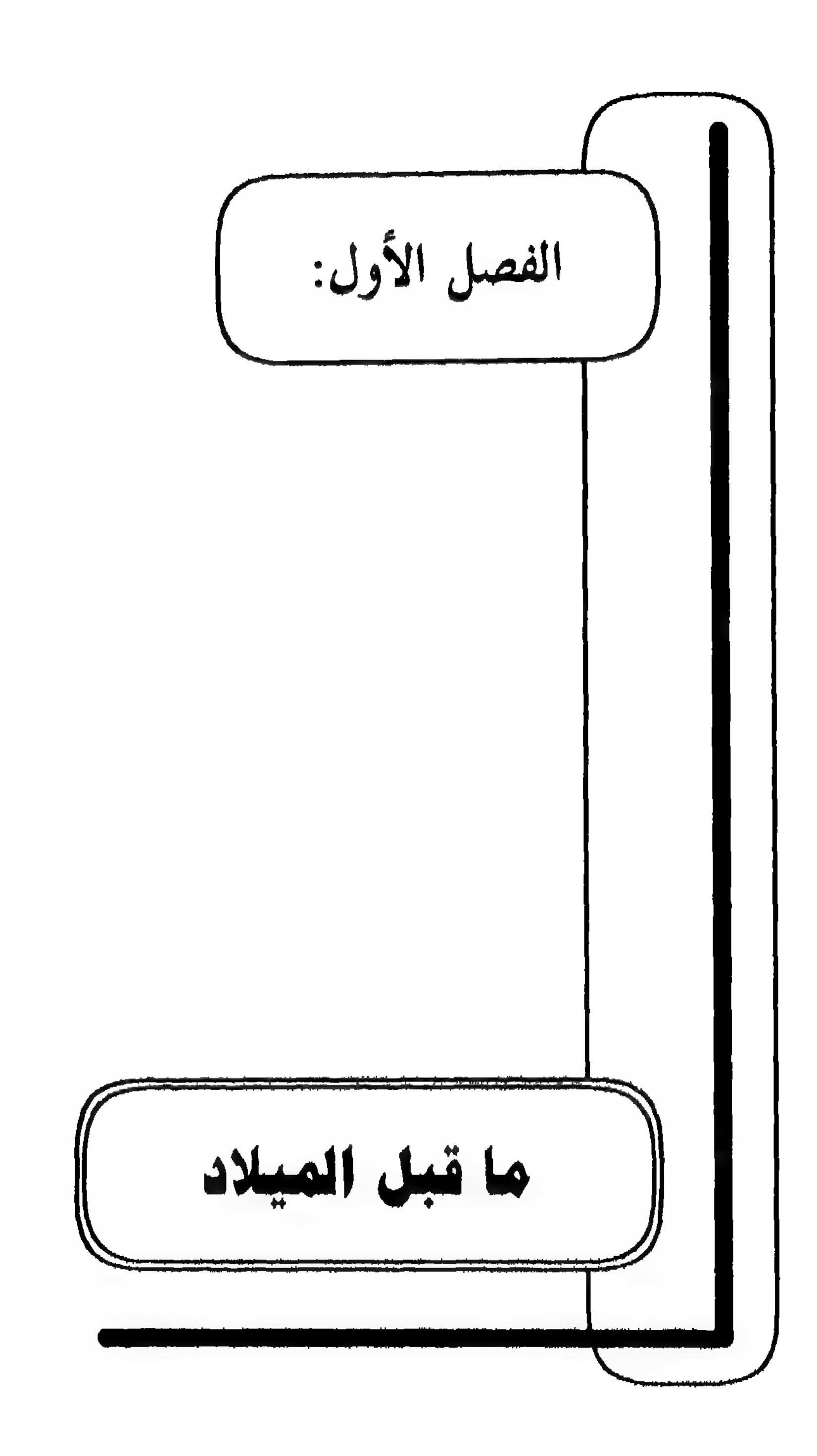
جعفر مرتضى الحسيني العاملي



القسم الأول:

ما قبل البعثة





الفصل الأول:

ما قبل الميلاد



البداية الطبيعية:

إن من البديهي: أن البداية الطبيعية والمعقولة لتاريخ الإسلام، وأعظم ما فيه وهو سيرة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم» تحتم علينا اعطاء لمحة خاطفة عن تاريخ ما قبل البعثة، وما اتصل بها من احداث سبقتها، لنتعرف على الأجواء والمناخات التي انطلقت فيها دعوة الدين الحق، وهو دين الإسلام فنقول:

الوضع الجغرافي لشبه جزيرة العرب:

هي شبه جزيرة مستطيلة يحدها شمالاً: الفرات، وآخر قطعاتها بادية الشام والسماوة، وفلسطين، وشرقاً خليج فارس، وجنوباً خليج عدن، والميحط الهندي، وغرباً: البحر الأحمر[1].

ولا يعنينا الوضع الجغرافي هنا إلا في النواحي التالية:

الأولى: إنه لم يكن في جزيرة العرب حتى نهر واحد، بالمعنى الصحيح للكلمة[2]، وأكثرها جبال، وأودية، وسهول جرداء، لا تصلح

---

(١) راجع: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج١ ص ١٤٠ فما بعدها.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج١ ص ١٥٧ فما بعدها.

للزراعة والعمل. ومن ثم فهي لا تساعد على الإستقرار، وتنظيم الحياة.

ومن هنا فقد كان أكثر سكانها، بل قيل: خمسة أسداسهم من البدو الرحل، الذين يمسون في مكان، ويصبحون في آخر.

الثانية: إن هذا الوضع قد جعل هذه المنطقة في مأمن من فرض السيطرة عليها، من قبل الدولتين العظميين آنئذٍ: الرومان، والفرس، وغيرهما؛ فلم تتأثر المنطقة بمفاهيمهم وأديانهم كثيراً. بل لقد هرب اليهود من حكامهم الرومان إلى جزيرة العرب، واحتموا فيها في يثرب (المدينة) وغيرها.

وقد نشأت عن هذا الوضع للجزيرة العربية، ظاهرة الدويلات القبلية، فلكل قبيلة حاكم، وكل ذي قوة له سلطان.

الثالثة: إن هذه الحياة الصعبة، وهذا الحكم القبلي، وعدم وجود روادع دينية، أو وجدانية قوية، قد دفع بهذه القبائل إلى ممارسة الإغارة والسلب ضد بعضها البعض، كوسيلة من وسائل العيش أحياناً، وأحياناً لفرض السيطرة والسلطان، وأحياناً أخرى للثأر وإدراك الأوتار، إلى آخر ما هنالك، فتغير هذه القبيلة على تلك؛ فتستولي على اموالها، وتسبي نساءها وأطفالها، وتقتل أو تأسر من تقدر عليه من رجالها. ثم تعود القبيلة المنكوبة لتتربص بهذه الغالبة الفرصة لمثل ذلك، وهكذا.

ومن هنا، فإن من الطبيعي أن يكون شعور أفراد كل قبيلة بالنسبة لأبناء قبيلتهم قوياً جداً، بدافع من شعورهم بالحاجة إلى بعضهم البعض للدفاع عن الحياة، والكفاح من أجلها، مما كان سبباً قوياً لزيادة حِدّة التعصب القبلي، الذي لا يرثي، ولا يرحم، ولا يلين، حيث لا بد من الوقوف إلى جانب إبن القبيلة، سواء أكان الحق له، أو عليه، حتى لقد قال شاعرهم يتمدحهم بذلك:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

ومن الجهة الأخرى، فإن القبيلة تتحمل كل جناية أو جريمة يرتكبها أحد أبنائها، وتحميه من كل من أراده بسوء. بل يكون أخذ الثأر من غير الجاني إذا كان من قبيلته كافياً وشافياً للموتورين، الذين يريدون شفاء ما في نفوسهم، وإدراك أوتارهم.

الحضر في شبه جزيرة العرب:

أما الحضر في جزيرة العرب، وهم الذين يسكنون المدن، ويستقرون فيها، فإنهم وإن كانوا في حياتهم أرقى من العرب الرحل، إلا أن رقيهم هذا لم يكن بحيث يجعل الفارق بينهما كبيراً.

ومن هنا، فإننا نلاحظ تشابهاً كبيراً فيما بينهما في العقلية، وفي المفاهيم، وفي العادات والتقاليد، وأساليب الحياة، وبدائيتها. هذا إن لم نقل: إن العرب الرحل كانوا أصح أبداناً، وأفصح لساناً، وأقوى جناناً، وأصفى نفساً، وفكراً وقريحة.

ولكن امتياز هؤلاء وأولئك في بعض الأمور لم يكن إلى الحد الذي يحتم على الباحث فصل الحديث عنهما، ولا سيما بالنسبة الى أولئك الحضريين الذي يسكنون الحجاز.

والخلاصة: إننا إذا كنا لم نجد في تاريخ ما قبل الإسلام ما يبرر نسبة التفوق إلى أحد الطرفين على الآخر، كما يتضح من كلمات أمير المؤمنين الآتية وغيرها، فليس في فصل الحديث عنهما كبير فائدة، ولا جليل أثر.

الحالة الإجتماعية عند العرب:

وإن من يطالع كتب التاريخ سيرى بوضوح إلى أي حد كانت الحالة الإجتماعية متردية في العصر الجاهلي. وقد قدمنا: ان السلب والنهب والإغارة، والتعصب القبلي، وغير ذلك قد كان من مميزات الإنسان

العربي، حتى إنه إذا لم تجد القبيلة من تغير عليه من أعدائها أغارت على أصدقائها، وحتى على أبناء عمها، يقول القطامي:

وكن إذا أغرن على قبيل ... وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلال[1] ... وضبة إنه من حان حانا
وأحياناً على بكر أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا

ولقد رأينا: أن تلك الظروف الصعبة، والفقر والجوع، والخلافات التي كانوا يعانون منها، والمفاهيم الخاطئة التي كانت تعيش في أذهانهم ـ وخصوصاً عن المرأة ـ.

وكذلك ظروف الغزو والإغارة، التي تعني سبي النساء والأطفال، قد دفعتهم إلى قتل أوواد أولادهم، ولا سيما البنات. وكان ذلك في قبائل تميم، وقيس، وأسد، وهذيل، وبكر بن وائل[2].

بل إننا نستطيع أن نعرف مدى شيوع الوأد بينهم من تعرض القرآن لهذه المسألة، وردعه لهم عنها، وإدانتها، قال تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم**﴾[3].

وقال أيضاً: ﴿**وإذا الموؤودة سئلت * بأي ذنب قتلت**﴾[4].

كما أننا نجده «صلى الله عليه وآله وسلم» قد نص على ذلك في بيعة العقبة وقد قال محمد بن إسماعيل التيمي، وغيره ـ تعليقاً على هذا: خص القتل بالأولاد؛ لأنه قتل وقطيعة رحم؛ فالعناية بالنهي عنه آكد؛

---

(١) الضباب إسم قبيلة. والحلال: المجاور.

(٢) راجع شرح النهج للمعتزلي ج١٣ ص ١٧٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٤) سورة التكوير، الآيات: ٨ ـ ٩.

ولأنه كان شائعاً فيهم، وهو وأدالبنات وقتل البنين، خشية الإملاق إلخ(١)».

ويقول البعض: «كان هذا الوأد ـ على رأي بعض الباحثين ـ في عامة قبائل العرب» يستعمله واحد، ويتركه عشرة؛ أو كان على الاقل معروفاً في بعض القبائل كربيعة، وكنده، وتميم(٢).

المرأة في الجاهلية:

وقد كانت حياة المرأة في الجاهلية أصعب حياة؛ حيث لم يكن لها عندهم قيمة أبداً، وقد كتب الكثير عن هذا الموضوع؛ ولذا فلا نرى حاجة كبيرة للتوسع فيه، ويكفي أن نذكر هنا قوله تعالى:

﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون، أم يدسه في التراب، ألاساء ما يحكمون﴾(٣).

وسياق الآية الكريمة يشير إلى كثرة ذلك وشيوعه فيهم.

ومن ذلك نعرف ان الخضري قد حاول تكذيب القرآن، حينما ادعى: أن العربي قبل الإسلام كان يحترم المرأة ويجلها(٤).

نعوذ بالله من الخذلان، ومن وساوس الشيطان.

كما أن فيه تكذيباً للخليفة الثاني عمر بن الخطاب، الذي يقول: «والله، إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل،

---

(١) فتح الباري ج١ ص ٦١.

(٢) راجع: النظم الإسلامية ص ٤٤٢/٤٤٣.

(٣) النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ص ١٧ ـ ٢٠.

وقسم لهن ما قسم»(١).

شواهد عن حالة العرب في الجاهلية:

وعن حالة العرب في الجاهلية يكفي أن نذكر بعض ما قاله سيد الخلق بعد الرسول علي أمير المؤمنين «عليه السلام» فمن ذلك قوله «عليه السلام» «بعثه والناس ضلال في حيرة، وحاطبون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء، واستزلتهم الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل»(٢).

وقال «عليه السلام»: «وأنتم معشر العرب على شر دين، وفي شرّ دار، تنيخون بين حجارة خشن، وحيات صم، تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام فيكم معصوبة»(٣).

وقال «عليه السلام»: «فالأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة، في بلاء أزل، وأطباق جهل، من بنات موؤودة، وأصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة»(٤).

وكلمات أمير المؤمنين هنا حجة دامغة على كل مكابر متعصب. وهناك كلمات كثيرة له «عليه السلام» في هذا المجال؛ فمن أرادها فليراجع نهج البلاغة وغيره.

---

(١) صحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩: ج٣ ص ١٣٣.

(٢) نهج البلاغة الذي بهامشه شرح الشيخ محمد عبده الخطبة ٩١. والإمامة والسياسة: ج١ ص ١٥٤.

(٣) نهج البلاغة، عبده، الخطبة ٢٥.

(٤) نهج البلاغة، عبده، الخطبة ١٨٧.

ويقال: إن المغيرة بن شعبة قد قال ليزد جرد: «.. وأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان، والحيات، ونرى ذلك طعامنا. أما المنازل فإنما هي ظهر الأرض. ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل، وأشعار الغنم؛ ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً، وأن يبغي بعضنا على بعض، وان كان أحدنا ليدفن إبنته وهي حية، كراهية أن تأكل من طعامه»[1].

ولابن العاص أيضاً كلام يشير إلى بعض ذلك؛ فمن أراده فليراجعه في مصادره[2].

علوم العرب:

لقد أوضح لنا الإمام أمير المؤمنين «عليه السلام» في كلماته المتقدمة حالة العرب، ومستواهم العلمي والثقافي، وأنهم كانوا يعيشون في ظلمات الجهل، والحيرة، والضياع.

وهذا يكذب كل ما يدعيه الآخرون ـ كالآلوسي وغيره ـ من أن العرب كانوا قد تميزوا ببعض العلوم، كعلم الطب، والأنواء، والقيافة، والعيافة، والسماء، ونحو ذلك..

وقال بعضهم: «خصت العرب بخصال: بالكهانة، والقيافة، والعيافة والنجوم، والحساب»[3].

فإن ما كان عندهم من ذلك هو مجرد ملاحظات بسيطة ساذجة،

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص ٤٢ والطبري ج٣ ص ١٨. وحياة الصحابة ج١ ص ٢٢٠ ولكلامه هذا نص آخر ذكره في الأخبار الطوال ص ١٢١.

(٢) مجمع الزوائد ج٨ ص ٢٣٧، عن الطبراني وحياة الصحابة ج٣ ص ٧٧٠ عن المجمع.

(٣) الموفقيات ص ٣٦٢/٣٦٣.

مبنية على الحدس والتخمين ، متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه .

وهـذا هو رأي ابن خلدون أيضـاً ، الذي كـان يرى : أن علم الـطب عندهم لا يتعدى معلومات أولية ، وملاحظات بسيطة ، لا تستحق أن تسمى علماً ، ولا شبه علم .

ومثـل هذا يقـال عنهم في علم الانواء والسمـاء ؛ فضلاً عمـا يسمى بالقيافة ، والعيافة . هذا عدا عن أن بعض هذه الأمور ، لا تستحق أن يطلق عليها إسم «علم» .

ويكفي أن نذكر هنا : أنهم كانوا أميين ، لا يعرفـون القراءة والكتـابة أصلاً ، إلا من شذ منهم ، حتى ليذكرون : انه «صلى الله عليه وآلـه وسلم» أرسل رسالة إلى قبيلة بكر بن وائل ؛ فلم يجدوا قارئاً لهـا في القبيلة كلها . وقرأها لهم رجل من بني ضبيعة فهم يسمون : بني الكاتب [١] .

ويـروي البلاذري : أن الاسـلام قد دخـل ، وفي قريش سبعـة عشر رجـلاً فقط ، وفي الأوس والخزرج في المـدينة إثنـا عشـر رجـلاً يعـرفـون القراءة والكتابة [٢] .

وقال ابن عبد ربـه : «جاء الإسـلام وليس أحد يكتب بـالعربيـة غير سبعة عشر إنساناً» . ثم عدهم فذكر علياً «عليه السلام» أولاً [٣] .

---

(١) مجمع الزوائد ج٥ ص ٣٠٥ ، وقال : إن رجاله رجال الصحيح ، عن أحمد ، والبزار ، وأبي يعلى ، والطبراني في الصغير ، عن أنس ، ومرثد بن ظبيان . وراجع : كشف الأستار ، عن مسند البزار ج٢ ص ٢٦٦ . والمعجم الصغير ج١ ص ١١١ .

(٢) فتوح البلدان ط أوروبا ص ٤٧١ فما بعدها ، وص ٨٠ في القسم الثالث من الطبعة التي حققها صلاح الدين المنجد . وإن كنا نناقش في بعض من عدّهم في من يكتب أو يقرأ كعمر بن الخطاب ، الذي سيأتي في قضية إسلامه : أنه لم يكن يعرف حق القراءة .

(٣) العقد الفريد : ج٤ ص ١٥٧ .

ويرى إبن خلدون: أن أكثرهم كان لا يتقنها، بل كان بدائياً، وضعيفاً فيها بشكل ملحوظ.

ويلاحظ من أسمائهم: أن أكثرهم قد تعلمها بعد ظهور الإسلام، وذكر إسم علي «عليه السلام» يدل على ذلك.

بل ربما كانوا يعتبرون القراءة والكتابة عيباً؛ فقد قال عيسى بن عمر: «قال لي ذو الرمة: إرفع هذا الحرف. فقلت له: أتكتب؟ فقال بيده على فيه، أي أكتم علي؛ فإنه عندنا عيب»[1].

وفي حديث أبي هريرة: تعربوا يا بني فروخ، فإن العرب قد أعرضت، أي عن العلم[2].

هذا، مع ان قريشاً كانت أعظم قبيلة شأناً وخطراً، ونفوذاً في الحجاز كله.

ومع أن التجارة تتطلب مثل ذلك عادة، وكان الأوس والخزرج أيضاً في المرتبة الثانية بعد قريش، تحضراً ونفوذاً في الحجاز.

فإذا كان مستواهم الثقافي هو هذا، فمن الطبيعي ان يصير لليهود عموماً وللنصارى ـ ولو بصورة أضعف ـ هيمنة فكرية كبيرة، وأن ينظر إليهم العرب نظرة التلميذ إلى معلمه، ولربما نشير إلى ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

هذا، ومن الأمور الجديرة بالملاحظة هنا: أن أمية العرب كانت هي السر في قوة الحافظة عندهم. ولكنها عادت إلى الضعف التدريجي،

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٤. والتراتيب الإدارية: ج٢ ص ٢٤٨.

(٢) مشكل الآثار: ج٣ ص ٥٦.

حسب نسبة اعتمادهم على الكتابة في العصور المتأخرة، إبتداء من عصر التدوين.

ولسوف نشير إن شاء الله تعالى في غزوة بدر من هذا الكتاب، الى مدى الأهمية التي اولاها الاسلام لمحو الأمية، حتى لقد ورد أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد جعل فداء الأسير في غزوة بدر تعليم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة كما سيأتي. وقد كانت بدر أدق مرحلة يمر بهاالإسلام والمسلمون في دعوتهم الى الله، وحربهم مع المشركين.

وخلاصة القول: إن جهل العرب كان هو الحاكم المطلق، ولا نلاحظ أية ظاهرة للنبوغ فيهم قبل الإسلام، بل على العكس من ذلك يمكن ملاحظة الكثير مما كان يزيدهم إمعاناً في الجهل والحيرة والضياع

ميزات وخصائص:

لقد امتاز العرب قبل الإسلام ببعض الصفات التي تمدحهم الناس وأثنوا عليهم لأجلها. وهي صفات قليلة بالنسبة الى ما يقابلها من صفات وعادات ذميمة. ولكننا إذا دققنا النظر فيها فإننا لا نجد فيها ما يوجب مدحا بل ربما كانت في كثير من الاحيان موجبة لعكس ذلك تماماً.

لأن ما يعطي للشيء قيمته الحقيقية من أي نوع كانت هو دوافعه ومنطلقاته، وأهدافه. ونحن لا نجد في تلك الأمور المنسوبة الى العرب ما يبرر تمدحهم من أجلها؛ لا من حيث المنطلقات والدوافع، ولا من حيث الأهداف والغايات، كما سنرى.

ولكن حين جاء الإسلام، وتغيرت تلك الدوافع والأهداف، أصبحت تلك الصفات ذات قيمة، وصاروا يستحقون عليها التكريم والتقدير.

من امتيازات العرب:

لقد امتاز العرب بالصفات التالية:

١ ـ بالكرم وحسن الضيافة ـ وهذا هو الأمر الوحيد الذي احتج به أبو سفيان على صحة دينه!! حيث قال لكعب بن الأشرف: «أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى في رأيك، وأقرب الى الحق؟ إنا نطعم الجزور الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال. فقال له إبن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلا(!!!)»(١).

ولكن ذلك في الحقيقة لا يمكن أن يعد فضلية للعرب، إلا إذا ثبت أن بذلهم للمال كان نابعاً من إيمان العربي بمثل أعلى، يدفعه إلى البذل والعطاء، أو أنه كان نابعاً من عاطفة إنسانية، مصدرها رؤيا حاجة الآخرين، والتفاعل معها، بحيث يندفع إلى العطاء والبذل بنفسه، ومن دون سؤال او تحريك.

مع أننا نجد أن الدافع لذلك كان في كثير من الاحيان ليس هو المثل العليا، ولا العاطفة الإنسانية، وإنما هو إبعاد العار، والتحرز من هجاء الشعراء، وحتى لا يسير ذكرهم في البلاد في اللؤم والخسة، ولا تتعرض أعراضهم وكراماتهم للهدر، أو أملاً بحسن الذكر، وطيب الاحدوثة؛ أو طمعاً بزعامة قبيلة او منافسة قرين. والشواهد على ذلك في التاريخ غير قليلة والإستثناء لا يلتفت إليه.

بل نجد ان زيد الخيل حين يريد ان يعطي البعض، قد وعده بالعطاء بعد أن يشن الغارة، فلما شن الغارة على بني نمير بالملح وأصاب

---

(١) البداية والنهاية: ج٤ ص ٦، والسيرة النبوية لابن كثير: ج٣ ص ١١. ومصادر ذلك كثيرة ستأتي في أول غزوة الخندق إن شاء الله.

مائة بعير، أعطاه إياها(١).

مع ان شن الغارة معناه التسبب في قتل الرجال وحتى الاطفال والنساء والشيوخ وسبيهم، والإستيلاء على أموالهم، وهدر كراماتهم.

وزيد الخيل هو من رجال العرب المعروفين، ويضارع حاتم الطائي في الشهرة والسؤدد.

هذا، ولا بد من الإشارة أخيراً الى ان عجز البدوي تجاه قوى الطبيعة القاسية، التي تستولي على الصحراء، من شأنه أن يولد فيه الشعور بضرورة الضيافة، وضرورة البذل، حيث لا يمكنه حمل قوته في سفره الشاق الطويل، الذي يمتد عشرات الأيام. وهو مضطر الى السفر بين حين وآخر بحثاً عن الماء والكلأ، ولغير ذلك من أمور.

٢ ـ حميتهم وعصبيتهم، وهذه في الحقيقة صفة ذميمة، إذأنهم يرون أن النصر لا بد أن يكون لذوي قرابتهم، ولابن قبيلتهم، وأن العون لابد أن يمحض له، ظالماً كان أو مظلوماً.

وقد نعى القرآن عليهم ذلك، وعبر عنها بـ «حمية الجاهلية»(٢)، لأنها مبنية على الجهل، وعدم التثبت.

وقد تقدم ما يشير إلى سر نشوء ذلك فيهم، فلا نعيد.

٣ ـ الشجاعة: وإنما يستحق صاحبها المدح والذم بملاحظة الأهداف في الموارد التي يستعملها فيها، فإذا استعملت في مورد حسن؛ إستحق صاحبها مدحاً، وإلا فذماً. ولهذا فليس هناك أشجع من الأسد، ولكن ذلك لا يعتبر فضيلة له.

ونحن إذا دققنا النظر فإننا نجد: أن سر شجاعة العرب هو أنهم

---

(١) الأغاني ط دار إحياء التراث العربي (بيروت): ج ١٧ ص ٢٥٥.

(٢) سورة الفتح/٢٦.

بحكم بيئتهم وحياتهم في الصحراء، بلا حواجز وموانع طبيعية أو غيرها. ومواجهتهم الخطر المستمر من الحيوان، ومن بني الإنسان على حد سواء، يشعر كل فرد منهم: أنه مسؤول عن حماية نفسه، والدفاع عنها بنفسه، ولا يرد عنه إلا يده وسيفه، ما دام أنه في كل حين عرضة للغزو، والنهب، والسلب، وأخذ الثارات منه.

هذا بالإضافة إلى أنه لا يأكل في كثير من الاحيان إلا من سيفه ويده، والإ فإنه هو نفسه يكون عرضة لأن يؤكل، فمن لم يكن شجاعاً فاتكاً أكل، أو على الأقل لم يستطيع أن يأكل، فكأنهم يتعاملون بمنطق؛ إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، وبعد فهل يمدح الذئب على فتكه بفريسته، وتمزيقه لها؟! إلا إذا كان هذا الفتك من منطلق الدفاع عن المثل أو القيم، أو عن الضعيف الذي يحتاج إلى الناصر، أو ما إلى ذلك.

٤ ـ النجدة والإقدام: ولا يختلف الكلام في ذلك عن الكلام في الشجاعة، إلا أننا نشير هنا إلى أن ذلك يرجع لإطمئنانه إلى أنه غير مسؤول عما يعمل، بل هو منصور من قبل قبيلته على كل حال، ظالماً كان او مظلوماً.

يضاف إلى ذلك: أن حياة البادية والغزو المفاجىء، وعمليات الإغتيال ثاراً، وغير ذلك من أخطار كانت تتهددهم باستمرار، كل ذلك يستدعي سرعة الإقدام، ومباشرة العمل فوراً، فإذا أضيف الى ذلك شعورهم بعدم المسؤولية عن كل ما يحصل، فإن الإقدام بلا ترو ولا تريث؛ لابد أن يصبح هو الصفة المميزة لهم، والطاغية على تصرفاتهم.

ولابد ان نشير هنا: إلى أن قدرتهم على الانتقام فوراً من شأنها أن تجعل فيهم حساسية متناهية؛ ولذا قل أن تجد فيهم حليماً، إلا من بعض المسنين، أو أصحاب الهمم العالية، او الجبناء، الذين يتخذون الحلم وسيلة لتغطية إنهزاميتهم.

٥ ـ الأنفة والعزة، والإعتداد بالنفس، والنزوع الى الحرية، وقوة الإرادة والفصاحة، وقوة البيان؛ والجوار.

والكلام فيها لا يختلف كثيراً عما تقدم، فإن هذه الصفات لا تستحق مدحاً أو ذماً إلا بملاحظة الدوافع والأهداف التي تكون من أجلها، أو تستعمل فيها.

ومنشأ هذه الصفات فيهم بالإضافة الى ما تقدم، هو عدم تعرضهم للخضوع الى سلطة مركزية، تحاول الهيمنة عليهم، وفرض النظام فيهم، ولو بالإذلال، والقهر، مما من شأنه أن يعطيهم حرية في التصرف، والحركة، والقول، وما الى ذلك.

٦ ـ وأخيراً، الوفاء بالعهد: وهو أمر حسن في نفسه ولا بأس به، إلا أن يكون عهداً مضراً بالمجتمع.

وهذا الوفاء أيضاً أمر قد فرضته عليهم طبيعة حياتهم التي أشرنا إليها آنفاً.

وأما حلف الفضول، الذي هو أشرف حلف في العرب، فمصدره في الحقيقة بنو هاشم، وكذا حلف عبد المطلب مع خزاعة، فلا يعبر ذلك عن خلقيات سائر العرب.

وقد اتضح من كل ما تقدم: أن كل تلك الصفات ليست جديرة بأن تعتبر فضائل أخلاقية، وصفات إنسانية، إلا حينما كانت تصدر عن خلق فاضل، وإنسانية كريمة، أو عن تقوى وشعور ديني، وإلا فقد تكون على العكس من ذلك، إذا عبرت عما يناقض ذلك وينافيه.

الإسلام وتلك الصفات:

لقد حاول الإسلام أن يضع تلك الصفات في خطها الصحيح، وأن

يجعلها تنطلق من قواعد إنسانية، وعواطف صافية وحقيقية، وفضائل أخلاقية، وبالأخص من إحساس ديني صحيح، وليستفيد منها ـ من ثم ـ في بناء الأمة على أسس صحيحة وسليمة.

أما ما كان منها لا يصلح لذلك، فقد كان يهتم بالقضاء عليه، وإستئصاله بالحكمة، والموعظة الحسنة، كلما سنحت له الفرصة، وواتاه الظرف.

فمثلاً، نلاحظ: أنه قد حاول أن يجعل المنطلق للكرم، وبذل المال، هو العاطفة الإنسانية، والشعور بحاجة الآخرين، كما يظهر من كثير من النصوص، هذا بالاضافة إلى طلب الأجر والمغفرة من الله تعالى، وذلك هو صريح قوله تعالى: **﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً﴾**[1] بل لقد تعدى ذلك وتخطاه إلى تمدح الإيثار على النفس، حتى في موقع الخصاصة والحاجة الملحة، فقال تعالى: **﴿ويؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة﴾**[2].

أما العصبيات القبلية، فقد حاول أن يوجهها وجهةً بناءةً ويقضي على كل عناصر الشر والإنحراف فيها، فدعا إلى بر الوالدين، وإلى صلة الرحم، وجعل ذلك من الواجبات، حينما يكون سبباً في تلاحم وربط المجتمع بعضه ببعض.

ولكنه أدان كل تعصب لغير الحق، ونددبه، وعاقب عليه، واعتبر ذلك من دعوات الجاهلية المنتنة، كما هو صريح بعض النصوص التي سنشير إليها في السيرة النبوية، إن شاء الله تعالى.

---

(١) سورة الإنسان، الآية ٨ ـ ٩.

(٢) الحشر ٩.

وكذلك فإنه قد حاول أن يوجه الشدة والقسوة إلى حيث تكون في صالح الدين والإنسان. ومثمرة للحق والخير، والحفاظ عليهما. والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جداً، ويكفي أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾[2] و﴿وقاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة﴾[3] والآيات والروايات في هذا المجال كثيرة جداً، فهو يريد الشدة في دفع الظلم والإنحراف. والحفاظ على الحق، وأن لا تأخذ المؤمن في الله لومة لائم. ويريد أن تتحول هذه الشدة إلى رحمة وحنان وسلام فيما بين المؤمنين أنفسهم.

وهكذا يقال بالنسبة إلى سائر الصفات المتقدمة، فإن من يراجع النصوص القرآنية، والاحاديث الواردة عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وعن آله المعصومين «عليهم السلام»، لا يبقى لديه أدنى شبهة فيما ذكرناه من أن الإسلام قد صب كل اهتمامه على توجيه الصفات الحسنة، والتصرف في دوافعها وأهدافها، وجعلها تصب في مصلحة الدين والأمة، والقضاء على الصفات الذميمة، التي تقضي على سعادة البشر، وتهدم بناء الحق الشامخ.

ولسوف يأتي في الفصل الثالث، حين الكلام عن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام وانتصاره، أن هذه المميزات والخصائص قد أدت دوراً هاماً في ذلك، فإلى هناك.

---

(١) الفتح ٢٩.

(٢) التوبة ٧٣.

(٣) التوبة ١٢٣.

متى كان بناء مكة:

لا نستطيع أن نحدد بدقـة تاريخ بناء مكـة، واتساعهـا حتى صارت جديرة باسم: «أم القرى». وقد يقال: إن بدء بنائها كان قبـل بناء ابـراهيم «عليه السلام» للبيت، حسبمـا تشير إليـه بعض الروايـات، بل ويـدل عليه قول الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿رب اجعل هذا البلد آمنا﴾[1].

وعليـه، فما يحـاول البعض إثبـاتـه، من أن قصيـاً هـو أول من بنى مكة، وكان البيت وحيداً في الصحراء، وكان الناس يتركونه ليلًا، ويعودون إليه نهاراً، بدليل أن قصياً سمي «مجمعاً»؛ لأنه جمع القبائل حول البيت:

لا يصح، بل هو لا يدل أيضاً؛ لأن تاريخ مكة قبل قصي خير شـاهد على أنهـا كانت آهلة بـالسكان، معمـورة، ومعروفـة ومشهورة. نعم ربمـا يكون قصي قد نظم سكن القبائل في مكة بالشكل المناسب.

ومهما يكن من أمر، فإن تحديد ذلك لا يهمنا كثيراً الآن. ومـا يهمنا هو التعرف على المكانة الـدينية لمكـة، ومدى ارتبـاط قبائـل العرب، بـل وغيـرهم بهـا. والحـديث عن ذلـك لا ينفصـل عن الحـديث عن البيت العتيق، الذي تحتضنه مكة. ثم عن قريش التي كان لها شرف خدمـة ذلك البيت؛ فنقول:

الف: بناء الكعبة:

الكعبة هي أول بيت وضع للناس ببكة، مبـاركاً، وهـدى للعالمين، كما هو صريح القرآن[2]، والمعروف المشهـور هو: أن واضعـه هو شيـخ الأنبياء إبراهيم «عليه السلام».

---

(١) سورة ابراهيم ٣٥.

(٢) راجع: آل عمران/٩٦.

ولكننا نجد في كلمات أمير المؤمنين «عليه السلام» ما يدل على أن البيت قد كان من لدن آدم أبي البشر «عليه السلام». أما إبراهيم فهو رافع قواعده ومشيد بنيانه وأركانه.

قال «عليه السلام»: «ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم، صلوات الله عليه، وإلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام، ﴿**الذي جعله للناس قياماً**﴾. ثم وضعه بأوعر بقاع الارض حجراً، وأقل نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف ولا حافر، ولا ظلف. ثم أمر آدم وولده: أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوى إليه الأفئدة من مفاوز سحيقة إلخ..[١]»

ويدل على ذلك أيضاً: روايات وردت من طرق الخاصة وغيرهم؛ فمن أرادها فليراجعها في مظانها[٢].

ولعل ظاهر القرآن لا يأبى عن هذا أيضاً؛ حيث جاء التعبير فيه عن تجديد بناء إبراهيم للبيت بقوله: ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت**﴾[٣] وهذا لا ينافي أن تكون الأسس والقواعد قد وضعت قبل ذلك، وإبراهيم هو الذي رفع هذه القواعد، وشيد على تلكم الأسس. وهذا موضوع يحتاج إلى بحث وتحقيق، نسأل الله يوفقنا لمعالجته في فرصة أخرى إن شاء الله تعالى.

---

(١) نهج البلاغة بشرح عبده، الخطبة المعروفة بالقاصعة رقم ١٨٧.

(٢) راجع على سبيل المثال: تفسير نور الثقلين ج١ ص ١٢٦ ـ ١٢٩، والطبري، والدر المنثور، وشرح النهج، وأخبار مكة للأزرقي: ج١ ص ٣ ـ ٣٠، وتفسير البرهان: ج١ ص ٣٠٠ وغير ذلك.

(٣) البقرة ١٢٧.

ب: دعاء إبراهيم:

ومهما يكن من أمر، فإن إبراهيم «عليه السلام» قد لاحظ: أن البيت الذي اختبر الله الناس به قد وضع في بقعة تكون الحياة فيها صعبة وشاقة، كما يظهر من كلمات الإمام أمير المؤمنين «عليه السلام» المتقدمة؛ ولذلك فقد دعا ربه فقال:

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات، لعلهم يشكرون﴾[1].

ولقد استجيت دعوة إبراهيم «عليه السلام»، وأصبحت مكة قبلة الاملين، ومهوى أفئدة الصفوة من العالمين.

ج: تقديس الكعبة:

لقد كانت الكعبة مقدسة ومعظمة عند جميع الأمم، فيذكر العلامة الطباطبائي قدس سره:

أن الهنود يعتقدون: أن روح سيفا، وهو الأقنوم الثالث عندهم قد حلت في الحجر الأسود، حينما زار هو وزوجته بلاد الحجاز.

والصابئة من الفرس والكلدانيون يعدون الكعبة أحد البيوت السبعة المعظمة[2]، وربما قيل: إنها بيت زحل لقدم عهدها، وطول بقائها..

---

(١) ابراهيم ٣٧.

(٢) البيوت السبعة هي: الكعبة، ومارس: على رأس جبل بأصفهان. وهندوستان: ببلاد الهند. ونوبهار: بمدينة بلخ. وبيت غمدان: بمدينة صنعاء. وكاوسان: بمدينة فرغانة من خراسان، وبيت بأعالي بلاد الصين.

واليهود أيضاً كانوا يعظمونها، ويدعون أنهم يعبدون الله فيها على دين إبراهيم «عليه السلام». ويقولون: إنه كان فيها تماثيل وصور، منها تمثال إبراهيم وإسماعيل، وبأيديهما الأزلام، وأن فيها صورتا العذراء والمسيح، ويشهد على ذلك تعظيم النصارى لأمرها كاليهود.

وكانت العرب أيضا تعظمها كل التعظيم، وتعدها بيتا لله تعالى. وكانوا يحجون إليها من كل جهة[1]..

وستأتي كلمات أبي طالب حول هذا الأمر حين الكلام عن زواج النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بخديجة أم المؤمنين «عليها السلام» وقد حكى الله سبحانه هذا الأمر حينما قال: ﴿**أولم يروا أنا جعلنا لهم حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم**﴾[2].

فالكعبة إذن، كانت مقدسة عند جميع الأمم والطوائف، وبالأخص عند العرب، وظلت على ذلك مدداً متطاولة في العصر الجاهلي، ويزيد ذلك قوة ورسوخاً: أن العربي كان يعتبرها مصدر عزته، وموضع أمله، وكيف لا تكون كذلك، وهو يرى ان الأمم الأخرى تنظر اليه ـ لأجلها ـ بعين الحسد والشنآن. وتعمل على انتزاع هذا الشرف منه، أو على التقليل من خطره وأهميته، حتى لقد:

١ ـ أقام الغساسنة بيتاً في الحيرة في مقابلها[3].

٢ ـ وفي نجران أيضاً: أقيمت كعبة أخرى لتضاهي كعبة مكة، يقول الأعشى: يخاطب ناقته:

---

(١) راجع الميزان ج٣ ص ٣٦١، ٣٦٢. وما ذكره يحتاج إلى تحقيق، وإثبات بالأدلة والشواهد.

(٢) العنكبوت/ ٦٧.

(٣) حياة محمّد لمحمّد حسين هيكل ص ٦٣. وراجع: الأصنام ص ٤٥.

وكعبة نجران حتم عليك حتى تناخي بأعتابها

وكعبة نجران هذه يقال: إنها بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي، على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاةً للكعبة، وسموها: كعبة نجران(١).

٣ ـ وفي الشام كانت الكعبة الشامية(٢).

٤ ـ وفي اليمن الكعبة اليمانية(٣).

وكان رجل من جهينة قال لقومه: هلم نبني بيتاً نضاهي به الكعبة، ونعظمه، حتى نستميل به كثيراً من العرب، فاعظموا ذلك وأبوا عليه»(٤)

ويكفي أن نذكر: أن أبرهة بن الأشرم أقام في اليمن بيتاً، ودعا الناس إلى تعظيمه، والحج إليه. وكتب إلى ملك الحبشة: «إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط. ولست تاركاً العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذي يحجون إليه»(٥).

ورغم أنه زخرفه وفرشه بأفخر ما يقدر عليه، إلا أن ذلك لم ينفع في صرف الناس حتى اليمنيين عن الكعبة إليه، فضلا عن أن يصرف غيرهم أو أهل مكة عن كعبتهم، واستمر الناس، وأهل اليمن على الحج إلى مكة.

وبعد أن تغوط أحد بني كنانة في كنيسة أبرهة، غضب، واندفع إلى

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ج٥ ص ٢٦٨. وراجع: الأصنام ص ٤٤/٤٥.

(٢) البداية والنهاية ج٢ ص ١٩٢.

(٣) البداية والنهاية ج٢ ص ١٩٢.

(٤) الأصنام: ص ٤٥.

(٥) الأصنام: ص ٤٧.

مكة في عام الفيل وقال لعبد المطلب: إنه لا يقصد إلا هدم البيت، فأجابه إن للبيت رباً سيمنعه، وجرى ما جرى لأبرهة وجيشه وأنزل الله في ذلك:

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾[١].

٥ ـ ويقولون: إن تبع بن حسان كان قبل ذلك، قد حاول أن يهدم البيت ويحول حجارته إلى اليمن، فيبني بها بيتاً هناك تعظمه العرب، فدفع الله عن البيت شره وكيده[٢].

الأصنام، والكعبة:

ويقولون: إن عمرو بن لحيّ، كبير خزاعة، عندما كان يتولى أمر البيت، سافر إلى الشام، وحمل معه منها الصنم المسمى بـ «هبل» ووضعه على الكعبة. وكان أول صنم وضع عليها، ثم أتبعه بغيره، وفي ذلك يقول شحنة بن خلف الجرهمي:

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة — شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رباً واحداً أبداً — فقد جعلت له في الناس أربابا

---

(١) سورة الفيل راجع في هذه القضية البحار: ج١٥ص١٤٠و١٣٦و١٣١و٧٢و٦٩و٦٦، وأمالي الطوسي: ص ٧٨/٧٩، وأنساب الأشراف: ج١ ص ٦٨، وتاريخ ابن الوردي: ج١ ص ١٢٧، والسيرة النبوية لابن كثير: ج١ ص ٣٤، والسيرة النبوية لابن هشام: ج١ ص ٥١، والبداية والنهاية: ج٢ ص ١٧٢، وتاريخ الخميس: ج١ ص ١٨٩، والسيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية): ج١ ص ٣١، والسيرة الحلبية: ج١ ص ٥٩ - ٦١.

(٢) ثمرات الأوراق ص ٢٨٧ وراجع: تاريخ الخميس: ج١ ص ١٩١.

قالوا: «وكان قوله ـ أي عمرو بن لحي ـ فيهم كالشرع المتبع؛ لشرفه فيهم، ومحلته عندهم، وكرمه عليهم»(١).

فشاعت عبادة الأصنام بين العرب، وأصبحت كل قبيلة تضع لها صنماً على الكعبة، تختلف إليه من جميع الأقطار، حتى صار بها أكثر من (٣٠٠) صنماً، او تنصبه في الموضع المناسب لها، فإذا أرادوا الحج وقفوا عند الصنم، وصلوا عنده، ثم يلبون حتى يصلوا إلى مكة(٢).

واتخذ أهل كل دار صنماً يعبدونه في دارهم، فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به حين يركب، وإذا قدم تمسح به أول ما يصل قبل أن يصل إلى أهله.

وكان ذلك هو حجة من قال: إن العرب لم تكن تعبد الأصنام قبل عمر و بن لحي(٣).

وثمة رأي آخر يقول: إن بني إسماعيل كانوا لا يفارقون مكة حتى كثروا، وضاقت بهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضاً، فاضطروا إلى التفرق في البلاد، وما من أحد منهم إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم؛ فحيث ما نزلوا، وضعوه فطافوا به، كطوافهم بالكعبة، حتى أدى بهم ذلك إلى عبادة تلك الحجارة. ثم جاء من بعدهم؛ فنسوا ما كان عليه آباؤهم من دين إسماعيل، فعبدوا الأوثان(٤) وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم

---

(١) البداية والنهاية ج ص ١٨٧ والسيرة الحلبية: ج١ ص ١٠ و١١، وراجع: الأصنام ص ٩.

(٢) تاريخ اليقعوبي ج١ ص ٢٥٥.

(٣) راجع: السيرة الحلبية: ج١ ص ١٠ و١١.

(٤) راجع: البداية والنهاية ج٢ ص ١٨٨، والمستطرف ج٢ ص ٧٥ عن ابن إسحاق، والأصنام ص ٦ وغير ذلك.

وإسماعيل يتنسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه[١].

ونحن نرجح أن هذا الأخير هو سر عبادتهم للأوثان. وأما عمرو بن لحي، فالظاهر أنه أول من وضع الاصنام على الكعبة، أو حولها، وتبعه غيره. وربما يشهد لذلك أن مجيئه بالصنم من الشام لا بد أن يسبقه ـ بحسب العادة ـ نوع قبول للأصنام، وتعظيم لها، هذا، إن لم نقل: إنه يعني: أنه كان يعبد الأصنام قبل أن يذهب إلى الشام.

وما يهمنا هنا هو الإشارة إلى ما كان للكعبة من مكانة لدى الإنسان العربي، فضلاً عن غيره، سواء في الوقت الذي كان يعبد فيه الأوثان ويعظمها، أو في تلك الظروف التي بدأ يشعر فيها بعض الناس بسخافة عبادة الأوثان، وعدم معقوليتها.

وبالنسبة للمراد من الصنم فإنهم يقولون: «إذا كان معمولاً من خشب أو ذهب، أو من فضة صورة إنسان، فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن»[٢].

ولاية الكعبة:

كانت ولاية الكعبة أولاً في يد ولد إسماعيل، ثم خرجت من يدهم إلى أخوالهم الجرهميين[٣] ويقال: ثم إلى العماليق، ثم عادت إلى جرهم.

---

(١) الأصنام: ص ٦.

(٢) الأصنام: ص ٥٣.

(٣) يقال: إن زوجة إسماعيل كانت جرهمية. وهم في الأصل يمنيون قحطانيون، لا من عدنان.

ثم لما كثر ولد اسماعيل؛ وأصبحوا ذوي قوة ومنعة، حاربوا الجرهميين بقيادة كبير خزاعة، وانتزعوا منهم ولاية البيت، واستمرت في الخزاعيين إلى أن أخرجها منهم قصي بن كلاب، الجد الرابع للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم».

وكانت الولاية بيد حليل الخزاعي أبي زوجة قصي، فجعل الولاية بعد موته لابنته، التي كانت تحت قصي، ولكنه جعل مفتاح البيت مع رجل يقال له أبو غبشان فيقال: إن قصياً إشتراه منه بزق خمر، وبذلك يضرب المثل «أخسر من صفقة أبي غبشان»، وقال في ذلك بعضهم:

أبو غبشان أظلم من قصي ... وأظلم من بني فهر خزاعة
فلا تلحوا قصياً في شراه ... ولوموا شيخكم إذ كان باعه[1]

ومن أجل ذلك فقد جرت بين قريش وخزاعة حرب كان النصر فيها لقريش، وهم أولاد فهر بن مالك[2]، هكذا يقولون.

ولكن ذلك ليس هوالرأي النهائي هنا؛ إذ أننا نرى البعض الآخر يقول:

إن قصياً قد استعاد البيت من خزاعة بعد حروب جرت بينه وبينهم، ثم تحاكموا إلى عمرو بن عوف، فحكم لقصي[3].

وثمة قول أخر يفيد: أن حليلاً أوصى عند موته بولاية البيت لصهره قصي. وهذا ما تزعمه خزاعة[4].

---

(١) راجع تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٣٩ و٢٤٠.
(٢) البداية والنهاية ج٢ ص ٢١٠، وغيره.
(٣) تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٤٠ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٠٧ عن ابن إسحاق.
(٤) تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٣٩ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٠٥ عن ابن إسحاق.

وإذا كانت خزاعة تزعم ذلك فما هو المبرر لحربها، إلا الحسد له، والبغي عليه؟!. والظاهر أن حليلاً قد أوصى إليه به فحاربته خزاعة حسداً وبغياً،[١] ثم تحاكموا إلى يعمر بن عوف، فحكم له.

وحكم يعمر بن عوف له يقرب وصية حليل بالولاية إليه، وكان يعمر قد اطلع على هذه الوصية، إن لم يكن لقصي حجج أخرى في المقام جعلت الحكم يكون في صالحه[٢].

وعلى كل حال فقد حدد قصي بناء البيت في القرن الثاني قبل الهجرة[٣] وبنى إلى جانب الكعبة دار الندوة، التي كانت تجتمع فيها قريش للحكومة، والقضاء، والشورى[٤] وهذا من مآثره الجليلة، الدالة على درايته وحكمته، وبعد نظره.

مكانة قريش:

وواضح أن سدانة قريش للبيت العتيق، وهوالذي يعظمه الكثيرون ثم اتصال نسبها بإسماعيل وإبراهيم «عليهما السلام»، والعربي ـ بطبعه يحترم نسباً كهذا، إنطلاقاً من اهتمامه بالأنساب، وإذعانه لها على أنها مصدر شرف وسؤدد ولا سيما بملاحظة تعرض العربي للغارات والسبي الأمر الذي يجعل لديه حساسية خاصة تجاه هذا الأمر.

وأيضاً، لأن قريشاً كانت أقرب إلى الحنيفية من غيرها، وشعائر

---

(١) راجع السيرة الحلبية: ج١ ص ٨، وتاريخ الخميس: ج١ ص ١٥٥، وتاريخ الأمم والملوك: ج٢ ص ١٦.

(٢) السيرة الحلبية: ج١ ص ٩، وراجع: تاريخ الأمم والملوك: ج٢ ص ١٧.

(٣) تاريخ الخميس ج١ ص ١٩.

(٤) راجع: السيرة الحلبية: ج١ ص ١٢ و١٥، وراجع: تاريخ الخميس: ج١ ص ١٥٥، وتاريخ الأمم والملوك: ج٢ ص ١٨/١٩.

الحج إنما هي من بقاياها كما هو معلوم. والحنيفية هي الدين الذي يحترمه العربي ويقدسه ويعنوله ـ إن كل ذلك، وغيره من أمور قد أكسب قريشاً شرفاً، ومنحها مكانة، ونفوذاً وخطراً، وأصبح الناس عامة ينظرون إلى قريش نظرة فيها الكثير من الإحترام والتقديس والإكبار.

والشواهد على هذا كثيرة، ويكفي أن نذكر قول قصي لقريش: «قد حضر الحج، وقد سمعت العرب ما صنعتم، وهم لكم معظمون»(١).

وقول أبي طالب حين تزويج خديجة من رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «الحمد لرب هذا البيت الذي جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل وأنزلنا حرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه»(٢).

وعليه، فإنه إذا كانت قريش من نسل إسماعيل، وتحترم دين الحنيفية.

وإذا كانت مكة تعتبر حتى من العرب، أهل الحرب والغارة، حرماً يأمن من لجأ إليه، وقد يلتقي العربي فيها بقاتل ولده، أو أبيه؛ فلا يؤذيه، ولا يستطيع أن يثأر منه.

وإذا كان تقديس مكة قد بلغ عندهم هذا الحد؛ فإن من الطبيعي أن يكون لسادة مكة نصيب وافر من هذا التقديس. وأن يتميزوا على سائر الناس باحترام خاص. أضف إلى ذلك سدانتهم للبيت الذي تفد إليه العرب من جميع الأقطار والأنحاء.

وإذا كانت قريش وخصوصاً الهاشميون ترى: أن شرفها، وسؤددها، ومجدها، وحتى إقتصادها، مرتبط بالبيت ومتصل به اتصالاً وثيقاً؛ فمن

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج١ ص ٢٣٩.

(٢) ستأتي بعض المصادر لذلك إن شاء الله تعالى حين الكلام عن زواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخديجة.

الطبيعي أن تدرك أن انتهاك حرمته ليس من مصلحتها. لأن ذلك يقلل من تقديس البيت، ومن احترام سدنته ويفقدهم ـ من ثم ـ أعز وأغلى ما لديهم.

ومن هنا فإنه وإن كان في قريش جماعات شريرة، لا ترجع إلى دين، وهم أصحاب حلف الأحلاف (لعقة الدم). لكن قد كان في مقابلهم رجال أشراف كرام لا يرضون بما يصدر من أولئك، ويحاولون إرجاع الحق إلى نصابه ما أمكنهم ذلك، ومن هنا كانت المبادرة إلى عقد حلف المطيبين، وبعده حلف الفضول، الذي ينص على أن تردّ كل مظلمة إلى صاحبها، لا فرق بين قرشي وغيره، وعلى التأسي بالمعاش(١).

أنا ابن الذبيحين:

ويذكرون هنا: أنه حين لقي عبد المطلب ـ وهو يحفر زمزم ـ من قريش ما لقي: من مخاصمتها إياه في شأن تلك البئر، وشدتها عليه، حلف لئن ولد له عشرة نفر لينحرن أحدهم. فلما ولدوا له دعاهم إلى الوفاء لله بالنذر؛ فأجابوه، فضرب القداح فخرجت على ولده عبدالله أصغر بني أبيه، على حد تعبير ابن هشام.

ونقول:

الصحيح: بني أمه، وإلا، فإن الحمزة والعباس كانا أصغر منه.

إلا أن يقال: إنهما لم يكونا قد ولدا بعد.

والظاهر: أن المقصود بالعشرة: ما يشمل أولاد اولاده. وقد ذكروا: أنه كان للحرث بن عبد المطلب ولدان؛ هما أبو سفيان ونوفل، بل ذكر بعضهم: أن أعمامه (ص) كانوا إثني عشر، بل قيل: ثلاثة عشر. وأن

---

(١) سيأتي الحديث عن ذلك مفصّلاً في فصل: من الميلاد إلى البعثة.

عبد الله ثالث عشرهم. وعليه فلا إشكال، لأن الحمزة والعباس، كانا من أم أخرى كما أشرنا إليه [١].

كما أننا نشك في قولهم إن ضرب القداح كان عند هبل، وأراد التنفيذ عند إساف ونائلة؛ لأن عبد المطلب كان على دين الحنيفية كما سيأتي عن قريب، ولم يكن يحترم الأصنام آنئذٍ.

ومهما يكن من أمرٍ فقد أراد عبد المطلب ذبح ولده عبد الله، فأطاعه ولده؛ فمنعوه من ذلك؛ فضربت القداح عليه، وعلى عشرة من الإبل - مقدار دية رجل - من جديد فخرجت عليه، فزادها عشرة، وضربت القداح فخرجت عليه، وهكذا إلى ان بلغت مئة؛ فخرجت على الإبل فنحرت: ولذلك يقال: إن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يقول: أنا ابن الذبيحين، أي إسماعيل، وعبد الله [٢].

من هو الذبيح:

ويقول البعض: إن المراد بالذبيحين هابيل، وعبد الله.. على اعتبار أن المراد بالذبيح هو إسحاق، كما جاء في بعض الروايات [٣].

---

(١) راجع: السيرة الحلبية: ج١ ص ٣٨ والمواهب اللدنية ج١ ص ١٨.

(٢) السيرة الحلبية: ج١ ص ٣٥ - ٣٨ وراجع المواهب اللدنية ج١ ص ١٧ والسيرة النبوية لدحلان ط دار المعرفة ج١ ص ١٦.

(٣) راجع ابن إسحاق، والسهيلي وبه جزم ابن سلام الجمحي في كتاب طبقات الشعراء ص ١٠٧، وحكاه عن: عمر، والعباس، وابن مسعود، ومسروق، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، والشعبي، ومقاتل وعبيدالله بن عمر، وأبي ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهري، والقاسم، وابن أبي بردة، ومكحول، وعثمان؟ والسدي، والحسن وقتادة، من السلف وغيره قالوا بذلك كل ذلك في البداية والنهاية ج١ ص ١٥٩. والبحار: ج١٢ ص ١٣٢، وتاريخ =

ولإجماع أهل الكتاب على ذلك[1] على اعتبار أن العرب تجعل العم أباً[2].

وهذا لا يصح؛ أما:

أولاً: فإنه «صلى الله عليه وآله وسلم» ليس من ولد هابيل إجماعاً. إلا أن يقال: إن العم بمنزلة الأب.

ويرده:

ألف: أن أبوة الذبيح الآخر في قوله: أنا ابن الذبيحين؛ لا بد أن لا تختلف عن أبوة عبد الله له، لأنه ذكرهما في كلام واحد، فإرادة هذا المجاز البعيد في أحدهما؛ والحقيقة في الآخر غير معقول، حتى لو جوزنا استعمال اللفظ المشترك في أكثر من معنى، كما هو الصحيح، بدليل وجود التورية في كلام العرب.

ب: إن الذي بمنزلة الأب ـ لو سلم أنه عرفاً كذلك ـ إنما هو العم القريب، لا العم الذي يأتي بعد عشرات الآباء والأجداد.

ثانياً: كون الذبيح هو إسحاق لا يصح. وذلك لما يلي:

ألف: إنه قد ذكر في سورة الصافات قضية الذبح، ثم عقبها

= الخميس ج١ ص ٩٥ وراجع ص ١٣٩ ومفاتيح الغيب: ج ٢٥ ص ١٥٣، ولكنه ذكر معهم عليًّا(ع) وابن عباس. ونحن نجلهما عن الإلتزام بأمر يخالف القرآن. بل إنه هو نفسه قد ذكر عنهما أنهما قالا: إسماعيل. ونجد في الكافي: ج٤ ص ٢٠٦ و٢٠٨/٢٠٩ ط الآخندي، وكذا في ج١ ص ١١٧ ط الإسلامية، وعنه في البحار: ج١٢ ص ١٣٥ ما يدل على أن الذبيح هو إسحاق، ولكن في ص ٢٠٥/٢٠٩ ج٤ من الكافي ما يدل على التردد في ذلك، حيث ذكر ما معناه: أن إبراهيم قد حجّ بأهله، فالذي كان مع إبراهيم من أهله كان هو الذبيح، وقد أشارت بعض الأخبار إلى أن إسحاق قد تمنى الذبح أيضاً.

(١) البحار: ج١٢ ص ١٣٤.

(٢) المواهب اللدنية ج١ ص ١٧.

بالبشارة باسحاق فقال: ﴿وبشرناه باسحاق نبياً من الصالحين﴾[١] مما يشعر بأن اسحاق قد ولد بعد قضية الذبح، لأن هذه بشارة بالميلاد بقرينة قوله تعالى في آية أخرى: ﴿فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾[٢] ولو كان الذبح لإسحاق لم يحسن الإتيان بإسمه، بل كان المناسب إيراد ضميره. وتكون البشارة بنبوته مكافأة على صبره على الذبح، وليست بشارة به نفسه كما هو ظاهر الآية.

وقد روي الإستدلال بالآيات عن الإمام الصادق «عليه السلام»، وعن محمد بن كعب القرظي أيضاً[٣].

ويشير إلى هذا أيضاً: الترتيب الذي جاء على لسان إبراهيم «عليه السلام» حيث قال: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق».

كما أن الله قد ذكر إسماعيل وإسحاق في القرآن معاً في ست آيات، وفي كلها يقدم ذكر إسماعيل على إسحاق.

وفي ذلك إشارة إلى ما ذكرناه:

٢ ـ ولو أغمضنا النظر عن ذلك فإننا نقول: إن من غير المعقول أن يبشر الله تعالى نبيه بغلام سيكبر، ويكون نبياً ويتزوج، ويولد له ولد اسمه يعقوب ثم يأمره بذبح ذلك الولد الكبير والنبي نفسه، فإنه لا يرتاب حينئذ بأن الأمر بالذبح ليس حقيقياً وإنما هو صوري وهذا يفقد قضية الذبح كل قيمتها. فلاحظ قوله تعالى: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً﴾ وقوله: ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾.

---

(١) الصافات ١١٢.

(٢) هود /٧١.

(٣) راجع: الميزان ج١٧ ص ١٥٥ والبداية والنهاية ج١ ص ١٦١ و١٥٩.

إلا أن يدعى: أن النبوة والبشارة بيعقوب ليست داخلة في البشارة الأولى.

ولكن ذلك خلاف الظاهر. والذين يصرون على ان الذبيح هو إسحاق لا يقولون بالبداء ليمكنهم التشبث به في الإجابة هنا.

أو يدعى: أن الذبح قد يكون بعد أن ولد له يعقوب.

ويرده: أنهم يقولون: إن قضية الذبح قد حصلت حينما كان عمره ثلاث عشرة سنة(١).

٣ ـ وقد روي: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أوضح أن كونه ابن الذبيحين إنما هو بنذر عبد المطلب، ويذبح إسماعيل «عليه السلام»(٢).

٤ ـ وأخيراً.. فقد أنكر أبو عمرو بن العلاء أن يكون إسحاق هو الذبيح، على اعتبار أن الذبح كان بمكة، وإسماعيل هو الذي كان بمكة وبنى البيت مع والده. وكذا قال ابن القيِّم(٣).

خلاصة وبيان:

ونستخلص مما تقدم: أنه قد كان هناك بشارتان:

إحداهما بولادة إسماعيل «عليه السلام»، فولد، ثم أمر بذبحه، وجرى ما جرى. ثم جاءت البشارة الأخرى بولادة إسحاق بملاحظة: أن أمه لم تكن ولدت، رغم أنها كان قد كبر سنها فبشرها الله بذلك ـ كما

---

(١) راجع: الدر المنثور للعاملي ج١ ص ١٦١.

(٢) البحار ج١٢ ص ١٣٢ ومفاتيح الغيب ج٢٥ ص ١٥٣.

(٣) المصدران السابقان ومجمع البيان ج٨ ص ٤٥٣ والدر المنثور للعاملي ج١ ص ١٦١ والمواهب اللدنية ج١ ص١٨ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص١٦ وتاريخ الخميس ج١ ص٩٥

ذكرته سورة هود ـ فتعجبت: أن تلد وهي في هذا السن.

وعدم ذكر إسماعيل في سورة الصافات، والاكتفاء بذكر إسحاق ويعقوب لعله يشير إلى ذلك أيضاً على اعتبار أن الأمر بالنسبة لإسماعيل كان قد مضى وانقضى.

أهل الكتاب هم الداء الدوي:

وبعد هذا. فإن السؤال الذي يلح في طلب الإجابة عليه هو: من أين جاء هذا الأمر الغريب: أن الذبيح هو إسحاق؟

والجواب: هو ما قاله ابن كثير وغيره: «إنما أخذوه ـ والله أعلم ـ من كعب الاحبار، أو من صحف أهل الكتاب. وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم، حتى نترك من أجله ظاهر الكتاب»(١) فاليهود إذن قد أرادوا ترويج عقيدتهم بين المسلمين، وتخصيص هذه الفضيلة بجدهم إسحاق حسب زعمهم.

ولكن اليهود أنفسهم قد فاتهم: أن التوراة المتداولة نفسها متناقضة في هذا الأمر؛ فإنها في حين تقول: «خذ إبنك، وحيدك، الذي تحبه إسحاق. واذهب إلى أرض المريا، وأصعده هناك محرقة على الخ..»(٢).

فقد عبرت هنا بكلمة: «وحيدك» الدالة على أن إسحاق هو أكبر ولد إبراهيم. ولكنها تعود فتكذب نفسها، وتنص على أن إسحاق لم يكن وحيداً وإنما ولد وعمر إسماعيل أربعة عشر سنة(٣).

(١) البداية والنهاية ج١ ص١٦١ و١٥٩ وراجع السيرة الحلبية ج١ ص ٣٨ عن ابن تيمية.

(٢) سفر التكوين: الإصحاح ٢٢، الفقرة ١ ـ ٣٣ ولتراجع سائر فقرات الإصحاح أيضاً.

(٣) سفر التكوين الإصحاح ١٦ الفقرة ١٥/١٦ نص على أن عمر ابراهيم حين ولادة =

بل لقد ذكر ابن كثير: أنه لا خلاف بين أهل الملل: أن إسماعيل أول ولد إبراهيم وبكره[١].

وقد اعترف أحد مسلمة أهل الكتاب بأن اليهود يعلمون: أن الذبيح هو إسماعيل، ولكنهم يصرون على خلافه حسداً منهم للعرب[٢].

ملاحظات هامة:

الأولى: إننا نلاحظ: أن إبرهيم قد رزق ولده إسماعيل الوحيد في شيخوخته، كما أشار اليه القرآن. وطبيعي أن يكون تعلقه بهذا الولد أشد، وحبه له أعظم. ونلاحظ أيضاً: أن أمر الله تعالى له بذبحه قد كان، وولده في أروع أيام حياته، وفي السن التي يزداد تعلق والديه به فيه، وحبهما له؛ حيث تمتزج المحبة بالعاطفة، والرأفة بالإعجاب. .

وأيضاً، لقد رزقه الله ولداً هو في أعلى درجات الكمال الإنساني، عقلاً ودراية وسلوكاً، واستقامة، إلى غير ذلك من فضائل وكمالات إنسانية فاضلة. وهذا أيضاً ادعى إلى التعلق به، وازدياد المحبة له.

وبعد ما تقدم فإننا نجد: أن الله سبحانه يكلف هذا الأب بذبح طفل كهذا بيده. وإذا كان التخلي عن طفل كهذا في ظروف كهذه هو من أصعب الأمور، فكيف إذا كان يجب أن يتم هذا التخلي بيد نفس ذلك الأب؟!. .

= إسماعيل ٨٦ سنة. وفي سفر التكوين الإصحاح ١٧ والإصحاح ١٨ نص على أنه ولد له إسماعيل وهو ابن ٩٩، أو مئة سنة. وراجع: البداية والنهاية ج١ ص ١٥٣، والسيرة الحلبية: ج١ ص ٣٨.

(١) البداية والنهاية ج١ ص ١٥٧، وراجع: البحار: ج١٢ ص ١٣٤.

(٢) البحار: ج١٢ ص ١٣٤، ومجمع البيان: ج٨ ص ٤٥٣، والسيرة الحلبية: ج١ ص ٣٨. وتاريخ الخميس ج١ ص ٩٥/٩٦ والمواهب اللدنية ج١ ص ١٨.

ويلبي إبراهيم، ويستجيب إلى أمر الله، دون أن يسأل عن السبب، ودون أن يبرمه أمر كهذا، وحتى دون أن يتحير في ذلك؛ لأنه واثق بحسن ما يختاره له ربه، وبصلاح ما يأمره به.

يستجيب لهذا الأمر، ولا يندفع إلى تنفيذه بسرعة وبدون أن يعلم ولده بهذا الأمر، ليريح أعصابه، ويستريح من هذا الكابوس، الأمر الذي يخفي وراءه شيئاً من الضعف والوهن، بل هو يخبر ولده بالأمر، ويطلب منه أن يتخذ هو نفسه أيضاً القرار الحاسم في الإستسلام لذلك أو عدمه وذلك يدل على ثقته بحسن اختيار ولده. ويدل على أنه كان يحترم فيه كبر عقله، وسداد رأيه، ولا يعتبره طفلاً لا يمكن أن توكل إليه أية مسؤلية.

وطبيعي أيضاً: أن يكون توجه إسماعيل لذلك، وأن يتخذ هو نفسه القرار في ذلك بقوله: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. مما يزيد في الآم أبيه.

وإسماعيل.. الذي أراد أبوه أن ينيله أجر الطاعة، ويتذوق حلاوة التسليم، لم يكن منه إلا التسليم لأمرالله سبحانه، والإنصياع له بثقة ورضا ولكنه لا يعتبر هذا التسليم والرضا شجاعة وبطولة منه، وإنما يعتبره خضوعاً لمشيئة الله تعالى ويرى: أن صبره مستمدمنه، ومنته إليه؛ ولذلك عبر الله تعالى عن حالتهما هذه بقوله: «فلما أسلما»؛ فهما قد أسلما لله تعالى، وليس لغيره من الشهوات، ولا للغرائز، ولم تقيدهما القيود المادية، ولا الدنيوية في شيء[1].

ولذلك فإن إبراهيم وولده هما ممن يكون الله أحب إليه من كل شيء مما نصت عليه الآية الكريمة التي تقول: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها، وتجارة

---

(١) لقد أشار في كتاب: في ظلال القرآن إلى بعض ما ذكرناه أيضاً.

تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[١].

الثانية: إن من الواضح أن ذبح إسماعيل، وإراقة دمه لم يكن هو المقصود النهائي له تعالى؛ وذلك لقوله تعالى لإبراهيم: ﴿قد صدقت الرؤيا﴾، وإنما كان المقصود هو البلاء والإمتحان لإبراهيم وولده؛ لقوله تعالى: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾.

وحكمة هذا البلاء هي: أن يزيد في تزكية، وتصفية نفس إسماعيل، في مراحل إعداده لتحمل مسؤولية النبوة، وقيادة الأمة. وكذلك فإن في ذلك تزكية وتصفية وامتحاناً لنفس إبراهيم «عليه السلام» ولربما يكون ذلك من الكلمات اللواتي استحق إبراهيم بإتمامهن أن يجعله الله للناس إماماً. قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي؟ قال لا ينال عهدي الظالمين﴾[٢]. وكانت قضية الذبح هي البلاء المبين كما نصت عليه الآية الكريمة.

وقد رأيت بعد أن كتبت هذا: أن العلامة الطباطبائي يذكر: أن البعض قد تنبه لذلك كالطباطبائي نفسه، واستدل له، بقوله تعالى: ﴿ومن ذريتي﴾ إذ لا معنى لقوله هذا إن لم يكن له ذرية بالفعل، كما أنه لم يكن يعلم، ولا يظن: أنه سيكون له ولد قبل تبشير الملائكة له بذلك، وإبراهيم لا يتفوه بما لا علم له به، ولا يظنه، ولا يحتمله، ولا يخطر له على بال، وهو بهذه السن المتقدمة. ولوكان ذلك قبل ولادة إسماعيل؛ لكان اللازم أن يقول: ﴿ومن ذريتي إن رزقتني ذرية﴾[٣].

---

(١) التوبة ٢٤.

(٢) البقرة ١٢٤.

(٣) راجع: الميزان ج١ ص ٢٦٧/٢٦٨.

وقد أورد البعض على الفقرة الاولى بإمكان أن يكون هذا الطلب من إبراهيم قد حصل بعد تبشير الملائكة له بالذرية. فنزلها في كلامه منزلة الأمر الحاصل والمحقق.

وبعد، فإن حكم هذا البلاء، هو أن يضرب بذلك المثل الأعلى للأجيال، في التضحية في سبيل المبدأ الحق، ولا يكتفى بمجرد رفع الشعارات، والإعلان عن المواقف كلامياً فقط. فبإسماعيل وإبراهيم ينبغي أن تكون القدوة لكل مؤمن ومؤمنة.

كما أن في إخراج فضائلهما من عالم القوة إلى عالم الفعل، وإظهارها للناس والتعريف بها تشجيع للفضائل الكامنة في غيرهم، وتحريك لها لتقوم بمحاولة الظهور على الصعيد العملي، أي أن في ذلك هزة عاطفية مؤثرة في كل من يملك عاطفة جياشة؛ تستطيع أن تستثير الفضائل الكامنة في نفس الإنسان؛ لتكون واقعاً حياً وملموساً، ولتقود عملية التغيير الشاملة في حياة الإنسان، ومستقبله بشكل عام.

هذا ومن غير البعيد: أن يكون المجتمع الذي عاش فيه إبراهيم وإسماعيل، قد طغت عليه المادية؛ فأراد الله تعالى تحويل هذا الإتجاه بصورة عملية، دون الإقتصار على إسداء النصايح، والتوجيهات.

ولعل المتأمل في هذه القضية يكتشف الكثير، مما لم نذكره، أولم نشر إليه، والله هو الموفق والمسدد.

الثالثة: ويبقى أن نشير هنا إلى أن من المقطوع به: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لا يريد أن يفتخر بقوله هنا: أنا ابن الذبيحين، وإنما لعله يريد من قوله هذا: أن يوجه الأنظار للإستفادة من هذين الحدثين الهامين جداً. وأيضاً يريد أن يفهم الآخرين: أنه شخصياً ليس غريباً عن هذا الجو، وأنه إذا كان أولئك قد بلغوا هذه المكانة في القرب من الله، والتفاني في سبيله والتسليم له، فلا يجب أن يتوقع منه موقف آخر،

يختلف عن هـذا، أويقـل عنـه. وإذن؛ فـإن آمـالهم في أن يقف مـوقف المساوم ـ في يوم مـا إنما هي سـراب في سراب؛ فـإن القضية قضيـة مبدأ وعقيدة، وليست قضية مصالح شخصية، كما يتخيلون.

وقد اثبتت الوقائع صحة ذلك؛ حيث كـان (ص) يقدم أهـل بيته في الحروب، وقد ضحى بكل غالٍ ونفيس في سبيل هذا الدين.

الرابعة: إن نذر عبد المطلب هذا ربما يقال فيه: إنه غيـر جائـز؛ إذ كيف جاز له التصـرف في شخصية غيـره إلى هذا الحـد؟! وهل يمكن أن يعتقد أحد بـوجوب الـوفاء بنـذر كهذا، يكـون الضحية فيـه نفس محترمـة أخرى، حتى ولو كانت ولداً مثل عبدالله بن عبد المطلب؟!.

والجـواب: إننا نـلاحظ: أن عبد المـطلب قد سـار في إيمانـه سيراً تكـاملياً[1] كما أشار إليه الحلبي حيث قال: ورفض في آخر عمـره عبـادة الاصنام، ووحد الله سبحانه[2].

وبهذا نفسر كونه في أول أمره يسمي أبناءه بـ «عبد مناف» ومناف إسم صنم، و «عبد العزّى» والعزى كذلـك. ولكنه يتـرقى ويتقدم حتى يبلغ بـه الأمر حداً من التسليم والإيمان بالله، أن أرعب إيمـانه هـذا أبرهـة صاحب الفيل، كما يذكره المؤرخون.

وقد أشبه في هـذا الأمر نبي الله إبـراهيم «عليه السـلام» فإن ابـراهيم على مـا يظهـر كان مـوحداً لإحسـاسه الـوجداني والفـطري بوجـود إله واحـد قادر،

---

(١) وهذا لا ينافي ما سيأتي إن شاء الله، من أن جميع آبـائه كـانوا مؤمنـين موحّـدين؛ فإن المهم هو وصولهم جميعاً إلى درجة الإيمان ولو بصورة تكاملية وتدريجية. إلا أن يقال: إنه لم يثبت تسمية أبنائه بعبد العزى، وعبد مناف. ولعلها أسماء قد لحقتهم بعد أن كبروا وظهر شركهم بالله واهتمامهم بالعزى وبغيرها من الأصنام.

(٢) السيرة الحلبية: ج١ ص ٤، والسيرة النبوية لدحلان (بهامش الحلبية). ج١ ص ٢١.

عـالم حكيم إلخ . . ولكنـه بعد أن بلغ سن الـرشـد أراد أن يـدعم هـذا الإيمـان الوجداني بالدليل والبرهان؛ فدخل المختبر وجرب حتى وصل إلى النتيجة **﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هـذا ربي، فلما أفـل قال: لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي. فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالمين. فلما رأى الشمس بـازغة قـال هذا ربي، هذا أكبر. فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون﴾**.

هذا إن قلنا: إن كـلام إبراهيم كـان على سبيل الحقيقـة وليس على سبيل الإستدراج.

وكـذلك كـان حال عبـد المطلب، فلعله كـان يعتقـد بـالله الـواحـد القـادر، الحكيم إلخ . . إستنـاداًإلى حكم الفـطرة والـوجـدان. لكنـه كـان يحتمل اولاً أن يكون لهذه الأصنام شأن وشفاعة(مّا) من دون أن يؤثـر ذلك على توحيده. ثم ترقى في فهمه فأدرك أنها لا شيء.

والفرق بينه وبين إبـراهيم في السرعـة والبطء. والا فإن إبـراهيم لم يعرف الله بالوحي، وإلا لم يمكن إثبات نبوته.

هذا بالنسبة لإيمانه أما بالنسبة لسلوكه ومواقفـه فإنهم يقـولون عنـه: إنه كان يقطع يد السارق، ويمنع من طواف العراة، ويوفي بالنـذر، ويؤمن بالمعاد، ويحرم الزنـا، والخمر، ونكـاح المحارم، وكـان يأمـر ولده بتـرك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيات الأمور، وكان مجاب الدعوة وترك الأصنام[1].

وقـد ذكرت كتب التـاريـخ: أن بعض الأصنـام قـد كـانت تمـاثيـل

---

(١) راجع: السيرة الحلبية ج١ ص ٤، والسيرة النبوية لدحلان (مطبوع بهامش الحلبية): ج١ ص ٢١. ومسالك الحنفا ص ٤١، عن الملل والنحل للشهرستاني. وراجع: تاريخ الخميس ج١ ص ٢٣٧.

لأشخاص من أهل الخير والصلاح، فراجع كتاب الأصنام لابن الكلبي، وسيرة ابن هشام وغير ذلك.

وعن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: يا علي، إن عبدالمطلب كان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذبح على النصب؛ ويقول: أنا على دين إبراهيم «عليه السلام»(١).

وقد بلغ الحد الإيماني الأعلى بعد ولادة حفيده محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» حيث سمع ورأى الكثير من العلامات الدالة على نبوته (ص) بأم عينيه. وشهد وعاين الكثير من الكرامات والدلالات القطعية فيه.

وبعد كل ما تقدم نقول: انه لا مانع من أن يكون اعتقاده أولاً انه يرى لنفسه الحق في تصرف كهذا، ونذر كهذا ولم يكن ذلك مستهجناً لدى العرف آنئذٍ.

أضف إلى ذلك: أنه لم يثبت عدم جواز نذر كهذا في الشرايع السابقة. فقد نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً لخدمة بيوت الله. وأمر الله تعالى نبيه إبراهيم بذبح ولده إسماعيل.

النسخ في قصة إبراهيم:

هذا، وقد ادعى البعض: أن قصة إبراهيم تدل على جواز النسخ قبل حضور وقت العمل.

وأجيب عن ذلك:

أولاً: إن إبراهيم «عليه السلام» لم يؤمر بالذبح الذي هو فري الأوداج، بل أمر بالمقدمات، كما يدل عليه قوله تعالى: **﴿قد صدقت**

(١) البحار: ج٧٧ ص ٥٦.

الرؤيا﴾.

ولو كان ما فعله بعض المأمور به لكان مصدقاً لبعض الرؤيا[1] فلا يصح قوله تعالى: ﴿قد صدقت الرؤيا﴾.

وثانياً: إن وقت الفعل حاضر؛ فإن إبراهيم قد شرع في التنفيذ فعلاً. فالنسخ لو سلم، فإنما هو قبل وقوع الفعل، لا قبل حضور وقت العمل.

ونقول: إن النسخ يمكن أن يكون مع كون الأمر بداعي الإمتحان أو غيره أولاً، ثم يصدر أمر عن مصلحة واقعية ثانياً فينسخه.

البداء عند الشيعة:

ويتفرع على مسألة النسخ مسألة البداء؛ التي هي موضع خلاف بين الشيعة وغيرهم، وقد صارت مصدراً للإفتراءات الكثيرة على الشيعة. ونحن نشير إلى توضيح هذه المسألة بما يسمح به المجال، فنقول:

قال آية الله الحجة السيد عبد الحسين شرف الدين (رحمه الله):

«حاصل ما تقوله الشيعة هنا: ان الله عز وجل قد ينقص من الرزق، وقد يزيد فيه، وكذا الأجل، والصحة والمرض، والسعادة والشقاوة، والمحن والمصائب، والإيمان والكفر، وسائر الأشياء، كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿يمحوالله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾[2].

وهذا مذهب عمر بن الخطاب، وأبي وائل، وقتادة. وقد رواه جابر عن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم». وكان كثير من السلف يدعون،

---

(١) معالم الدين: ص ٢٠٨، وراجع: البحار ج١٢ ص ١٣٧، ومفاتيح الغيب، ج٢٥ ص ١٥٥.

(٢) الرعد ٣٩.

ويتضرعون إلى الله أن يجعلهم سعداء لا أشقياء. وقد تواتر ذلك عن أئمتنا في أدعيتهم المأثورة. وورد في السنن الكثيرة: أن الصدقة على وجهها، وبر الوالدين، واصطناع المعروف، يحول الشقاء سعادة، ويزيد في العمر إلخ. . . »[١].

نعم، هذا هو البداء الذي تعتقد به الشيعة تبعاً لائمتهم «عليهم السلام».

وأما البداء بمعنى ظهور رأي جديد له تعالى بعد ان لم يكن يعلم به أولاً، أو بمعنى ان يعمل تعالى عملاً ثم يندم عليه، حيث ظهر له أن المصلحة كانت في خلاف ذلك. أما البداء بهذا المعنى فهو محال على الله، ولم يقل به الشيعة أبداً. كيف؟! وهم أتباع أمير المؤمنين علي «عليه السلام» منشىء نهج البلاغة المشحون بالمعاني التي يعجز العقل البشري عن إدراكها؛ علي الذي تعلم الناس منه ومن أبنائه المعصومين تنزيه الله تعالى عن كل نقص. وأخذوا عنه أدق المعارف حول الله وصفاته سبحانه وتعالى. .

وقد نقل عن الصادق «عليه السلام» قوله: من زعم أن الله يبدو له في شيء، ولم يعلمه أمس، فابرؤوا منه[٢].

وعنه «عليه السلام»: من زعم أن الله بداله في شيء بداء ندامة؛ فهو عندنا كافر بالله العظيم[٣].

---

(١) أجوبة موسى جار الله ص ٨٦/٨٧. وقد ذكر مصادر ما أشار إليه ثمة؛ فراجع. ونظير ذلك ما قاله المجلسي أيضاً، فراجع: سفينة البحار: ج١ ص ٦٢، وقد أوضحه أيضاً بصورة جيدة.

(٢) البحار: ج٤ ص١١١، والإعتقادات للصدوق، باب الإعتقاد بالبداء، وميزان الحكمة ج١ ص ٣٨٩.

(٣) الإعتقادات للصدوق رحمه الله ـ باب الاعتقاد بالبداء، وراجع: هامش البحار: =

التوضيح والتطبيق:

وتوضيح ذلك: أن الله عز وجل يقدر لزيد من الناس مثلاً رزقاً معيناً، أو عمراً معيناً، بحسب ما تقتضيه طبيعته وسجيته، واستعداده الذاتي، ولكنه يعلم أنه سوف يتصدق فيكون ذلك سبباً في زيادة رزقه المقدر له أولاً بقطع النظر عن هذه الصدقة. أو سوف يبر بوالديه فيزيد عمره لذلك كذلك. والله يعلم بذلك كله من أول الأمر.

وقد تقتضي المصلحة أن يطلع الله نبيه على المقتضي لوجود شيء، من دون أن يطلعه على ما سوف يجد في المستقبل له من الموانع، أو ما سوف يفقده من شرائط. فيخبر النبي الناس عنه على تلك الصفة.

ثم بعد ذلك يطلع تعالى النبي على انه يوجد مانع، أو أن المقتضي يحتاج إلى توفر شرائط ومناخات معينة مفقودة فعلا. مع علم الله سبحانه بكل ذلك أولاً وآخراً؛ فإن لله علماً اختص به، وعلماً يطلع عليه نبيه أو يثبته في لوح المحو والإثبات، وقد أشار إلى هذين العلمين، في قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ فمثلاً، لو بنينا بيتاً، فإنه بحسب طبعه صالح للبقاء مئة سنة مثلاً. ولكنه ربما ترد عليه عواصف، أو زلازل، أو سيول، أو نحوها؛ تمنع من بقائه هذه المدة، ويتلاشى في مدة عشر سنوات مثلاً.

فلو أخبرنا الناس: أن هذا البيت يبقى مئة سنة، مع علمنا بأنه سيتلاشى بسبب سيل يأتي من الناحية الفلانية يصل إليه بعد عشرة أيام، ثم أخبرنا ثانياً بأن البيت سيهدم بعد عشرة أيام؛ فإن كلاً من الخبرين يكون صحيحاً. وقد يترتب على إخبارنا الأول مصلحة هامة لا غنى عن تحققها في موطنها.

= ج٤ ص ١٢٥.

وقد يكون من هذا القبيل ما نجده يذكر في علامات الإمام صاحب الزمان «عليه السلام» حيث قد نص الأئمة «عليهم السلام» على أن بعضها: من المحتوم، وسكتوا عن البعض الآخر؛ فلربما يتحقق الجميع، ولربما تفقد بعض الشرائط لبعضها أو توجد بعض الموانع عن تحقق بعضها، ويكون المخبر إنما أخبر عن السير الطبيعي للأمور بغض النظر عن العوارض والطوارىء. وقد أوضحنا ذلك في كتابنا دراسة في علامات الظهور والجزيرة الخضراء، فراجع الفصل الثاني منه.

ويمكن أن تكون قضية إبراهيم وإسماعيل الذبيح من هذا القبيل أيضاً، حيث إنه تعالى ـ لمصلحة يراها، كالإمتحان والإبتلاء، وغير ذلك مما تقدم ـ قد أمر نبيه إبراهيم بذبح ولده ثم فدا ذلك الذبيح بذبح عظيم. وقد أخبر تعالى: إبراهيم بأنه قد صدق الرؤيا.

ولعل قضية إسماعيل إبن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، كانت من هذا القبيل، فقد اقتضت المصلحة أن تتوجه الأنظار نحو إسماعيل هذا، من أجل حفظ نفس الإمام الحق من الأخطار، ثم يموت إسماعيل، ويظهر أن الإمام الحقيقي هو أخوه موسى «عليه السلام».

إشكال.. وجوابه:

الإشكال: أن كلمة «بدا» معناها: ظهر (وليس أظهر). و «بدا لله» لا بد أن يكون معناه ظهر له الأمر وعلم به بعد أن كان يجهله. وذلك محال عليه تعالى كما قلتم. فكيف يمكن توجيه قوله «عليه السلام»: «ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل» وغير ذلك من كلمات عبرت بـ«بداله» أو«بدا لله»؟!.

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿ونـاديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾. ثم اعتبار قضية إسماعيل إبن الإمام الصادق «عليه السلام»

وصرف القتل عنه مرتين بسبب دعاء أبيه «عليه السلام» من البداء، حيث روي عن الإمام الصادق (ع) قوله: ما بدا الله في شيء كما بدا له في إسماعيل[١] ـ إن ذلك ـ يشير إلى أن كلمة بدا لم تستعمل في معنى الإظهار او الظهور. وإنما استعملت بمعنى: تحقيق ما علم في عالم الكون والوجود، نظير كلمة: «علم» في قوله تعالى: ﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[٣].

وقوله سبحانه: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾[٤].

والمقصود: ليتحقق معلومنا، ويتجسد في عالم الوجود. هذا بالنسبة للتعبير بـ «علم».

وكلمه بدا، أيضاً كذلك؛ فبداله، أي تحقق ما علمه في الخارج وعلى صفحة الكون. ولعل قوله تعالى: ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾[٥]، قد استعمل في هذا المعنى أيضاً: أي تحقق ذلك وتجسد في الخارج.

ولعل هذا المعنى أقرب من حمل (بدا) على معنى: أظهر للغير، لأن هذا المعنى لا يناسب التعدية باللام لنفس الذات الإلهية. فلا يصح أن يقال: بدا لله، ويكون المعنى: أظهر للغير. بل هذا غلط ظاهر.

---

(١) سفينة البحار: ج١ ص ٦٢.

(٢) الكهف: ١٢.

(٣) محمد: ٣١.

(٤) البقرة: ١٤٣.

(٥) الزمر: ٤٨.

اليهود، والبداء:

وبعد، فلو أننا لم نقل بالبداء، لكنا مثل اليهود الذين نعى الله عليهم اعتقادهم الفاسد، حيث أنكروا البداء. وقالوا: إن الله قدر الأرزاق والأشياء منذ الأزل، ولا تغيير ولا تبديل فيما قدر، فقد «جف القلم».

وقد قال تعالى مقبحاً قولهم هذا: **﴿وقالت اليهود: يد الله مغلولة، غلت أيديهم، ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان، ينفق كيف يشاء﴾**[1].

وقال الشهرستاني عن اليهود: «ولم يجيزوا النسخ أصلاً قالوا: فلا يكون بعده شريعة أصلاً؛ لأن النسخ في الأوامر بداء ولا يجوز البداء على الله تعالى»[2].

فالإعتقاد بالبداء ضرورة إسلامية وعقيدية، ومن لوازم ومقتضيات تنزيه الله وتوحيده. وهو كذلك منسجم مع مفاد الآيات القرانية، والأحاديث الشريفة.

وعن الصادق والباقر «عليهما السلام»، قال: ما عبد الله تعالى بشيء مثل البداء[3].

هذا وقد أورد المجلسي (رحمه الله) للبداء حكماً جليلة، وفوائد جميلة: فليراجعها من أراد[4].

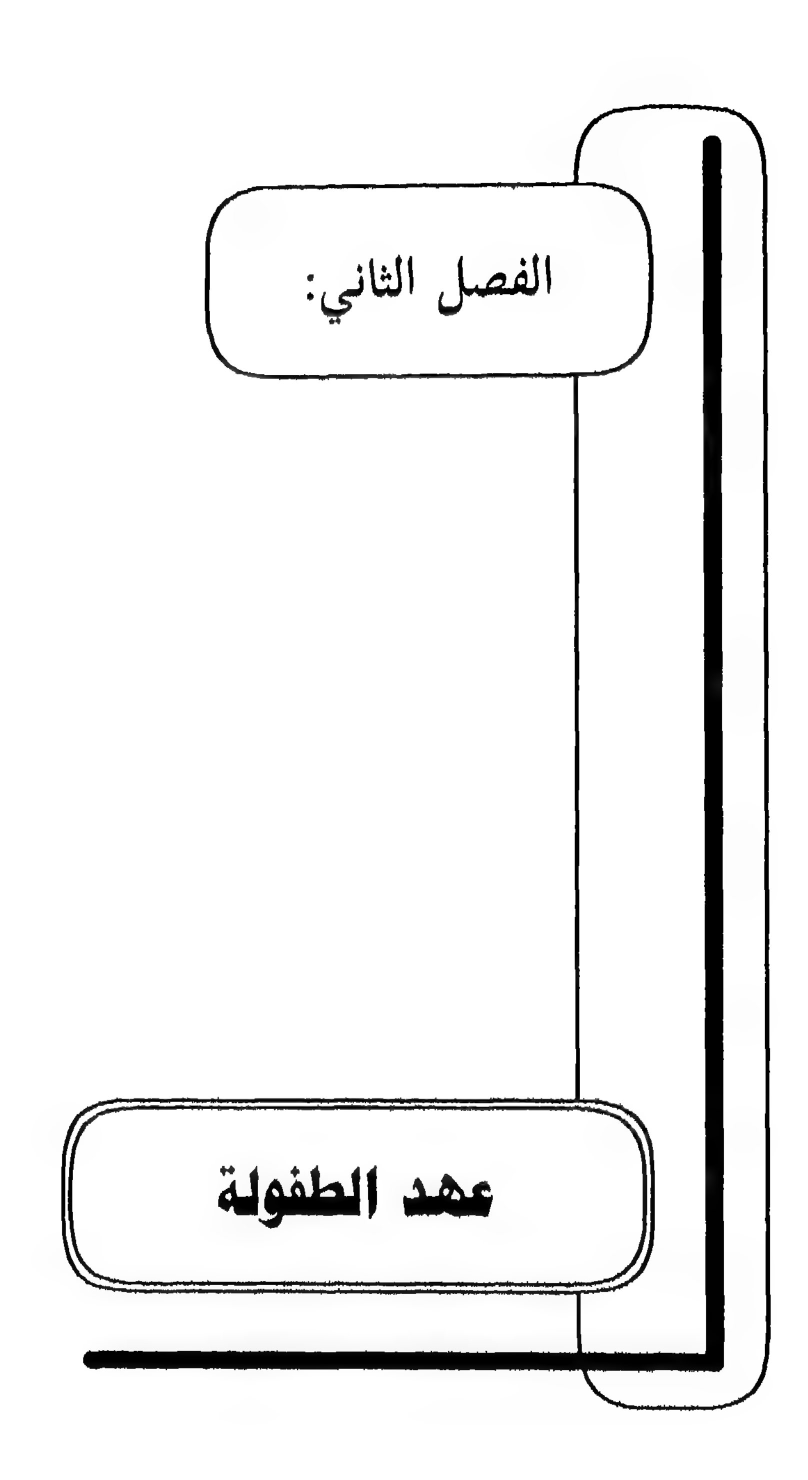
---

(١) سورة المائدة: ٦٤.

(٢) الملل والنحل: ج١ ص ٢١١.

(٣) سفينة البحار: ج١ ص ٦١.

(٤) سفينة البحار ج١ ص ٦٢.



الفصل الثاني:

عهد الطفولة



نسب النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»:

هو أبو القاسم محمد «صلى الله عليه وآله وسلم»، بن عبد الله، بن عبد المطلب، شيبة الحمد، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قُصَي، بن كلاب بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن نضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.

قالوا: إن هذا هو المتفق عليه من نسبه الشريف، أما ما فوقه ففيه اختلاف كثير، غير أن مما لا شك فيه هو أن نسب عدنان ينتهي إلى اسماعيل «عليه السلام».

وقد روي أنه (ص) قال: «إذا بلغ نسبي إلى عدنان فأمسكوا»[1]. ونحن نمسك هنا إمتثالاً لأمره (ص).

وأمه «صلى الله عليه وآله وسلم»: هي آمنة بنت سيدبني زهرة، وهب بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب.

---

(١) كشف الغمة للإربلي ج١ ص ١٥.

مولد النبي (ص):

ولـد النبي «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» بمكـة عـام الفيـل على المشهور [١]. أي قبل البعثة بأربعين سنة.

والمشهور عند الإمامية وبعضٍ من غيرهم أنه ولـد في السابـع عشر من شهـر ربيع الأول. والمشهـور عند غيـرهم ووافقهم الكليني: أنـه ولـد لاثنتي عشرة ليلة خلت منه[٢]. وثمة أقوال أُخر لا مجال لذكرها.

ونصَّ الطبرسي، والكليني على أنه (ص) قد ولد في يوم الجمعـة، وعند غير الإمامية: أنه ولد في يوم الاثنين. وورد: أن أمه قد حملت به في أيـام التشريق. وهي الحـادي عشر، والثـاني عشـر والثـالث عشـر من ذي الحجة [٣].

ولا يخلو ذلك من إشكال، لأنها إن كانت ولدته في تلك السنة، فإن حملها به(ص) يكون ثلاثة أشهر، وتزيد قليلاً، وإن كانت ولدته في السنـة الثانية، فمُدة حمله تكون خمسة عشر شهراً، مع أن أقـل مدة الحمـل ستة أشهر، وأقصاها سنة عند المشهور من الإمامية.

وأجيب: بأن ذلك مبني على النسيء في الأشهر الحرم عند العرب، فإنهم كانوا يقولون مثلاً: إن الأشهر الحرم توضع بعد أربعة أشهر مثلاً، ثم يستحلون القتال في نفس الأشهر التي رُفع الإعتبار عنها.

ولكن إن لم نقـل بأن الحمـل به«صلى الله عليـه وآله وسلم» أربعـة أشهر قد كان من خصوصياته(ص) فـلا يمكننا قبـول تلك الروايـة حتى ولو صـح

---

(١) راجع: سيرة مغلطاي ص ٧/٦ وتاريخ الخميس ج١ ص ١٩٥، وغير ذلك وحكى الاتفاق عليه.

(٢) أصول الكافي ج١ ص ٣٦٤ ط المكتبة الإسلامية بطهران سنة ١٣٨٨.

(٣) أصول الكافي ج١ ص ٣٦٤، وليراجع: تاريخ الخميس ج١ ص ١٩٦.

سندها، وذلك لأن كون تلك الرواية واردة بناء على أشهر النسيء يحتاج إلى إثبات. إذ لم نعهد في تعبيرات المعصومين بناء كلامهم على النسيء، الذي هو زيادة في الكفر، كما لم نعهد ذلك في كلمات المحدثين والمؤرخين. ولا سيما مع عدم نصب قرينة على ذلك.

تعقيب هام وضروري:

لقد قال الإربلي (رحمه الله)، بعد أن أشار إلى الإختلاف في تاريخ ولادته (ص): «إن اختلافهم في يوم ولادته سهل؛ إذ لم يكونوا عارفين به، وبما يكون منه، وكانوا أميين لا يعرفون ضبط مواليد أبنائهم. فأما اختلافهم في موته، فعجيب. والأعجب من هذا مع اختلافهم في الأذان والإقامة، بل اختلافهم في موته أعجب؛ فإن الأذان ربما ادّعى كل قوم أنهم رووا فيه رواية، فأما موته فيجب أن يكون معيناً معلوماً»[1].

وكلام الإربلي (رحمه الله) ظاهر المأخذ؛ فهو يقول: إن اختلافهم في تاريخ ولادة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ربما تكون له مبرراته، ولكنّ ما يثير الدهشة حقاً هو اختلافهم في يوم وفاته «صلى الله عليه وآله وسلم»، مع أنهم كانوا قد عرفوا فيه «صلى الله عليه وآله وسلم» المنقذ والمخرج لهم من الظلمات إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، مع عدم وجود هوى سياسي أو مذهبي يقتضي إبهام ذلك، أو إجماله، أو التلاعب فيه.

وأغرب من ذلك كله، هو اختلافهم في الكثير الكثير من الأمور التي كانوا يمارسونها مع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عدة مرات يومياً، طيلة سنين عديدة، حتى إنك لتجدهم يروون المتناقضات عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» في أفعال الوضوء والصلاة، وهم كانوا يؤدونها معه «صلى

---

(١) كشف الغمة ج١ ص ١٥.

الله عليه وآله وسلم» خمس مرات في كل يوم. بل قد تجد بعضهم يقول: إنهم إنما كانوا يعرفون أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» يقرأ في صلاة الظهر والعصر، من اضطراب لحيته[1].

أمّا اختلافهم في الأذان الذي كانوا يتربّون على سماعه منذ صغرهم؛ فذلك ظاهر أيضاً، كما أشار إليه الإربلي (رحمه الله).

وإذن.. فما هو مدى معرفتهم بتلك الأحكام التي يقل الإبتلاء بها، والتعرض لها عادة يا ترى؟!.

وأيضاً.. هل يصح اعتبار أقوال هؤلاء وافعالهم سُنة ماضية، وشريعة متبعة، ـ كما هو عند بعض الفرق الإسلامية ـ بل تجد بعضهم ربما يرد الحديث الصحيح لقول صحابي، أو لقول حاكم. إن ذلك لعجيب! وأي عجيب!!

وإذا كانوا يختلفون حتى في مثل هذه الامور؛ فهل يعقل بعد هذا أن يصح قول البعض: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد ترك الأمة هكذا هملاً، بلا قائد ولا رائد؟ ولا معلم، ولا مرشد؟ على اعتبار أن الأمة تكون مستغنية عن الهداية والرعاية؟!.

وهذا موضوع هام جداً يحتاج إلى بحث وتمحيص بصورة مفصلة.

قصة كاذبة:

وقد روي عن عبد الله بن عباس، أنه قال: سمعت أبي العباس

---

(١) صحيح البخاري ط سنة ١٣٠٩ هـ ج١ ص ٩٠ و٩٣، ومسند أحمد بن حنبل ج٦ ص ٣٩٥وج٥ ص٢٠٩و١٨٢و١١٢ وجواهر الأخبار والآثار(مطبوع بهامش البحر الزخار): ج٢ ص ٢٤٧ عن الانتصار، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، والبخاري والسنن الكبرى للبيهقي ج٢ ص٣٧ و٥٤ عن الصحيحين والبحر الزخار ج٢ ص٢٤٧.

يحدّث، قال: ولد لأبي عبد المطلب عبد الله فرأينا في وجهه نوراً يظهر كنور الشمس، فقال أبي: إن لهذا الغلام شأناً عظيماً.

قال: فرأيت في منامي أنه خرج من منخره طائر أبيض.. إلى أن قال: فلما انتبهت، سألت كاهنة من بني مخزوم، فقالت: يا عباس، لئن صدقت رؤياك ليخرجنّ من صلبه ولد يصير أهل المشرق والمغرب تبعاً له.

إلى أن قال: فلما مات عبد الله، وولدت آمنة رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أتيته، ورأيت النور بين عينيه يزهر، فحملته، وتفرست في وجهه..

ثم تذكر الرواية ما رأته آمنة، ثم تقول: فهذا ما رأيت يا عباس.

قال ـ يعني العباس ـ: وأنا يومئذٍ أقرأ، وكشفت عن ثوبه، فإذا خاتم النبوة بين كتفيه، فلم أزل أكتم شأنه وأنسيت الحديث، فلم أذكره إلى يوم إسلامي، حتى ذكرني رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»[1].

وأقول: إن هذا الحديث لا يصح، لأن العباس كان أكبر من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بسنتين[2]، فكيف يكون قد حضر ولادة أبيه عبد الله، ورأى ذلك المنام ثم ذهب إلى الكاهنة، ثم حين ولادة الرسول وأخذه وحمله إلخ..

هذا بالإضافة إلى أن نسيانه لهذا الأمر الخطير جداً هو الآخر غير معقول.

ولو سلمنا أنه نسيه، فكيف لا يذكره حين بعثة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، ويبادر إلى التصديق به، وإعلان إسلامه. بل يتأخر في

---

(١) روضة الواعظين ص ٦٤/٦٥.

(٢) الإصابة ج٢ ص ٢٧١.

ذلك هذه السنين الطويلة، بل إلى عام الفتح كما يقولون.

والحقيقة هي أنهم يريدون من أمثال هذه الحكايات اثبات فضائل للعباس (رحمه الله)، مثل كونه أول من أسلم، بل أسلم قبل ولادة النبي نفسه، وما إلى ذلك.

مصير الدار التي ولد فيها النبي (ص):

وكانت ولادته «صلى الله عليه وآله وسلم»، في شعب بني هاشم؛ أو شعب أبي طالب، في الدار التي اشتراها محمّد بن يوسف، أخو الحجاج من ورثة عقيل بن أبي طالب (رحمه الله) تعالى بمائة ألف دينار. ثم صيرتها الخيزران أم الرشيد مسجداً، يصلي فيه الناس[1] ويزورونه، ويتبركون به. وبقي على حالته تلك، فلما: «أخذ الوهابيون مكة في عصرنا هذا هدموه، ومنعوا من زيارته، على عادتهم في المنع من التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وجعلوه مربطاً للدّواب»[2].

رضاعه «صلى الله عليه وآله وسلم»:

ويقولون إن أمه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أرضعته يومين أو ثلاثة، ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أياماً[3].

ثم قدمت حليمة السعدية رحمها الله مكة مع رفيقات لها، بحثاً عن

---

(١) اصول الكافي: ج١ ص ٢٦٤. وقيل: إن زبيدة قد فعلت ذلك. راجع التبرك: ص ٢٤٣ و٢٥٥، وراجع تاريخ الخميس ج١ ص ١٩٨ وراجع أيضاً الروض الأنف ج١ ص ١٨٤ والمواهب اللدنية ج١ ص ٢٥، وتاريخ الأمم والملوك: ج١ ص ٥٧١، والكامل في التاريخ: ج١ ص ٤٥٨ وأخبار مكة للأزرقي ج١ ص ٤٣٣.

(٢) أعيان الشيعة ج٢ ص ٧.

(٣) قاموس الرجال ج١٠ ص ٤١٧ ترجمة ثويبة، عن البلاذري.

ولد ترضعه؛ لتستفيد من رعاية أهله، ومعوناتهم؛ فعُرض «صلى الله عليه وآله وسلم» عليها، فرفضته ـ في بادىء الامر ـ ليتمه. ولكنها عادت، فقبلته، حيث لم تجد غيره، فرأت فيه كل خير وبركة؛ فأرضعته سنتين. ثم أعادته إلى أهله، وهو ابن خمس سنين ويومين ـ كما يقولون ـ ليكون في كفالة جده عبد المطلب، ثم عمه أبي طالب.

ويقول العلامة المحقق السيد مهدي الروحاني: إن قولهم: إنها رفضته في أول الأمر ليتمه إنما يصح بالنسبة ليتيم ضائع، لا أهمية له. وأما بالنسبة لمحمد «صلى الله عليه وآله وسلم» فإن كافله عبد المطلب سيد هذا الوادي. وأمه آمنة بنت وهب، من أشراف مكة. بل ثمة من يقول: إنه لم يكن حينئذٍ يتيماً، وإن أباه قد توفي بعد ولادته بعدة أشهر، قيل: ثمانية وعشرين شهراً. وقيل: سبعة أشهر.[1] انتهى كلامه.

لماذا الرضاع في البادية؟!:

وعلى كل حال فقد كان إرسال الأطفال إلى البادية للرضاع، هو عادة أشراف مكة، حيث يرون أن بذلك ينشأ أطفالهم: أصح أبداناً، وأفصح لساناً، وأقوى جناناً، وأصفى فكراً وقريحة، وهي نظرة صحيحة وسليمة، وذلك لما يلي:

أما كونهم:

١ ـ أصح ابداناً، فلأنهم يعيشون في الهواء الطلق، ويواجهون مصاعب الطبيعة فتصير لديهم مناعة طبيعية تجاه مختلف المتغيرات، في مختلف الظروف.

٢ ـ وكونهم أفصح لساناً، من حيث إنهم يقلّ اختلاطهم بأهل

---

(١) صفة الصفوة ج١ ص ٥١ وكشف الغمة للإربلي ج١ ص ١٦.

الأقطار الأخرى، من الأمم الأخرى، على العكس من سكان المدن، ولا سيما مكة، التي كانت تقيم علاقات تجارية بينها وبين سائر الأقطار والأمم. ولها رحلتا الشتاء والصيف، إلى البلاد التي تتاخم البلاد الاجنبية، التي لا يبعد تأثرها بها ـ قليلاً كان ذلك أو كثيراً ـ.

٣ ـ وكونهم أقوى جناناً، لما قدّمناه في مطاوي كلماتنا في الفصل الأول.

٤ ـ وأما أنهم أصفى فكراً وقريحة، فهو حيث يبتعد الإنسان حينئذٍ عن هموم المدينة، وعن علاقاتها المعقدة والمرهقة، حيث لا يواجه في البادية إلا العيش الساذج والبسيط، والحياة على طبيعتها. ولا يتأثر فكره وعقله، بالمفاهيم والأفكار التي تفرضها تلك الحياة المثقلة بالعلاقات المنحرفة، ثم هو يجد الفرصة للتأمل والتفكير والتعرف على أسرار الطبيعة والكون، ولو في حدود عالمه الناشيء المحدود، ومداركه الناشئة أيضاً.

وليكون من ثم ذا فكر مبدع خلاق، وقريحة صافية وغنية.

ولكن بشرط عدم الإستمرار في هذه الحياة طويلاً؛ فإن الإستمرار في حياة البادية من شأنه أن يجعل الإنسان يعاني من الجمود والإنغلاق، ثم هو يكّون لنفسه مفاهيم وأفكاراً؛ يحوّلها الزمن إلى حقائق لا تقبل الجدل عنده، ويصير من الصعب عليه قبول أي رأي آخر يسير في غير اتجاه قناعاته وأفكاره، فإن تدرّب الإنسان على أن يسمع النقد والمخالفة في الرأي يبعده عن الإستبداد الفكري، ويجعله يبحث عن الدليل، والمبرر لكل فكرة لديه. وإلا؛ فإنه يصير على استعداد للتخلي عنها إلى غيرها مما يستطيع أن يدافع عنه ويستدل عليه. وهذا أمر طبيعي يعرفه الإنسان بالمشاهدة، ويستدل عليه بالتقصّي والتجربة.

أخوا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من الرضاعة:

ويقال: إن أبا سلمة كان أخا للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من الرضاعة، وأخوهما منها أيضاً حمزة بن عبد المطلب، أرضعتهم ثويبة، مولاة أبي لهب بلبن ولدها مسروح[1] وقد تقدم: قولهم: إن ثويبة قد أرضعت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أياماً. ونحن نشك في ذلك، ولا بدّ لنا في مجال توضيح ذلك من التوسع في البحث نسبياً فنقول:

رضاع ثويبة للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» لا يصح:

إننا نشك في أن تكون ثويبة قد أرضعت هؤلاء، ولا سيما رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، وشكنا في ذلك ناشيء عن الأمور التالية:

أولاً: تناقض الروايات، ويكفي أن نذكر:

بالنسبة للمدة التي أرضعتها رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»،

---

(١) راجع: أسد الغابة ج٣ ص ٩٥ وج٢ ص ٤٦ والبدء والتاريخ ج٥ ص ٨ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٩، وبهجة المحافل ج١ ص ٤١ وطبقات ابن سعد ج١ قسم١ ص ٦٧ والإصابة ج٤ ص ٢٥٨ وج٢ ص ٣٣٥ عن الصحيحين، والاستيعاب بهامشها ج٢ ص ٣٣٨ وج١ ص ١٦ و٢٧١ والبحار ج١٥ ص ٣٨٤ عن المنتقى للكازروني، وقاموس الرجال ج١٠ ص ٤١٧ والكامل لابن الأثير ج١ ص ٤٥٩ والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص ١٧٢ والبداية والنهاية ج٤ ص ٩٠ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص ١٨ و١٩ وقسم المغازي ص ٢٠٩ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ والوفاء ج١ ص ١٠٧ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص ١٣١ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ١١٣ وصفة الصفوة ج١ ص ٥٦ و٥٧ وزاد المعاد ج١ ص ١٩ وذخائر العقبى ص ٢٥٩ و١٧٢ واعلام الورى ص ٦ وكشف الغمة ج١ ص ١٥ والأنس الجليل ج١ ص ١٧٦ وأنساب الأشراف (قسم السيرة) ص ٩٤ والسيرة الحلبية ج٣ ص ١٦٤ وفي الروض الأنف: ج١ ص ١٨٦ لكن فيه بدل أبي سلمة. عبد الله بن جحش وراجع: المعجم الصغير ج٢ ص ٨٦.

نجد: بعضها يقول: أرضعته أياماً[١] من دون تحديد، وبعضها يقول: أربعة أشهر تقريباً[٢].

وفي حين نجد بعضها يقول: إن أمه أرضعته ثلاثة أيام[٣].

وقيل: سبعة[٤].

وقيل: تسعة[٥].

(ولعل أحدهما تصحيف للآخر، بسبب عدم النقط في تلك العصور، وتشابه رسم الكلمتين).

وقيل: سبعة أشهر[٦].

وبعضهم لم يحدد مدة إرضاعها له «صلى الله عليه واله وسلم»[٧].

نعم، إننا في حين نجدهم يقولون ذلك كله بالنسبة لإرضاع أمّه له، فإننا نجدهم يذكرون: أن حليمة السعدية أرضعته «صلى الله عليه واله

---

(١) الإصابة ج٤ ص ٢٥٨ والبحار ج١٥ ص ٣٣٧، وفي هامشه عن المناقب ج١ ص ١١٩ وكشف الغمة ج١ ص ١٥ ونور الأبصار ص ١٠ وتهذيب الأسماء ج١ ص ٢٤ وطبقات ابن سعد ج١ قسم١ ص ٦٧ والوفاء ج١ ص ١٠٧ و١٠٦ والأنس الجليل ج١ ص ١٧٦ وصفة الصفوة ج١ ص ٥٦ و٥٧ وزاد المعاد ج١ ص ١٩ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٨ والرصف ج١ ص ٢٢.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ عن شواهد النبوة.

(٣) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٨ ونور الأبصار ص ١٠.

(٤) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ ونور الأبصار ص ١٠.

(٥) السيرة الحلبية ج١ ص ٨٨.

(٦) السيرة الحلبية ج١ ص ٨٨ عن الإمتاع.

(٧) راجع: تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٩ وإسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار ص ٨ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص ١١٣.

وسلم»؛ بعد سبعة أيام من مولده فقط[1] من دون تحديد من أرضعه مدة الأيام السبعة نفسها، مع العلم: أنه بعد إرضاع حليمة له، لم يرتضع من غيرها، وإذا كانت أمه قد أرضعته فيها، فمتى أرضعته ثويبة يا ترى؟!.

ومن جهة أخرى: فإن البعض يصرح بأن أول من أرضعته ثويبة[2].

وبعضهم يصرح بأن أمه أول من أرضعته[3].

ب ـ تناقض الروايات في وقت عتق ثويبة، هل كان ذلك حينما بشرت أبا لهب بولادته «صلى الله عليه وآله وسلم» فأعتقها فأرضعته، أو كان بعد حوالي خمسين سنة، قبيل الهجرة، أو بعدها. كما سيأتي إن شاء الله تعالى؟!.

وثانياً: لقد ذكرت الرواية: أن ثويبة، قد أرضعت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وأرضعت معه حمزة، وأبا سلمة بلبن ولدها مسروح.

ونقول: إن ذلك لا يكاد يصح، لأن حمزة كان أكبر من النبي «صلى

---

(١) مختصر التاريخ لابن الكازروني ص ٣٨.

(٢) راجع: الأنس الجليل ج١ ص ١٧٦ وصفة الصفوة ج١ ص ٥٧/٥٦ ودلائل النبوة، لأبي نعيم ص ١١٣ والكامل في التاريخ ج١ ص ٤٥٩ وطبقات ابن سعد ج١ قسم١ ص ٦٧ وأنساب الأشراف ج١ (قسم حياة النبي صلى الله عليه وآله) ص ٩٤ والبحار ج١٥ ص ٣٨٤ عن المنتقى للكازروني، والبدء والتاريخ ج٥ ص ٨ والإصابة ج٤ ص ٢٥٨ والوفاء ج١ ص ١٠٦ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٨ و٨٥ وذكر عن ابن المحدث: ان أوّل لبن نزل جوفه صلى الله عليه وآله، هو لبن ثويبة.

(٣) راجع: السيرة الحلبية ج١ ص ٨٨ عن الامتاع، واحتمل الحلبي: أن يكون المراد: أن ثويبة أوّل من أرضعه بعد أمه، ولكن قول ابن المحدث، أول لبن نزل جوفه صلى الله عليه واله هو لبن ثويبة لا يناسب هذا الاحتمال.

الله عليه وآله وسلم» بأربع سنين[١] وقيل: كان أكبر منه بسنتين[٢].

وحتى على هذا القول الثاني، فإنه يبعد أن يكونا أخوين من الرضاعة بلبن مسروح.

وأما إذا أخذنا بالقول الأول، فإن القضية تصبح أكثر إشكالاً، وأبعد منالاً.

مع أبي عمر في ترجيحه للقول الثاني:

ويلاحظ، أن أبا عمر قد رفض القول الأول، ورجح الثاني، إستناداً إلى قضية الإرضاع، ثم استدرك على ذلك، قائلاً: «إلا أن يكون أرضعتهما في زمانين»[٣].

ولكنه كلام لا يصح، لأن ما ذكره ليس بأولى من العكس، بحيث تكون زيادة عمره أربع سنين دليلاً على عدم صحة إرضاع ثويبة له بلبن مسروح.

وأما استدراكه المذكور، فيبعده: أن الرواية تقول: إنهما معاً قد

---

(١) اعلام الورى ص ٧ وكشف الغمة ج١ ص ١٥ وتهذيب الأسماء ج١ ص ١٦٨، بلفظ، قيل: وأنساب الأشراف ج١ (قسم حياة النبي صلى الله عليه وآله) ص ٨٤ و٧٩ وذخائر العقبى ص ١٧٢ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٥ والإصابة ج١ ص ٣٥٤ كلاهما بلفظ قيل. والاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص ٢٧١ وأسد الغابة ج٢ ص ٤٦ و٤٩، بلفظ قيل: أيضاً.

(٢) تهذيب الأسماء ج١ ص ١٦٨ والإصابة ج١ ص ٣٥٤ والاستيعاب بهامشه ج١ ص ٢٧١ عن البكائي واختاره في أسد الغابة ج٢ ص ٤٦ و٤٩ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٥ وذخائر العقبى ص ١٧٢ بلفظ: قيل.

(٣) الاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص ٢٧١.

رضعا بلبن مسروح[1]، فلا يصح: أن يكون رضاعهما في زمانين.

توجيه غير وجيه:

وحاول مُحبّ الدين أحمد بن عبد الله الطبري توجيه ذلك بأنه: يمكن أن تكون أرضعت حمزة في آخر سنّيه، في أول رضاع ابنها، وأرضعت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في أول سنّيه، في آخر رضاع ابنها؛ فيكون أكبر بأربع سنين[2].

ونقول: إن ذلك، وإن كان ممكناً في نفسه، ولكنه أمر بعيد الوقوع عادة، كما أن ذلك لا يلائم: أن تكون قد أرضعته أربعة أشهر، حسب ما تقدم عن بعض الروايات. ويزيده بعداً: أننا نجد في بعض النصوص ما يفيد: أن حمزة كان حين قضية وفاء أبيه عبد المطلب بنذره بذبح أحد ولده؛ كبيراً، وراشداً.

بيان ذلك:

أن عبد المطلب رضوان الله تعالى عليه، كان قد نذر: لئن وُلد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه، حتى يمنعوه، ليذبحنّ أحدهم لله، عند الكعبة.

فلما تكامل بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، وهم:

الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة وأبو طالب، وعبد الله، جمعهم، ثم أخبرهم بنذره.

---

(١) راجع في ذلك: ذخائر العقبى ص ١٧٢ و٢٥٩ والوفاء ج١ ص ١٠٧ وبهجة المحافل ج١ ص ٤١ وزاد المعاد ج١ ص ١٩ وتاريخ ابن الوردي ج١ ص ٢٣١ وإن كان ربما يناقش في ظهور كلامه. وراجع: طبقات ابن سعد ج١ قسم١ ص ٦٧ والاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص ١٦ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٥ و٨٦.

(٢) ذخائر العقبى ص ١٧٢.

إلى أن تذكر الرواية: أنه أقرع بينهم فـ: «خرج القدح على ابنه عبد الله، وكان أصغر ولده، وأحبهم إليه. فأخذ عبد المطلب بيد ابنه عبد الله، وأخذ الشفرة الخ».

ثم تذكر الرواية: أن العباس هو الذي اجتذب عبد الله من تحت رجل ابيه، فراجع[1].

مناقشة غير موفقة:

وناقشوا في هذه الرواية: بأن العباس إنما كان يكبر النبي بثلاث سنوات فقط، فقد روي عن العباس نفسه، أنه قال:

أذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا ابن ثلاثة أعوام، أو نحوها، فجيء به حتى نظرت إليه، فجعلت النسوة يقلن لي: قبِّل أخاك، فقبلته[2].

ولكن الإيراد بما ذكر، ليس بأولى من العكس؛ فإن من الممكن أن تكون رواية ابن إسحاق هي الصحيحة، وأما رواية: أن العباس كان يكبر النبي«صلى الله عليه وآله وسلم» بثلاث سنين فقط، فلعلها هي الموضوعة لأهداف سياسية من قبل العباسيين في ما بعد.

(١) راجع البداية والنهاية ج٢ ص ٢٤٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ١٧٤ والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٦٠وراجع: السيرة الحلبية ج١ ص ٣٦ وفي السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ١٥ وإن كان لم يذكر: أن عبد الله كان أصغر ولده، ولكنه ذكر حمزة والعباس في جملة أولاد عبد المطلب حين قضية الذبح..

وذكر في الكامل لابن الأثير ج٢ ص ٦ وتاريخ الأمم والملوك ج٢ ص ٤ ط الاستقامة: ان عبد الله كان أصغر ولده، وأحبهم، لكنه لم يسم أولاد عبد المطلب..

(٢) راجع: السيرة الحلبية ج١ ص ٣٦ وشرح بهجة المحافل ج١ ص ٣٥ والروض الأنف ج١ ص ١٧٦.

ويؤكـد ذلـك: أن ابن إسحــاق حجـة في السيــرة النبـويــة، غيـر مدافع[1]، فلا يرد قوله؛ إستناداً إلى رواية يحتمل في حقها ما ذكرناه.

وإذن، فقد يكون عمـر حمزة والعبـاس، حين قضية الـذبح حـوالي ثمان إلى عشر سنين، يضاف إليها خمس سنوات كانت بين قصـة الذبـح، وبين ولادة رسـول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم[2]، ويصيـر المجمـوع حوالي ثلاثة عشر إلى خمسة عشر من السنين تقريباً.

وهـذا الذي ذكـرناه من الإشكـال، دفع البعض إلى أن يقـول: إنها أرضعت حمزة قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأرضعت بعده أبـا سلمة[3].

ولكن يرد عليه: أن تصـريح الـرواية، بـأنها أرضعتهم جميعـاً بلبن ابنها مسروح يأبى هذا المجمع التبرعي، الذي لا يستند إلى أي دليل.

إلا أن يكـون مـراده مـا تقـدم عن محب الـدين أحمـد بن عبـدالله الـطبري: بـأن تكون قـد أرضعت حمزة في أواخـر سنيه، في آخـر رضاع ابنها.

---

(١) وفي غير السيرة أيضاً؛ فراجع: تهذيب التهذيب ج٩ ص ٣٩ ـ ٤٦ ترجمة: ابن إسحاق.

(٢) في أنساب الأشراف ج١ (قسم حياة النبي صلى الله عليه وآله) ص ٧٩: قال الواقدي: كان نحر الإبل قبل الفيل بخمس سنين.

(٣) الأنس الجليل ج١ ص ١٧٦ وراجع: صفة الصفوة ج١ ص ٥٦/٥٧ واعلام الورى ص ٦ وكشف الغمة ج١ ص ١٥ والكامل في التاريخ ج١ ص ٤٥٩ وطبقات ابن سعد ج١ ص ٦٧ وأنساب الأشراف ج١ ص ٩٤ قسم حياة النبي صلى الله عليه واله والبحار ج١٥ ص ٣٨٤ عن المنتقى للكازروني وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ١١٣ والإصابة ج٤ ص ٢٥٨ والاستيعاب بهامش الإصابة ج٢ ص ٣٣٨ وأسد الغابة ج٣ ص ١٩٥ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٥ و٨٧ وقاموس الرجال ج١٠ ص ٤١٧.

ولكنه بناء على ما قدمناه، من أن من الممكن أن يكون حمزة كان يكبر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بحوالي عقد من الزمن، لا يصح حتى بناء على قول الطبري هذا.

عدد أولاد عبد المطلب:

بقي علينا أن نشير إلى المناقشة، التي تقول: إن أولاد عبد المطلب، كانوا ثلاثة عشر، وأن حمزة والعباس قد ولدا فيما بعد.

فإنها مناقشة مردودة، لأن «حجلاً» هو في الحقيقة لقب للغيداق، و «المقوم» لقب لعبد الكعبة، أما قثم فلا وجود له أصلاً، حسبما ذكره البعض[1].

وأخيراً، فإننا نشير إلى أن اليعقوبي ينص على أن عدة أولاد عبد المطلب: عشرة، ولكنه حينما يعدّ، أسماءهم، يذكر إسم أحد عشر رجلاً[2].

إلا أن يكون قد ذكر لواحد منهم كلّاً من إسمه ولقبه، حتى بدا أنهما إثنان، مع أنهما لواحد.

أبو لهب وعتق ثويبة:

ويبقى أن نشير إلى أنهم يقولون ـ حسبما تقدم ـ: أنه لما ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، جاءت ثويبة إلى مولاها أبي لهب، فبشرته بولادته صلى الله عليه وآله وسلم. فأعتقها، فأرضعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بلبن ولدها مسروح.

---

(١) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ١٦ وراجع، الاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص ٢٧٢.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١١ وراجع، الاستيعاب بهامش الإصابة ج١ ص ٢٧٢.

ثم رئي أبو لهب بعد موته في النوم ـ رآه العباس ـ حسب رواية ذكرها طائفة من المؤلفين، أو رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ حسب رواية اليعقوبي ـ بشّر حال، وأسوئه، فسأله عن حاله، فأخبره: أنه بشّر حال غير أنه يخفف عنه العذاب ـ أو يسقى في نقرة إبهامه ـ كل يوم إثنين؛ لعتقه ثويبة، حينما بشرته بذلك[1].

قال القسطلاني: «... قال ابن الجزري: فإن كان هذا أبو لهب، الكافر، الذي نزل القرآن بذمه، جُوزي في النار بفرحة ليلة مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم به؛ فما حال المسلم الموحد من أمته«صلى الله عليه وآله وسلم»، الذي يسرّ بمولده، ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته؟!.

لعمري، إنما يكون جزاؤه من الكريم: أن يدخله بفضله العميم، جنات النعيم[2].

ورحم الله حافظ الشام، شمس الدين، محمد بن ناصر، حيث قال:

---

(١) راجع: السيرة لابن كثير ج١ ص ٢٢٤. والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٧٣، وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٩ وفتح الباري ج٩ ص ١٢٤ وعمدة القاري ج٢٠ ص ٩٥ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٤ و٨٥ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٢٥ ورسالة حسن المقصد للسيوطي، المطبوعة مع: النعمة الكبرى على العالم ص ٩٠ وإرشاد الساري ج٨ ص ٣١ وجواهر البحار ج٣ ص ٣٣٨/٣٣٩ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص ١٩ والوفاء ج١ ص ١٠٧ ودلائل النبوة للبيهقي ج١ ص ١٢٠ وبهجة المحافل ج١ ص ٤١، وطبقات ابن سعد ج١ قسم١ ص ٦٧ و٦٨ والمواهب اللدنية ج١ ص ٢٧ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ وسيرة مغلطاي ص ٨ وصفة الصفوة ج١ ص ٦٢ ونور الأبصار ص ١٠ وإسعاف الراغبين بهامشه ص ٨ وهو ظاهر صحيح البخاري ج١ ص ١٥٧ ط سنة ١٣٠٩ هـ.ق.

(٢) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٢٧ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ ورسالة حسن المقصد للسيوطي المطبوعة مع النعمة الكبرى على العالم ص ٩٠/٩١.

إذا كان هذا كافر جاء ذمّه | وتبت يداه في الجحيم مخلدا
أتى أنه في يوم الإثنين دائماً | يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره | بأحمد مسروراً ومات موحداً؟!(١)

ونقول:

إن هذا الكلام كله باطل، ولا يصح، وذلك لأنهم يقولون: إن عتق ثويبة، قد تم بعد مولده صلى الله عليه وآله وسلم بدهر طويل، أي بعد أزيد من خمسين سنة؛ إما قبيل الهجرة، أو بعدها. وكانت خديجة رضوان الله تعالى عليها، تحاول شراءها من أبي لهب، لتعتقها، بسبب ما يزعم من إرضاعها له صلى الله عليه وآله وسلم، فرفض أبو لهب بيعها(٢).

وقد حاول الحلبي توجيه ذلك: بأن من الممكن أن يكون أبو لهب قد أعتقها أولاً، لكنه لم يذكر ذلك، ولم يظهره، ورفض بيعها لخديجة لكونها كانت معتوقة، ثم عاد فأظهر ذلك(٣).

ولكنه توجيه باطل. إذ من غير المعقول ولا المقبول؛ أن لا يظهر للناس، ولا يطلعوا على عتقه لجاريته طيلة ما يزيد على ثلاث وخمسين سنة، ولماذا لم تخبر هي نفسها أحداً بذلك، وما هو الداعي له ولها للكتمان، ولا سيما قبل النبوة، وما هو الداعي للإظهار بعد ذلك، ولا سيما بعد الهجرة؟!.

(١) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٢٥ ورسالة حسن المقصد، للسيوطي، المطبوعة مع النعمة الكبرى ص ٩١.

(٢) أنساب الأشراف (سيرة النبي صلى الله عليه وآله) ج١ ص ٩٥ ـ ٩٦ والكامل في التاريخ ج١ ص ٤٥٩ وطبقات ابن سعد ج١ ق١ ص ٦٧ و٦٨ والاصابة ج٤ ص ٢٥٨ والاستيعاب بهامش الاصابة ج١ ص ١٦ وإرشاد الساري ج٨ ص ٣١ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٥ وراجع: الوفاء ج١ ص ١٠٧ وفتح الباري ج٩ ص ١٢٤ وذخائر العقبى ص ٢٥٩ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢، وسيرة مغلطاي ص ٨ وقاموس الرجال ج١٠ ص ٤١٧.

(٣) السيرة الحلبية ج١ ص ٨٥.

ولماذا بقيت هذه الجارية التي أعتقها عنده طيلة هذه المدة المتمادية، وهي خارجة عن ملكه.

هذا كله؛ عدا عن أنه لا حجية في المنامات، ولا اعتبار بها.

وعدا عن أن الرواية مرسلة أيضاً.

وأما بالنسبة لتخفيف العذاب عن أبي لهب، فنقول: إن فرحه إذا كان استجابة لحاجة نفسية طبيعية، ولم يكن لله سبحانه وتعالى، فلماذا يثاب عليه، ولماذا يخفف عنه العذاب لأجله، والأفعال الحسنة إنما يلقى الكفار جزاءها في الدنيا لا في الآخرة، فإنه ليس لهم في الآخرة من خلاق، ولا لهم فيها نصيب. وقد قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل، فجعلناه هباء منثوراً﴾[1].

شرك أبي لهب:

إن المعلوم أن أبا لهب قد بقي على شركه، وكان من أعدى أعداء الله، والإسلام، ورسول الإسلام. فلا يعقل أن يجعل الله له يداً على النبي صلى الله عليه وآله يستحق المكافأة عليها. ولأجل ذلك لم يكن صلى الله عليه وآله يقبل هدية مشرك، بل كان يردها[2].

وقد قال صلى الله عليه وآله: «اللهم لا تجعل لفاجر، ولا لفاسق عندي نعمة»[3] فكيف إذا كان هذا الفاسق والفاجر هو أبو لهب لعنه الله بالذات؟!.

---

(١) الفرقان ٢٣.

(٢) مستدرك الحاكم ج٣ ص ٤٨٤ وتلخيصه للذهبي بهامشه والمصنف لعبد الرزاق ج١ ص ٤٤٦ و٤٤٧ وفي الهامش عن مغازي ابن عقبة، وعن الترمذي ج٢ ص ٣٨٩ وعن أبي داود وأحمد، وكنز العمال ج٦ ص ٥٧ و٥٩ وج٣ ص ١٧٧ عن ابن داود، والترمذي، وصححه، وأحمد، والطيالسي، والبيهقي وابن عساكر، والطبراني وسعيد بن منصور.

(٣) راجع: أبو طالب مؤمن قريش للخنزي.

هذا كله، عدا عن أن نفس ثويبة لم يعلم لها إسلام، حتى لقد قال أبو نعيم: لا أعلم أحداً أثبت إسلامها غير ابن مندة، مع أنها قد توفيت سنة سبع من الهجرة[١].

وأي نعمة أعظم من إرضاعها له صلى الله عليه وآله؟!.

وبعض من تأخر قد نقل: أنها أسلمت[٢]. ولعله استند في ذلك إلى قول ابن مندة، أو استفاد ذلك مما ينقل عن برِّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بها[٣].

وقال العسقلاني: «. . . وفي باب من أرضع النبي(ص) ما يدل على أنها لم تسلم»[٤].

وعلى كل حال؛ فإن كل ما تقدم، وسواه، يجعلنا نشك كثيراً، في أن تكون ثويبة قد أرضعت رسول الله، وحمزة، وأبا سلمة، بلبن ولدها مسروح ليكونوا جميعاً أخوة من الرضاعة.

تنازع الظئر في رضاعه:

وروى مجاهد، قال: قلت لا بن عباس: وقد تنازعت الظئر في

(١) راجع: سيرة مغلطاي ص ٨ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٢٢ والوفاء ج١ ص ١٠٧ وذخائر العقبى ص ٢٥٩ والسيرة الحلبية ج١ ص ٨٧، وفتح الباري ج٩ ص ١٢٤ والإصابة ج٤ ص ٢٥٧ وإرشاد الساري ج٨ ص ٣١ وصفة الصفوة ج١ ص ٦٢ وزاد المعاد ج١ ص ١٩ وشرح الأشخر اليمني على بهجة المحافل ج١ ص ٤١ وأسد الغابة ج٥ ص ٤١٤ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٢٥ وقاموس الرجال ج١٠ ص ٤١٧.

(٢) راجع: اعلام الورى ص ٦ وكشف الغمة ج١ ص ١٥ والبحار ج١٥ ص ٣٣٧ وبهامشه عن: المناقب ج١ ص ١١٩ عن كتاب العروس للطبري.

(٣) راجع: ذخائر العقبى ص ٢٥٩ وصفة الصفوة ج١ ص ٦٢.

(٤) الإصابة ج٤ ص ٢٥٧.

رضاع محمد؟!.

قال: أي والله، وكل نساء الجن.. إلى أن قال: فخص بذلك حليمة(١).

وروى أبو الحسن البكري في كتابه الأنوار، قال: حدثنا أشياخنا، وأسلافنا الرواة: أنه كان من عادة أهل مكة، إذا تم للمولود سبعة أيام، إلتمسوا له مرضعة ترضعه.. إلى أن قال: فتطاولت النساء لرضاعته وتربيته.. ثم يذكر: أن الهاتف أخبر آمنة: بأن مرضعته في بني سعد، وإسمها حليمة؛ فظلت تتوقع مجيئها، حتى جاءت؛ فأعطتها إياه(٢).

وذلك واضح الدلالة على عدم صحة ما يقال: من أن النساء المرضعات قد زهدن فيه ليتمه، وأن حليمة، إنما قبلت به؛ لأنها لم تجد سواه، ولم تحب أن ترجع رفيقاتها برضيع، وترجع هي خالية.

ومما يدل على عدم صحة ذلك أيضاً: أن عبد المطلب قد قال لحليمة: «أنا جده، أقوم مقام أبيه، فإن أردت أن ترضعيه دفعته إليك، وأعطيتك كفايتك»(٣).

وثمة رواية أخرى تدل على عدم صحة ذلك أيضاً رواها المجلسي، عن الواقدي، فلتراجع(٤).

حديث شق الصدر:

وما دمنا في الحديث عن رضاعه صلى الله عليه وآله وسلم في بني سعد، فإننا لا نرى مناصاً من إعطاء رأينا في رواية وردت في هذه المناسبة، وهي التالية: أخرج مسلم بن الحجاج: «عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاه جبرئيل، وهو يلعب مع

---

(١) البحار ج١٥ ص ٣٨٥.

(٢) البحار ج١٥ ص ٣٧١.

(٣) البحار ج١٥ ص ٣٧٣.

(٤) البحار ج١٥ ص ٣٤١، وص ٣٤٢.

الغلمان؛ فأخذه وصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة؛ فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب، بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه.

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه، وهو منتقع اللون.

قال أنس: «وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[١].

وكان ذلك هو سبب إرجاعه صلى الله عليه وآله إلى أمه[٢].

وكتب الحديث والسيرة عند غير الإمامية لا تخلو عن هذه الرواية غالباً. بل قد ذكروا أنه قد شُقَّ صدره صلى الله عليه وآله خمس مرات، أربع منها ثابتة: مرة في الثالثة من عمره، وأخرى في العاشرة، وثالثة عند مبعثه، ورابعة عند الإسراء، والخامسة فيها خلاف.

توجيه غير وجيه:

ويقولون: إن تكرار شق صلى الله عليه وآله إنما هو زيادة في تشريفه عليه الصلاة والسلام. وقد نظم بعضهم ذلك شعراً فقال:

أيا طالباً نظم الفرائد في عقد ... مواطن فيها شق صدر لذي رشد

لقد شق صدر للنبي محمد ... مراراً لتشريف، وذا غاية المجد

فأولى له التشريفَ فيها مؤثل ... لتطهيره من مضغة في بني سعد

وثانية كانت له وهو يافع ... وثالثة للمبعث الطب الند

ورابعة عند العروج لربه ... وذا باتفاق فاستمع يا أخا الرشد

وخامسة فيها خلاف تركتها ... لفقدان تصحيح لها عند ذي النقد[٣]

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص ١٠١ ـ ١٠٢ وفيه ثمة روايات أخرى عن شق صدره صلى الله عليه وآله فليراجع من أراد.

(٢) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٧٤/١٧٥، وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٠، وغير ذلك.

(٣) راجع: أضواء على السنة المحمدية ص ١٨٧.

كما أننا في نفس الوقت الذي نرى فيه البعض يعتبر هذه الرواية من إرهاصات النبوة كما صرح به ناظم الأبيات السابقة وغيره[١]، ومثار إعجاب وتقدير.

فإننا نرى: أنها عند غير المسلمين، إما مبعث تهكم وسخرية، وإما دليل لإثبات بعض عقائدهم الباطلة، والطعن في بعض عقائد المسلمين.

ونرى فريقاً ثالثاً يعتبر الرواية موضوعة، من قبل من أراد أن يضع التفسير الحرفي لقوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك»[٢].

واعتبرها صاحب مجمع البيان أيضاً «مما لا يصح ظاهره، ولا يمكن تأويله إلا على التعسف البعيد؛ لأنه كان طاهراً مطهراً من كل سوء وعيب، وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد بالماء؟»[٣].

ونجد آخر[٤] يحاول أن يناقش في سند الرواية. ونظره فقط إلى رواية ابن هشام، عن بعض أهل العلم، ولكنه لم يعلم أنها واردة في صحيح مسلم بأربعة طرق. ولو أنه اطلع على ذلك لرأينا له موقفاً متحمساً آخر؛ لأنها تكون حينئذٍ كالوحي المنزل، على النبيّ المرسل.

ولعل خير من ناقش هذه الرواية نقاشاً موضوعياً سليماً هو العلامة الشيخ محمود أبو رية في كتابه القيم: «أضواء على السنة المحمدية»؛ فليراجعه من أراد..

رأينا في الرواية:

ونحن هنا نشير إلى ما يلي:

---

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٥٣، وراجع سيرة المصطفى للحسني ص ٤٦.

(٢) راجع حياة محمد لمحمد حسين هيكل ص ٧٣ والنبي محمد للخطيب ص ١٩٧.

(٣) الميزان ج١٣ ص ٣٤، عن مجمع البيان.

(٤) النبي محمد لعبد الكريم الخطيب ص ١٩٦.

١ ـ إن ابن هشام وغيره يـذكرون: أن سبب إرجـاع الرسـول «صلى الله عليـه وآله وسلم» إلى أمـه، هو أن نفـراً من الحبشة نصـارى، رأوه مع مرضعته، فسألوا عنه، وقلّبوه، وقالوا لها: لنأخذنّ هذا الغلام، فلنذهبنّ به إلى ملكنا وبلدنا الخ[1].

وبذلك تصير الرواية المتقدمـة التي تذكـر أن سبب إرجاعـه إلى أمه هو قضية شق الصدر محل شك وشبهة.

٢ ـ كيف يكـون شق صدره «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» هـو سبب إرجاعه إلى أمه؛ مع أنهم يذكرون: أن هـذه الحادثـة قد وقعت لـه «صلى الله عليـه وآله وسلم» وعمـره ثلاث سنين، أو سنتـان وأشهر. مـع أنه إنمـا أعيد إلى أمه بعد أن أتم الخمس سنين.

٣ ـ هل صحيح أن مصدر الشر هو غدة، أو علقة في القلب، يحتاج التخلص منها إلى عملية جراحية؟!.

وهل يعني ذلك أن بـاستطاعـة كل أحـد ـ فيما لـو أجريت لـه عملية جراحية لاستئصال تلك الغدة ـ أن يصبح تقيّاً ورعاً، خيِّراً؟!.

أم أن هذه الغدة أو العلقة قد اختص الله بها الرسـول الأعظم «صلى الله عليـه وآله وسلـم»، وابتـلاه بها دون غيـره من بني الإنسـان؟!. ولمـاذا دون غيره؟!.

٤ ـ لماذا تكررت هـذه العملية أربـع، أو خمس مرات، في أوقـات متباعدة؟ حتى بعـد بعثته «صلى الله عليـه وآله وسلم» بعـدة سنين، وحين الإسراء والمعراج بالذات؟!

فهل كانت تلك العلقة السوداء، وحظ الشيـطان تستأصـل، ثم تعود إلى النمو من جديد؟! وهل هي من نوع مرض السرطان الذي لا تنفع معـه العمليات الجراحية، والذي لا يلبث أن يختفي حتى يعود إلى الظهور بقوة

(١) راجع: سيرة ابن هشام ج١ ص ١٧٧ وتاريخ الطبري ج١ ص ٥٧٥.

أشد، وأثر أبعد؟!.

ولماذا لم تعد هذه العلقة إلى الظهور بعد العملية الرابعة أو الخامسة، بحيث يحتاج إلى السادسة، فالتي بعدها؟!.

ولماذا يعذب الله نبيه هذا العذاب، ويتعرض لهذه الآلام بلا ذنب جناه؟! ألم يكن بالإمكان أن يخلقه بدونها من أول الأمر؟!.

٥ ـ وهل إذا كان الله يريد أن لا يكون عبده شريراً يحتاج لإعمال قدرته إلى عمليات جراحية كهذه، على مرأى من الناس ومسمع؟!.

وتعجبني هذه البراعة النادرة لجبرئيل في إجراء العمليات الجراحية لخصوص نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم».

وألا تعني هذه الرواية: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان مجبراً على عمل الخير، وليس لإرادته فيه أي أثر أو فعالية، أو دور؟:!، لأن حظ الشيطان قد أُبعد عنه بشكل قطعي وقهري، وبعملية جراحية، كان أنس بن مالك يرى أثر المخيط في صدره الشريف!!.

٦ ـ لماذا اختص نبينا بعملية كهذه ولم تحصل لأيٍّ من الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام[1]؟ أم يعقل أم محمداً «صلى الله عليه وآله وسلم»، أفضل الأنبياء وأكملهم، كان فقط بحاجة إلى هذه العملية؟! الجراحية؟! وإذن، فكيف يكون أفضل وأكمل منهم؟ أم أنه قد كان فيهم أيضاً للشيطان حظ ونصيب لم يخرج منهم بعملية جراحية؛ لأن الملائكة لم يكونوا قد تعلموا الجراحة بعد؟!.

٧ ـ وأخيراً، أفلا ينافي ذلك ما ورد في الآيات القرآنية، مما يدل على أن الشيطان لا سبيل له على عباد الله المخلصين: «قال: رب بما اغويتني لأزينن لهم في الأرض، ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ٣٦٨.

المخلصين[١]».

وقال تعالى: «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان[٢]» وقال: «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا، وعلى ربهم يتوكلون[٣]».

ومن الواضح: أن الأنبياء هم خير عباد الله المخلصين، والمؤمنين، والمتوكلين. فكيف استمر سلطان الشيطان على الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى حين الإسراء والمعراج؟!.

هذا كله، عدا عن تناقض الروايات الشديد. وقد أشار إليه الحسني باختصار. فراجع،[٤] وقارن.

المسيحيون وحديث شق الصدر:

وقد روي عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قوله: «ما من أحد من الناس إلا وقد أخطأ، أو همّ بخطيئة، ليس يحيىٰ بن زكريا»[٥].

ويذكر أبو رية (رحمه الله): أن حديث شق الصدر يأتي مؤيداً للحديث الآخر، الذي ورد في البخاري، ومسلم وفتح الباري وغيرها، وهو ـ والنص للبخاري ـ: «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى بن مريم، ذهب يطعن، فطعن في الحجاب[٦]»: وفي رواية: ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد؛ فيستهل

---

(١) سورة الحجر ٣٩ ـ ٤١.

(٢) الإسراء ٦٥.

(٣) النحل ٩٩.

(٤) سيرة المصطفى ص ٤٦.

(٥) مسند أحمد: ج١ ص ٣٠١، وراجع: المصنف ج١١ ص ١٨٤.

(٦) البخاري ط سنة ١٣٠٩ ج٢ ص ١٤٣.

صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها[١]. . ولهذا الحديث ألفاظ أخرى لا مجال لذكرها.

وقد استدل المسيحيون بهذا الحديث على أن البشر كلهم، حتى النبي مجردون عن العصمة، معرضون للخطايا إلا عيسى بن مريم، فإنه مصون عن مس الشيطان، مما يؤيد ارتفاع المسيح عن طبقة البشر، وبالتالي يؤكد لاهوته الممجد[٢].

وأضاف أبو رية إلى ذلك قوله:

«ولئن قال المسلمون لإخوانهم المسيحيين، ولم لا يغفر الله لآدم خطيئته بغير هذه الوسيلة القاسية، التي أزهقت فيها روح طاهرة بريئة، هي روح عيسى «عليه السلام» بغير ذنب؟!.

قيل لهم: ولم لم يخلق الله قلب رسوله الذي اصطفاه، كما خلق قلوب إخوانه من الأنبياء والمرسلين ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ نقياً من العلقة السوداء وحظ الشيطان، بغير هذه العملية الجراحية، التي تمزق فيها قلبه وصدره مراراً عديدة. . . !»[٣].

أصل الرواية جاهلي:

والحقيقة هي أن هذه الرواية مأخوذة عن أهل الجاهلية، فقد جاء في الأغاني أسطورة مفادها: أن أمية بن أبي الصلت كان نائماً؛ فجاء طائران فوقع أحدهما على باب البيت؛ ودخل الآخر فشق عن قلب أمية ثم رده الطائر، فقال له الطائر الآخر: أوعى؟؟ قال: نعم. قال: زكا؟ قال:

---

(١) مسند أحمد ج٢ ص ٢٧٤/٢٧٥.

(٢) أضواء على السنة المحمدية ص ١٨٦، عن: المسيحية في الإسلام طبعة ثالثة ص ١٢٧ تأليف ابراهيم لوقا.

(٣) أضواء على السنة المحمدية ١٨٧.

أبى.

وعلى حسب رواية أخرى: أنه دخل على أخته، فنام على سرير في ناحية البيت، قال: فانشق جانب من السقف في البيت، وإذا بطائرين قد وقع أحدهما على صدره، ووقف الآخر مكانه، فشق الواقع على صدره، فأخرج قلبه، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: أوعَى؟ قال: وَعَى. قال: أقبل؟ قال: أبى. قال: فرُدّ قلبه في موضعه الخ.. ثم تذكر الرواية تكرر الشق له أربع مرات[1].

وهكذا يتضح أن هذه الرواية مفتعلة ومختلقة، وأن سر اختلاقها ليس إلا تأييد بعض العقائد الفاسدة، والطعن بصدق القرآن، وعصمة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم».

ولنعد الآن إلى متابعة الحديث عن السيرة العطرة؛ فنقول:

فقد النبي (ص) لأبويه:

لقد شاءت الإرادة الإلهية: أن يفقد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أباه وهو لا يزال جنيناً، أو طفلاً صغيراً. وربما يقال: إن الأصح هو الأول؛ لأن يتمه هذا كان هو الموجب لتردّد حليمة السعدية في قبوله رضيعاً[2]. ولكن قد تقدم بعض المناقشة في ذلك.

ثم فقد أمه بعد عودته من بني سعد، وهو في الرابعة من عمره، أو

---

(١) راجع الأغاني ج٣ ص ١٨٨/١٨٩/١٩٠.

(٢) وبذلك يعلم: أن ما ورد في كشف الغمة ج١ ص ١٦ من أنه عاش (ص) مع أبيه سنتين وأربعة أشهر لا يمكن المساعدة عليه.. رغم أن الأربلي رحمه الله قد نص بعد ذلك بصفحات أي في ص ٢٢ على أن أباه قد توفي وأمه حبلى به صلى الله عليه وآله وسلم.. فراجع.. وليراجع تاريخ الخميس ص ٢٥٨ ج١ وتاريخ الطبري ج٢ ص ٣٣، وسيرة ابن هشام ج١ ص ١٩٣.

في السادسة، أو أكثر حسب الروايات.

ولعل ما تقدم من إرجاع حليمة له إلى أمه، وهو في الخامسة من عمره، يؤيد أن أمه قد توفيت وهو في السادسة، إلا أن يقال: إنه يمكن أن يكون المراد: أنه قد أرجع إلى أهله، ولكنه احتمال بعيد عن مساق الكلام.

هذا.. وقد استأذن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ربه في زيارة قبر أمه، فأذن له. فقد روى مسلم في صحيحه، أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: «إستأذنت ربي في زيارة أمي، فأذن لي، فزوروا القبور تذكّركم الموت»[1].

وهذا الحديث حجة دامغة على من يمنع من زيارة القبور. وله مؤيدات كثيرة؛ كزيارة فاطمة «عليها السلام» لقبر حمزة «عليه السلام»، وغير ذلك.

وقد ألف العلامة المتتبع البحاثة الشيخ علي الأحمدي كتاباً في التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وتعرض فيه إلى هذا الموضوع، وبحثه أيضاً العلامة الأميني في الغدير، والسبكي في كتابه: شفاء السقام في زيارة خير الأنام، وغيرهم كثير.

كفيل النبي (ص):

ولقد عاش «صلى الله عليه وآله وسلم» في كنف جده عبد المطلب، الذي كان يرعاه خير رعاية، ولا يأكل طعاماً إلا إذا حضر، وكان عارفاً بنبوته حتى لقد رُوي: أنه قال عنه لمن أراد أن ينحيه عنه، وهو طفل

---

(١) كشف الغمة ج١ ص ١٦ عن مسلم، وصحيح مسلم ط سنة ١٣٣٤ ج٣ ص ٦٥، وتاريخ الخميس ج١ ص ٣٣٥ والحديث موجود في مصادر عديدة كما يظهر من مراجعة كتاب الجنائز في كتب الحديث..

يدرج: دع إبني فإن الملك قد أتاه[١]. والرواية معتبرة على الظاهر.

أضف إلى ذلك ما رووه من إخبار سيف بن ذي يزن لعبد المطلب بذلك، عندما زاره في اليمن، إلى غير ذلك من دلائل وإشارات، رسخت هذا الإعتقاد في نفس عبد المطلب (رحمه الله)، وجعلت له «صلى الله عليه وآله وسلم» مكانة خاصة عنده[٢].

وفي السنة الثامنة من عمره «صلى الله عليه وآله وسلم» توفي جده عبد المطلب، بعد أن اختار له أبا طالب (رحمه الله) ليكفله، ويقوم بشؤونه، ويحرص على حياته، رغم أن أبا طالب لم يكن أكبر ولد عبد المطلب سناً، ولا أكثرهم مالاً؛ لأن الأسنّ فيهم كان هو الحارث، والأكثر مالاً هو العباس. ولكن عذر العباس هو أنه كان حينئذٍ صغيراً أيضاً، لأنه كان أسن من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بسنتين فقط، كما يقولون[٣] وان كنا قد قلنا: إنه كان يكبره بأكثر من ذلك. كما أن أبا طالب قد كان شقيق عبد الله والد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لأبيه وأمه، فإن أمهما هي فاطمة المخزومية، وطبيعي أن يكون لأجل ذلك أكثر حناناً وعطفاً عليه وحباً له.

ثم إن أبا طالب الذي كان هو وزوجته أم أمير المؤمنين «عليه السلام» يحملان نور الولاية، قد كانا يحملان من المكارم والفضائل النفسية والمعنوية ومن الطهارة ما يؤهلهما لأن يكونا كفيلين لرسول الله

---

(١) أصول الكافي طبعة ١٣٨٨ هـ ج١ ص ٣٧٢.

(٢) راجع: البداية والنهاية: ج٢ ص ٣٢٩/٣٣٠.

(٣) وإن كنا نعتقد أنه حتى ولو كان سنه إلى الحد الذي يتمكن فيه من كفالته (ص) فإن عبد المطلب لا يعهد به إليه؛ فإنه هو الذي احتفظ بالسقاية، دون الرفادة، بسبب حرصه على المال، وضنه به، وهو الذي كان يحاول أن يحصل على فضلة من المال من عمر بأسلوب عاطفي، وبطريقة لا يتبعها إلا من يهتم بالمال وبجمعه بشكل ظاهر..

«صلى الله عليه وآله وسلم» وأبوين لوصيه، وللأئمة من ذريته..

وعلى كل حال، فقد عهد عبد المطلب إلى أبي طالب «عليه السلام» بمهمة كفالته «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ لأنه كان بالإضافة إلى ما تقدم أنبل اخوته، وأكرمهم، وأعظمهم مكانة في قريش، وأجلهم قدراً. ولقد قام أبو طالب «عليه السلام» برعايته «صلى الله عليه وآله وسلم» خير قيام، ولم يزل يكرمه ويحبه غاية الحب، وينصره بيده ولسانه طول حياته، كما سنشير إليه إن شاء الله تعالى في فصل خاص به رضوان الله تعالى عليه.

الرحلة الأولى إلى الشام، وبحيرا:

ويقولون: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد سافر إلى الشام بصحبة عمه أبي طالب، ورآه بحيرا راهب بصرى، وأخبر عمه أنه نبي هذه الأمة، وأصرّ عليه بأن يرجعه إلى مكة، حتى لا يغتاله اليهود. الذين يرون العلامات التي في كتبهم متحققه فيه. فخرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة.

رواية مكذوبة:

ولكن جاء في رواية لأبي موسى الأشعري: أن بحيرا «لم يزل يناشده حتى ردّه، وبعث معه أبو بكر بلالاً، وزوّده الراهب من الكعك والزيت[1]».

---

(١) الثقات لابن حبان ج١ ص ٤٤، والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٥، وتاريخ الطبري ج٢ ص ٣٤ ط الاستقامة، وتاريخ الخميس ج٢ ص ٢٥٨، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٠ ومستدرك الحاكم، والبيهقي، وابن عساكر، والترمذي، وقال: حسن غريب. وفي سيرة دحلان ج١ ص ٤٩ أنه رجع إلى مكة، ومعه أبو بكر وبلال.

وفي رواية: أن سبعة كانوا قد عزموا على قتله (ص)، فمنعهم بحيرا، وبايعوا الرسول، وأقاموا معه.

ولكن ذلك لا يمكن أن يصح:

أولاً: لأن عمر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان حينئذٍ إثنتي عشرة سنة، بل قيل: إن عمره كان حينئذٍ تسع سنين[١].

وأبو بكر كان أصغر من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بأكثر من سنتين، وبلال كان أصغر من أبي بكر بعدة سنين، تتراوح ما بين خمس إلى عشر[٢]، حسب اختلاف الأقوال.

فهل يمكن لأبي بكر، وهو بهذه السن أن يسافر إلى الشام، ثم يصدر الأوامر والنواهي في مهمات كهذه؟!.

وهل يمكن لبلال الذي كان طفلاً، لا يقدر على المشي، أو لم يكن قد وُلد بعد: أن يكون مع أبي بكر في ذلك السفر الطويل؟ ثم أن يتحمل مسؤولية إرجاع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من بصرى إلى مكة؟ مع كون النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أكبر منه بسنوات عديدة؟!.

وثانياً: ما هو الربط بين أبي بكر وبلال حتى يأمره أبو بكر بهذا الأمر؛ فإن أبا بكر لم يكن يملك بلالاً، وإنما كان يملكه أمية بن خلف. وإنما اشتراه أبو بكر كما يقولون بعد ثلاثين عاماً من حينئذٍ[٣].

---

(١) راجع: الطبري ج٢ ص ٣٣، والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٦ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٠، وقال: إن صاحب كتاب الهدى قد رجح هذا القول..

(٢) نعم قد ذكر ابن حبان، والإصابة ج١ ص ١٦٥ عن أبي نعيم: أن بلالاً كان ترباً لأبي بكر.. لكن الأشهر والأكثر على أن أبا بكر كان يكبره بعدة سنين كما ذكرنا راجع السيرة الحلبية ج١ ص ١٢٠.

(٣) وقد أشار إلى ذلك الحافظ الدمياطي على ما في تاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٩ عن حياة الحيوان.. وكذا في سيرة مغلطاي ص ١١ وزاد قوله: «بايعوه على أي شيء».

هـذا إن لم نقل: إن النبي «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» هـو الـذي اشترى بلالاً، وأعتقه، ولم يملكه أبو بكر أصلاً[1].

وثـالثاً: إن راوي هـذه الروايـة، وهو أبـو موسى، لم يكن قـد وُلـد أصلاً؛ لأنه إنما وُلد قبل البعثة بثمان أو بعشر سنين، على ما يقولـون؛ كما أنـه إنما قـدم إلى المدينـة في سنة سبـع من الهجـرة، سنـة خيبـر. وهـذه القضية قد كانت قبل البعثة بحوالي ثلاثين عاماً.

ورابعـاً: سيأتي عن مغلطاي والـدميـاطي: أن أبـا بكـر لم يكن في ذلك السفر أصلاً. ولعل لأجـل بعض ما تقـدم أو كله حكم الترمـذي على هذا الحديث بالغرابة، وشك فيه ابن كثير أيضاً. فراجع.

وبعد كل ما تقدم فقد حكم الذهبي على هذا الحديث بقوله: «أظنه موضوعاً بعضه باطل»[2].

سر الوضع والإختلاق:

وأمّا سر وضع تلك الرواية فهو إثبات: أن إيمان أبي بكـر بنبوة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد كان قبل البعثة؛ ليسبق النـاس كلهم، حتى عليـاً عليه الصـلاة والسلام وخـديجـة، وحتى النبي «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» نفسه في ذلك.

قـال النووي: «كـان أبو بكـر أسبق الناس إسـلامـاً، أسلم وهـو ابن عشرين سنة، وقيل: خمس عشرة سنة[3]».

---

(١) سيأتي الحديث عنه في الجزء الثالث من هذا الكتاب؛ الفصل الأول من الباب الثالث.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٩، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٠.

(٣) الغدير ج٧ ص ٢٧٢ عنه.

وقال الصفوري الشافعي: «وكان إسلامه قبل أن يولد علي بن أبي طالب[١]».

وذكر الديار بكري رواية عن ابن عباس، عن قضية بحيرا جاء في آخرها: «فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق قبل ما نبّىء «صلى الله عليه وآله وسلم[٢]».

ولكن، لماذا لم يعدُّوا بحيرا وبلالاً والحارث وغيرهم ممن حضر، من السابقين إلى الإسلام أيضاً؟!. ومن الذي أخبرهم بوقوع الإسلام في قلب أبي بكر قبل هؤلاء؟! أو دونهم؟!.

بل من أين علموا: ان الإسلام والتصديق قد وقع فيقلب أبي بكر؟! ـ هذا كله لو سلمنا بالقضية من أساسها.

إشارات خاطفة في قصة بحيرا:

وقد بقي في قصة بحيرا نقاط كثيرة، جديرة بالمناقشة، لا مجال لنا للحديث عنها هنا، كما أننا لا نرى كبير فائدة في ذلك.

ومما تقدم يظهر مدى صحة قول بعض الروايات: إن أبا بكر، أو الحارث عم النبي (ص) قد ذهب إليه «صلى الله عليه وآله وسلم» فاحتضنه، وجاء به، وأجلسه مع القوم على مائدة طعام بحيرا، ورّجح إبن المحدث: أن الذي جاء به هو أبو بكر[٣].

ولم يدر إبن المحدث أن أبا بكر لم يكن في ذلك السفر أصلاً، كما

---

(١) نزهه المجالس ج٢ ص ١٤٧.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٦١.

(٣) السيرة الحلبية ج١ ص ١١٩، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٤٨

صرح به الدمياطي ومغلطاي[1]. ولو كان؛ فإنه كان أصغر سناً من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كما قلنا.

بقي أن نشير إلى أن بعض الروايات قد ذكرت: أن راويها قد شك في أن يكون سفره «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى الشام كان بصحبة أبي طالب أوجده عبد المطلب[2]. وبذلك تصبح الرواية الآنفة له مع أبي بكر وبلال أكثر إشكالاً وتعقيداً؛ لأن عبد المطلب قد توفي وعمر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ثمان سنين كما تقدم.

والصحيح هو أن عمه أبا طالب هو الذي رجع معه «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى مكة[3] كما قدمنا، وليس أبا بكر ولا غيره.

هذا، وللنبي (ص) سفرة أخرى إلى الشام للتجارة، ستأتي الإشارة إليها إن شاء الله تعالى في موضعها.

رعيه (ص) الغنم:

ويذكر المؤرخون: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد رعى الغنم في بني سعد، وأنه رعاها لأهله، بل ويقولون: رعاها لأهل مكة أيضاً، حتى ليذكرون والبخاري منهم في كتاب الاجارة وغيره أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. فقال اصحابه: وأنت؟. قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[4] وفسرت

---

(١) سيرة مغلطاي ص ١١، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٩ عن الحافظ الدمياطي.

(٢) طبقات ابن سعد ج١ ص ١٢٠ ط صادر، وج١ قسم١ ص ٧٦ ط ليدن والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٦.

(٣) مصنف الحافظ عبد الرزاق ج٥ ص٣١٨٠ وسيرة ابن هشام ج١ ص ١٩٤.

(٤) البخاري هامش فتح الباري ج٤ ص ٣٦٣، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥١، والسيرة الحلبية ج١ ص١٢٥.

القراريط بأنها: أجزاء الدراهم والدنانير يشترى بها الحوائج الحقيرة.[١]

ولكننا نشك كثيراً في أن يكون «صلى الله عليه وآله وسلم» قد رعى لغير أهله بأجر كهذا، تزهد به حتى العجائز، ولا يصح مقابلته بذلك الوقت والجهد الذي يبذله في رعي الغنم، نعم، نشك في ذلك، لأننا نجد:

أولاً: أن اليعقوبي ـ وهو المؤرخ الثبت ـ قد نص على أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن اجيراً لأحد قط.[٢]

وثانياً: تناقض الروايات؛ فبعضها يقول: لأهلي، وبعضها يقول: لأهل مكة، وبعضها يقول: بالقراريط، وأخرى قد ابدلت ذلك بكلمة باجياد. وإذا كان الراوي واحداً لم يقبل منه مثل هذا الاختلاف.

نعم، قد ذكر البعض: أن العرب ما كانت تعرف القراريط، وإنما هي اسم لمكان في مكة[٣] فلماذا كان يرعى الغنم في خصوص ذلك المكان؟ ولا يتجاوزه إلى غيره؟

ومع غض النظر عن ذلك نقول: إنه ربما يكون هذا الإختلاف بين الرواية التي تقول: باجياد، والتي تقول بالقراريط، بسبب أن القراريط واجياداً اسم لمكان واحد، أو لمكانين متقاربين جداً.

---

(١) السيرة النبوية ج١ ص ٥١ لزيني دحلان، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٥ وفتح الباري ج٤ ص ٣٦٤.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢١ ط صادر.

(٣) فتح الباري ج٤ ص ٣٦٤ عن ابراهيم الحربي، وصوبه ابن الجوزي تبعاً لابن ناصر والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٦ ويؤيد أن العرب ما كانت تعرف القراريط، ما جاء في الصحيح، يفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط. فتح الباري ج٤ ص ٣٦٤. وقولهم لا يعرف مكان في مكة بهذا الاسم محل نظر لأن عدم معروفيته الآن لا يستلزم عدم معرفيته في ذلك الزمان.

ولكن يعكر على هذا: أن رواية البخاري تقول: «على قراريط»؛ فالظاهر من كلمة على هو: الأجر.

ويمكن أن يدفع هذا: بأن من المحتمل أن يكون قراريط اسم جبل في مكة وقد رعى «صلى الله عليه وآله وسلم» الغنم عليه. وكل ذلك وسواه من الاحتمالات لا شاهد له، وإنما يلجأ إليه لو كانت الرواية صحيحة السند عن معصوم، وليست كذلك، بل هي عن أبي هريرة، وغيره ممن لا يمكن الاعتماد عليهم.

ملاحظة:

لقد حاول البعض التفلسف هنا، فذكر: أن رعي الغنم صعب؛ لأنها أصعب البهائم وهو يوجب أن يستشعر القلب رأفة ولطفاً؛ فإذا انتقل إلى رعاية البشر كان قد هُذب أولاً من الحدّة الطبيعية، والظلم الغريزي؛ فيكون في اعدل الأحوال.[1]

ولكن، حتى لو لم نقل: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان نبياً منذ صغره، كماسياتي، فإننا نطرح الأسئلة التالية: هل يمكن أن يصدق أحد: أن النبي الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يحتاج إلى التهذيب من الحدة الطبيعية، والظلم الغريزي؟!.

وهل في النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ظلم وحدة غريزيتان يحتاجان إلى التهذيب والحد منهما حقاً؟! ولو سلم ذلك، ألا يوجد مدرسة أفضل من هذه المدرسة؟! ثم أفلا ينافي ذلك قضية شق الصدر[2] ـ المكذوبة ـ المقبولة لدى هؤلاء؟! أو ليس ذلك الظلم وتلك

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ١٢٦، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥١، وليراجع: فتح الباري ج٤ ص ٣٦٤.

(٢) تقدم الكلام عنها في أوائل هذا الفصل.

الحدة هما من حظ الشيطان، الذي استأصله جبرئيل في عمليته الجراحية المزعومة لدى هؤلاء؟. ثم أو ليس كان له ملك يسدده، ويرشده منذ صغره، حسبما نطقت به الروايات[1]؟!.

إلا أن يدعي هؤلاء: أن التسديد لا ينافي الظلم الغريزي.

وحينئذ نقول: ألم يحاول الملك الموكل به ليسدده ويرشده إلى محاسن الاخلاق، أن يرشده إلى قبح الظلم، وحسن العدل؟! ولماذا قصّر في أداء مهمته تجاهه؟

وأيضاً، ألا يمكن لله تعالى أن يهذب نبيّه، ويخفف من حدّته بغير هذه الطريقة؟!

وهل صحيح: أن رعاية الغنم أصعب من رعاية غيرها، كما يدعي هؤلاء؟!.

وهل صحيح: أن الظلم غريزة في الانسان؟! وإذا كان غريزة فهل يمكن القضاء عليه بواسطة رعاية الغنم؟!.

وهل كل راعي غنم لا يكون فيه ظلم غريزي، ولا حدّة طبيعية.. أم أن ظلمه وحدته، أقل من ظلم غيره وحدته؟!.

ثم، ألا يمكن أن يكون الرعي عملاً عادياً، كان «صلى الله عليه وآله وسلم» يقوم به كغيره من ابناء مجتمعه، الذين كانت الماشية ورعيها عندهم من الوسائل العادية للعيش، وكسب الرزق؟!. وليكون النبي إنساناً يعيش كما يعيش الآخرون من الناس الذين ما عاشوا حياة الترف. ولا شعروا بزهو السلطان؟!.

إلى غير ذلك من الأسئلة التي لن تجد عند هؤلاء جواباً مقنعاً ومفيداً.

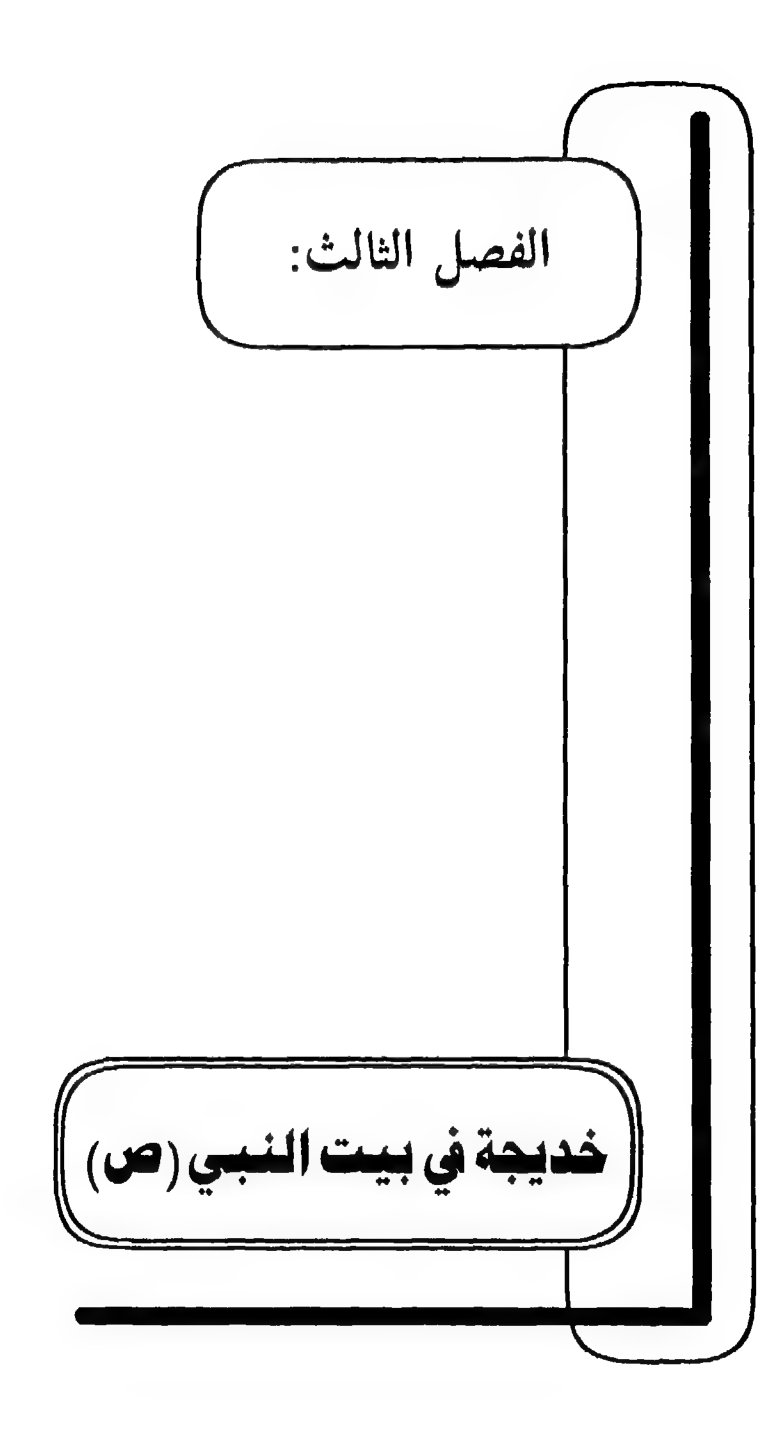
---

(١) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة رقم ١٩٢ ص ٣٠٠ ضبط صبحي الصالح، والبحار ج١٥ ص ٣٦١/٣٦٢.

نعم. يمكن تعليل ذلك كما يقول البعض: بأن رعي الغنم يعطي فرصة للابتعاد عن الناس، والانصراف للتفكير السليم، بعيداً عن مشاكل الناس، وهمومهم، ويؤيد ذلك: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يذهب إلى غار حراء طلباً للانفراد عن الناس، من أجل التفكير والتأمل في ملكوت الله، والعبادة وتزكية النفس..

وبعض آخر يرى: أن الرعي فيه تحمل مسؤولية أحاد متفرقة، وهو يناسب المهمة التي سوف توكل إليه «صلى الله عليه وآله وسلم» الأمر الذي من شأنه أن يروض النفس، ويزيدها اندفاعاً نحو طلب الخير للآخرين من رعيته لهم، والحرص على ما ينفعهم، وقد كان الله تعالى يهتم في رفع مستوى تحمل وملكات وقدرات نبيه ليواجه المسؤولية العظمى، ولكن بالطرق العادية والطبيعية، كما هو معلوم من ارساله الرسل، وتزويدهم بالمعجزات وغيرها.





الفصل الثالث:

خديجة في بيت النبي (ص)



السفر الثاني إلى الشام:

ويقولون: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد سافر سفره الثاني إلى الشام، وهو في الخامسة والعشرين من عمره[1].

ويقولون: إن سفره هذا كان في تجارة لخديجة. وأن أبا طالب هو الذي اقترح عليه ذلك، حينما اشتد الزمان، وألحت عليهم سنون منكرة، فلم يقبل «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يعرض نفسه على خديجة. فبلغ خديجة ما جرى بينه «صلى الله عليه وآله وسلم» وبين أبي طالب؛ فبادرت هي، وبذلت للرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» ضعف ما كانت تبذله لغيره؛ لما تعرفه من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه.

ويروي بعضهم: أن أبا طالب نفسه قد كلم خديجة في ذلك، فأظهرت سرورها ورغبتها، وبذلت له ما شاء من الأجر.

فسافر «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى الشام، وربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره، وظهرت له في سفره بعض الكرامات الباهرة، فلما عادت القافلة إلى مكة أخبر ميسرة غلام خديجة، سيدته بذلك،

---

(١) وفي البحار ج١٦ ص ٩ عن بعضهم: ان سفره كان إلى سوق حباشة بتهامة، وكذا في كشف الغمة ج٢ ص ١٣٥ عن الجنابذي في معالم العترة..

فذكرت ذلك بالاضافة إلى ما ظهر لها هي منه «صلى الله عليه وآله وسلم» لورقة بن نوفل، إبن عمها كما يقولون: وإن كنا نحن نشك في ذلك[١] فقال لها: إن كان ذلك حقاً، فهو نبي هذه الأمة[٢].

ثم اهتمت خديجة بالعمل على الاقتران به «صلى الله عليه وآله وسلم»، كماسنرى.

هكذا يقولون، ولكننا نشك في بعض ما تقدم. ولا سيما وأن ورقة لم يسلم حتى بعد أن بعث رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم».

كماأن قولهم: إن خديجة قد استأجرته في تجارتها. لا يمكن المساعدة عليه، وذلك لأننا نجد المؤرخ الاقدم، الثبت ابن واضح، المعروف باليعقوبي يقول:

«وإنه ما كان مما يقول الناس: إنها استأجرته بشيء، ولا كان أجيراً لأحد قط[٣]».

ولعل في عزة نفس النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وابائها. وأيضاً في تسديد الله تعالى له. وأيضاً في شرف أبي طالب وسؤدده، ما يبعد كثيراً أن يكون قد صدر شيء مما نسب إلى أبي طالب منه.

وعلى هذا، فقد يكون سفره «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى

---

(١) سيأتي إن شاء الله بعض الكلام حول بعض ما يقال عن ورقة بن نوفل، ودوره في بدء الوحي.

(٢) راجع: البداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٦ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢١ ونقل عن سفر السعادة: أنه صلى الله عليه وآله بعد البعثة، وقبل الهجرة كان يشتري أكثر مما يبيع، وبعد الهجرة لم يبع إلا ثلاث مرات، أما شراؤه فكثير. وأما شراكته مع غيره ففيها كثير من الاضطراب، وليس لنا مجال لتحقيق ذلك..

الشام، لا لكونه كان أجيراً لخديجة، وإنما لأنه كان يضارب بأموالها، أو شريكا لها. ويدل على ذلك تصريح رواية الجنابذي بالمضاربة[١] فراجع.

ويؤيده ما رواه المجلسي من أن أبا طالب قد ذكر له «صلى الله عليه وآله وسلم» اتجار الناس بأموال خديجة، وحثه على أن يبادر إلى ذلك، ففعل، وسافر إلى الشام[٢].

زواجه (ص) بخديجة:

ولقد كانت خديجة «عليها السلام» من خيرة نساء قريش شرفاً، وأكثرهن مالاً، واحسنهن جمالاً. وكانت تدعى في الجاهلية بـ «الطاهرة»،[٣] ويقال لها: «سيدة قريش». وكل قومها كان حريصاً على الاقتران بها لو يقدر عليه[٤].

(١) البحار ج١٦ ص ٩، وكشف الغمة ج٢ ص ١٣٤ عن معالم العترة للجنابذي..

(٢) البحار ج١٦ ص ٢٢ عن البكري وص ٣ عن الخرائج والجرائح ص ١٨٦ و١٨٧.

(٣) راجع الإصابة ج٤ ص ٢٨١/٢٨٢ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٤ وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ الترجمة النبوية ص ١٥٢ وقسم السيرة النبوية ص ٢٣٧ وتهذيب الأسماء ج٢ ص ٣٤٢ والاستيعاب (بهامش الإصابة) ج٤ ص ٢٧٩ والإصابة ج٤ ص ٢٨١ وسيرة مغلطاي ص ١٢ وسير أعلام النبلاء ج٢ ص ١١١ والمواهب اللدنية ج١ ص ٣٨ و٢٠٠ والروض الأنف ج١ ص ٢١٥ وتاريخ الخميس ١/٢٦٤ وأسد الغابة ج٧ ص ٧٨ ط دار الشعب والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣٧ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٥ والثقات ج١ ص ٤٦.

(٤) وراجع: البداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٤ وبهجة المحافل ج١ ص ٤٧. والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٠١ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٦٣ وطبقات ابن سعد ج١ ص ١٣١ ط دار صادر والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣٧ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٥.

وقـد خطبهـا عظمـاء قريش، وبـذلوا لهـا الامـوال. وممن خـطبهـا عقبـة بن أبي معيط، والصلت بن أبي يهاب، وأبـو جهل، وأبـو سفيـان[١] فرفضتهم جميعاً، واختارت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، لما عـرفته فيه من كرم الأخلاق، وشرف النفس، والسجـايا الكـريمة العـالية. ونكـاد نقطع ـ بسبب تضافر النصوص ـ بـأنها هي التي قـد أبدت أولاً رغبتهـا في الاقتران به «صلى الله عليه وآله وسلم».

فذهب أبو طالب في أهل بيته، ونفر من قريش إلى وليها، وهو عـمها عمـرو بن أسد؛ لأن أبـاها كـان قـد قتـل قبـل ذلـك في حـرب الفجـار أو قبلها[٢].

وأما أنه خطبها إلى ورقة بن نوفل، وعمها معاً، أو إلى ورقة وحده[٣] فمردود، بأنه:

قد ادعي الاجماع على الأول[٤].

وأما أنا فلا ادري ما أقول في ورقة هذا.

وفي كل وادٍ أثر من ثعلبة، فهو يُحشـر في كل كبيـرة وصغيرة، فيمـا يتعلق بالرسول الاعظم «صلى الله عليـه وآله وسلم»، وإن ذلـك ليدعـوني

---

(١) البحار ج١٦ ص ٢٢.

(٢) كشف الغمة ج٢ ص ١٣٩، والبحار ج١٦ ص ١٢ عنه وص ١٩ عن الواقدي، وراجع: الأوائل ج١ ص ١٦٠ وفي السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٨: ان المحفوظ عن أهل العلم انه مات قبل الفجار، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٦٤. وتهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٣٠٣ عن الواقدي، والإصابة ج٤ ص ٢٨٢ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٦.

(٣) البحار ج١٦ ص١٩ عن الواقدي والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٩ والكافي ج٥ ص ٣٧٥/٣٧٤، وفيه أن ورقة كان عم خديجة وكذا في البحـار ج١٦ ص ١٤ و٢١ عنه وعن البكري، وهو غير صحيح لأن ورقة هو ابن نوفل بن أسد وخديجة هي بنت خويلد بن أسد..

(٤) السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٧.

إلى الشك في كونه شخصية حقيقية، أو أسطورية.

ويلاحظ: أن نفس الدور الذي يعطى لأبيها تارة، ولعمها أخرى، يعطى لورقة بن نوفل ثالثة حتى الجُمل والكلمات، فضلاً عن المواقف والحركات. فلتراجع الروايات التي تحكي هذه القضية، وليقارن بينها[1]. وسيأتي إن شاء الله مزيد من الكلام حول ورقة هذا.

نعود إلى القول: إن أبا طالب قد ذهب لخطبة خديجة، وليس حمزة الذي اقتصر عليه ابن هشام في سيرته[2] لأن ذلك لا ينسجم مع ما كان لأبي طالب من المكانة والسؤدد في قريش، من جهة، ولأن حمزة كان يكبر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بسنتين أو بأربع[3] كما قيل من جهة اخرى.

هذا بالإضافة إلى مخالفة ذلك لما يذكره عامة المؤرخين في المقام.

وقد اعتذر البعض عن ذلك: بأن من الممكن أن يكون حمزة قد حضر مع أبي طالب؛ فنسب ذلك إليه[4].

وهو اعتذارواه؛ إذ لماذا لم ينسب ذلك إلى غير حمزة، ممن حضر مع أبي طالب من بني هاشم وغيرهم من القرشيين؟!.

ويظهر: أن ثمة من يهتم بسلب هذه المكرمة عن أبي طالب «عليه السلام»، واعطائها لأي كان من الناس سواه، حتى لحمزة. ولا ضير في ذلك عنده ما دام أنه قد استشهد في وقت مبكر.

---

(١) راجع المصادر المتقدمة والآتية.

(٢) راجع: سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٠١ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣٨ ونقل أيضاً عن المحب الطبري.

(٣) تقدمت مصادر ذلك حين الحديث حول إرضاع ثويبة لرسول الله (ص).

(٤) السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٩.

خطبة أبي طالب (رحمه الله):

وعلى كل حال فقد خطبها أبو طالب له «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل بعثة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بخمس عشرة سنة، على المشهور.

وقال في خطبته ـ كما يروي المؤرخون ـ:

«الحمد لرب هذا البيت، الذي جعلنا من زرع ابراهيم، وذرية اسماعيل، وانزلنا حرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه.

ثم إن ابن أخي هذا ـ يعني رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ـ ممن لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به، ولا يقاس به رجل الاعظم عنه، ولا عدل له في الخلق، وإن كان مقلاً في المال؛ فإن المال رفد جار، وظل زائل، وله في خديجة رغبة، وقد جئناك لنخطبها إليك، برضاها وأمرها، والمهر علي في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله.

وله ـ وربِّ هذا البيت ـ حظ عظيم، ودين شائع، ورأي كامل[1]».

نظرة في كلمات أبي طالب:

وخطبة أبي طالب المتقدمة تظهر مكانة الرسول الفضلى في قلوب

(١) الكافي ج٥ ص ٣٧٤/٣٧٥، والبحار ج١٦ ص ١٤ عنه وص ١٦ عمن لا يحضره الفقيه ص ٤١٣، وفي ص ٥ عن شرف المصطفى، والكشّاف، وربيع الأبرار والإبانة لابن بطة، والسيرة للجويني، عن الحسن والواقدي، وأبي صالح والعتبي، والمناقب ج١ ص ٤٢، والحلبية ج١ ص ١٣٩، وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٠، والأوائل لأبي هلال ج١ ص ١٦٢ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٦٤ والمواهب اللدنية ج١ ص ٣٩ وبهجة المحافل ج١ ص ٤٨ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٥.

الناس. وهي صريحة في أن الناس كانوا يجدون في الرسول علامات النبوة ونور الهداية. ويتوقعون أن يكون هو الذي بشر به عيسى وموسى «عليهما السلام»، وأنه كان لا يوزن به أحد إلا رجح به، ولا يقاس به رجل الاعظم عنه.

ثم إن كلمات أبي طالب تدل دلالة واضحة على ما كان يتمتع به بنو هاشم، من شرف وسؤدد، حتى ليقول (رحمه الله) وجعلنا الحكام على الناس.

وتدل أيضاً على أن العرب كانت تعتبر الحرم موضع أمن للقاصي والداني، وقد تقدم ما يدل علىٰ ذلك أيضاً.

ثم إن حديثه عن فقر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، واعطاء الضابطة للتفضيل بين الرجال، يدل على واقعية أبي طالب، وأنه ينظر إلى الإنسان بمنظار سام ونبيل، كما أنه يتعامل مع الواقع بحنكة ووعي وأناة.

وبعد، فإن كلماته تلك تدل أيضاً على أن قريشاً كانت تعتبر انتسابها إلى ابراهيم واسماعيل، وسدانتها للبيت، كل شيء بالنسبة لها، وقد أشرنا إلى هذا الأمر في الفصل الأول.

ولتراجع خطبة أبي طالب (رحمه الله) حين موته، والتي يخاطب بها قريشاً، فإنها خطبة جليلة، لا تبتعد عن هذه الخطبة في مراميها واهدافها.

ودين شائع:

ويتساءل بعض المحققين هنا: أنه كيف يمكن الجمع بين قوله: «ودين شائع»، وبين قوله تعالى: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان[1]». وقوله: «وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب[2]».

---

(١) الشورى، الآية: ٥٢.

(٢) القصص الآية، ٨٦.

وجوابه:

أولاً: إن الآيات ربما تكون ناظرة إلى المراحل الاولى من حياة النبي الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» فهو لم يكن يعلم، ثم علم، واما متى علم؛ فالآيات لا تحدد لنا ذلك؛ فلربما يكون قد علم حينما كان في سن العشرين مثلاً، أو قبل ذلك أو بعده.

وثانياً: إن السيد الطباطبائي يقول: إن الآيات ناظرة إلى نفي العلم التفصيلي، أما العلم الاجمالي فقد كان موجوداً؛ لأن عبد المطلب وأبا طالب وغيرهم كانوا مؤمنين بالله، وكتبه اجمالاً، والنبي أيضاً كذلك[1]، لا سيما إذا قوّينا أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان نبياً منذ صغره ـ كما ذهب إليه البعض ـ ولسوف يأتي ذلك ان شاء الله تعالىٰ في فصل بحوث تسبق السيرة.

وثالثاً: إن من معاني الدين: «السيرة، والتدبير، والورع، والعادة، والشأن»؛ فلعل القصد في هذه العبارة، كان إلى احد هذه المعاني.

ورابعاً: إن هذه الآيات بمثابة قضية شرطية مفادها: أنه (ص) لولا لطف الله به لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، لأنك أنت بنفسك وبما لديك من قدرات ذاتية لست قادراً على شيء وكذلك هو (ص) لم يكن يرجو ذلك لولا الله سبحانه.

مهر خديجة:

وعلى كل حال فإن أبا طالب قد ضمن المهر في ماله، كما هو صريح خطبته، ولكن خديجة رضوان الله تعالى عليها عادت؛ فضمنت المهر في مالها، فقال البعض: يا عجبا! المهر على النساء للرجال؟!

---

(١) راجع: تفسير الميزان ج١٨ ص ٧٧.

فغضب أبو طالب، وقال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طلبت الرجال بأغلى الاثمان، واعظم المهر، وإن كانوا أمثالكم لم يزوجوا إلّا بالمهر الغالي.

ولكن يبقى: أن بعض الروايات تفيد: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه قد أمهرها عشرين بكرة[١] وذلك ينافي أن يكون أبو طالب قد ضمن المهر، أو هي ضمنته دونه، أو هي لأبي طالب.

إلا أن يكون المراد: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أمهرها بواسطة أبي طالب.

وقيل: إن علياً «عليه السلام» هو الذي ضمن المهر، قالوا: «وهو غلط؛ لأن علياً لم يكن ولد على جميع الأقوال في مقدار عمره[٢]».

ويرد عليه: أن ثمة اقوالاً ـ وإن كنا لا نشك في عدم صحتها ـ تفيد: أنه «عليه السلام» قد ولد قبل البعثة بعشرين، أو بثلاث وعشرين سنة. ولذا قال مغلطاي: «وهو غلط، كان علي إذ ذاك صغيراً لم يبلغ سبع سنين»[٣].

ونحن نغلط هذه الاقوال، ونستغربها، إذ أن ذلك معناه أنه «عليه السلام» قد استشهد وعمره ست وسبعون سنة. وهو ما لم يقل به أحد.

فنحن لا نقبل قول مغلطاي، ولا نقبل قول اولئك الذين يزعمون أنه قد ضمن المهر، وذلك لما سيأتي في تاريخ ميلاده عليه الصلاة والسلام.

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٨ وراجع: تاريخ الخميس ج١ ص ٢٦٥ والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٠١ والسيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ٢٦٣ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ١٠٧.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٩ عن الفسوي في كتاب: ما روى أهل الكوفة مخالفاً لأهل المدينة، وسيرة مغلطاي ص ١٢، والأوائل ج١ ص ١٦١.

(٣) سيرة مغلطاي ص ١٢.

ثم نقول: إن أبا هلال العسكري ذكر أنه لما قيل: من يضمن المهر؟ قال علي وهو صغير: «أبي فلما بلغ الخبر أباطالب جعل يقول: بأبي أنت وأمي»[١].

ولرّبما يمكن تقريب هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار ما يقال: من أن علياً «عليه السلام» قد ولد قبل البعثة بعشر أو بخمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة، بل بثلاث وعشرين سنة، حسب بعض الاقوال النادرة. ثم قارنا بينها وبين الاقوال التي تقرر: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد تزوج خديجة وهو ابن ثلاثين سنة، أي قبل البعثة بعشر سنوات، أو وهو ابن سبع وثلاثين سنة،كما عن ابن جريج[٢] أي قبل البعثة بثلاث سنوات، وقيل: تزوجها قبل البعثة بخمس سنين[٣]. فلعله «عليه السلام» قد قال ذلك وهو طفل صغير فاستحسن ذلك منه عمه أبو طالب.

وعن مقدار المهر، قيل: إنه عشرون بكرة. وقيل: إثنا عشر أوقية ونش، أي ما يعادل خمس مئة درهم، وقيل غير ذلك[٤].

عمر خديجة حين الزواج:

ويلاحظ هنا: مدى الاختلاف والتفاوت في عمر خديجة حين

---

(١) الأوائل لأبي هلال العسكري ج١ ص ١٦١.

(٢) راجع تاريخ الخميس ج١ ص ٢٦٤. وراجع: مجمع الزوائد ج٩/٢١٩. وذكرت بعض الأقوال في التبيين في أنساب القرشيين ص٦٢ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٠ ومختصر تاريخ دمشق ج٢ ص ٢٧٥ قيل: تزوجها وهو ابن ثلاثين سنة وكذا في الاستيعاب (بهامش الإصابة) ج٤ ص ٢٨٨ وسيرة مغلطاي ص ١٢ ومثله في المواهب اللدنية ج١ ص ٣٨ و٢٠٢ والروض الأنف ج١/٢١٦.

(٣) الأوائل ج١ ص ١٦١.

(٤) راجع: السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٨ و١٣٩.

اقترانها بالرسول الاكرم «صلى الله عليه وآله وسلم».

وهي تتراوح ما بين الـ ٢٥ سنة إلى الـ ٤٦ سنة وهي على النحو الأتي:

ألف ـ ٢٥ سنة وصححه البيهقي[١].

ب ـ ٢٨ سنة. هو مارجحه كثيرون[٢].

ج ـ ٣٠ سنة[٣].

د ـ ٣٥ سنة[٤].

هـ ـ ٤٠ سنة[٥].

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج٢ ص ٧١ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٤ و٢٩٥ ومحمد رسول الله، سيرته وأثره في الحضارة ص ٤٥ وراجع: السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ٢٦٥ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠.

(٢) شذرات الذهب ج١ ص ١٤ واقتصر عليه في بهجة المحافل ج١ ص ٤٨ ورواه عن ابن عباس كل من: أنساب الأشراف (قسم حياة النبي(ص)) ص ٩٨ وتهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٣٠٣ وسير اعلام النبلاء ج٢ ص ١١١ ومختصر تاريخ دمشق ج٢ ص ٢٧٥. والبحار ج١٦ ص ١٢ عن الجنابذي. كلهم عن ابن عباس. ورواه في مستدرك الحاكم ج٣ ص ١٨٢ عن ابن إسحاق، دون أن يذكر له قولاً آخر. وراجع سيرة مغلطاي ص ١٢ والمحبر ص ٧٩ وتهذيب الأسماء ج٢ ص ٣٤٢ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٦٤ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠.

(٣) راجع: السيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٦٤ وسيرة مغلطاي ص ١٢ وتهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٣٠٣.

(٤) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٥ والسيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ٢٦٥ وراجع: السيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠.

(٥) أنساب الأشراف (قسم حياة النبي) ص٩٨ وسيرة مغلطاي ص ١٢ والمحبر ص ٤٩ والمواهب اللدنية ج١ ص ٣٨ و٢٠٢ وشذرات الذهب ج١ ص ١٤ وتاريخ الخميس =

و ـ ٤٤ سنة[١].

ز ـ ٤٥ سنة[٢].

ح ـ ٤٦ سنة[٣].

وقد تقدم: أن الكثيرين قد رجحوا القول الثاني، كما ذكره إبن العماد. أما البيهقي فقد صحح القول الأول، حيث قال: «بلغت خديجة خمساً وستين سنة، ويقال: خمسين سنة، وهو أصح»[٤]

فإذاكانت رحمها الله قد تزوجت برسول الله قبل البعثة بخمس عشرة سنة كما جزم به البيهقي نفسه[٥]. فإن ذلك معناه: أن عمرها حين زواجها كان خمساً وعشرين سنة. ورجح هذا القول غير البيهقي أيضاً[٦].

أما الحاكم، الذي روى لنا القول الثاني المتقدم عن ابن إسحاق،

= ج١ ص ٢٦٤ وأسد الغابة (دار الشعب) ج٧ ص ٨٠ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٥ ط دار المعرفة وراجع: تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص ١٥٢ ومختصر تاريخ دمشق ج٢ ص ٢٧٥ وتهذيب الأسماء ج٢ ص ٣٤٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ط صادر ـ ج١ ص ١٣٢، والبحار ج١٦ ص ١٩ و١٢ وتهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٣٠٣، عن حكيم بن حزام.

(١) تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٣٠٣ عن الواقدي.

(٢) تهذيب الأسماء ج٢ ص ٣٤٢ ومختصر تاريخ دمشق ج٢ ص ٢٧٥ عن الواقدي والسيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠ وراجع: سيرة مغلطاي ص ١٢ وتاريخ الخميس ج١ ص ٣٠١.

(٣) راجع: أنساب الأشراف (قسم حياة النبي(ص)) ص ٩٨.

(٤) دلائل النبوة ج٢ ص ٧١.

(٥) دلائل النبوة ج٢ ص ٧٢ ط دار الكتب العلمية والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٥. وغير ذلك كثير.

(٦) محمد رسول الله: سيرته، وأثره في الحضارة ص ٤٥.

فإنه لم يوضح لنا حقيقة ما يذهب إليه، غير أنه حين روى عن هشام بن عروة قوله: إن خديجة قد توفيت وعمرها خمس وستون سنة. قال: «هذا قول شاذ، فإن الذي عندي: أنها لم تبلغ ستين سنة»[١].

فكلامه هذا يدل على أنه يعتبر القول بأنها قد تزوجت بالنبي وعمرها أربعون سنة، شاذ. ويرى: أن عمرها كان أقل من خمس وثلاثين حينئذٍ، ولكنه لم يبين القول الذي يذهب إليه، هل هو ثلاثون؟ أو ثمان وعشرون؟ أو خمس وعشرون؟.

يتيم قريش، أكذوبة مفضوحة:

وعن ابن اسحاق: أن خديجة قالت له (ص): يا محمد، ألا تتزوج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا.

قال: ومن لي بك؟ أنت أيّم قريش، وأنا يتيم قريش؟.

قالت: إخطب الخ.[٢].

بل يذكر البعض أن أبا طالب قال للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: أخاف ألّا يفعلوا، أيّم قريش. وأنت يتيم قريش. ثم إن أبا طالب أرسل بدلاً عنه حمزة؛ لأنه خاف إن ذهب بنفسه أن يردوه فتكون الفضيحة[٣].

وفي نص آخر: أن خديجة حين طلبت من أبي طالب أن يخطبها لمحمد من عمها، قال أبو طالب لها: «يا خديجة، لا تستهزئي»[٤].

---

(١) مستدرك الحاكم ج٣ ص ١٨٢.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٨.

(٣) الأوائل لأبي هلال العسكري ج١ ص ١٦٠/١٦١.

(٤) السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٨.

ونحن لا نشك في كذب كل ذلك؛ إذ كيف يمكن أن يصدر ذلك من رجل يزيد عمره على الخمس وعشرين عاماً: أن يصف نفسه بأنه: يتيم. هذا مع العلم بأنه قد نشأ وتربى في أعرق بيت في العرب؛ فكيف لم يكن يعرف أن اليتيم لا يطلق في لغة العرب إلا على غير البالغ؟!.

وأيضاً، فإن صدور ذلك من رجل هو في عقل وادراك، وشخصية النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، والذي هو من أعرق عائلة عربية، وأشرفها، والذي كان في إباؤه وسمو نفسه يفوق كل وصف، ويتجاوز كل حد ـ إن صدور ذلك منه ـ يكاد يلحق بالمستحيلات والممتنعات.

ثم إنه لماذا اتصف محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» فقط باليتم؟ مع أن عبد المطلب قد مات وابناه العباس وحمزة صغيران لم يبلغا الحلم[١]؟!

والظاهر هو أن هذا من مجعولات اعداء الدين، أو من أهل الكتاب، أو من أذناب بني أمية، الذين كانوا يحاولون الحط من شأن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» كما قدمناه في الجزء الأول من هذا الكتاب.

وهكذا يقال تماماً بالنسبة لما ينسب لأبي طالب «عليه السلام»، لا سيما وأنه هو نفسه يُقرِّض النبي بذلك التقريض العظيم المتقدم.

ولعل الاصح هو أن القائل لذلك هو نساء قريش، كما سيأتي حين الحديث عن عدم صحة ما يقال من زواجها من رجلين قبله «صلى الله عليه وآله وسلم».

وهكذا يقال تماماً بالنسبة لما يقال: من أن عمها كان يأنف من أن

---

(١) هذا ما ذكره المحقق البحاثة السيد مهدي الروحاني حفظه الله.

يـزوجها من محمـد، يتيم أبي طالب[١]؛ فـاحتـالت هي عليـه حتى سقتـه الخمر، فزوجها في حال سكره؛ فلما أفاق، ووجد نفسه أمام الامر الواقـع لم يجد بداً من القبول.

وكذا قولهم: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد دخل على خديجـة قبل التزويـج، فأخـذت بيده فضمتهـا إلى صدرهـا[٢]. إلى غير ذلـك من كلام عجيب وغريب، يتناقض تماماً مع كـل اخلاق وسجـايا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وسيـرته، فـإن كل ذلـك كذب، ليس الهـدف منه إلا الحط من كرامة النبي «صلى الله عليـه وآله وسلم» وتنقصـه من قبل أعـداء الاسلام، ومصائد الشيطان، نعوذ بالله من الخذلان.

هل تزوج (ص) خديجة طمعاً في مالها؟!

هـذا، وقـد جـاء في كلمـات بعض المتهمين على الاســلام كـلام باطل، تكذبه كل الشواهد التاريخية، وهو أنه «صلى الله عليه وآلـه وسلم» إنما تزوج خديجة طمعاً في مالها[٣].

ولسنـا نريـد الاسهاب في الاجـابة على هـذا الهـذيـان، فـإن حيـاة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من بدايتها إلى نهايتها لخيـر شاهـدٍ على أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» ما كان يقيم للمال وزنا.

وقد انفقت خديجة سلام الله عليها كل أمـوالها طـائعة راغبـة، ليس على النبي «صلى الله عليـه وآله وسلم» وملذاتـه، وانما على الـدعـوة إلى

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٨ وتاريخ الإسلام (السيرة النبوية) ص ٦٥ ط دار الكتاب العربي، ومسند أحمد ج١ ص ٣١٢ ومجمع الزوائد ج٩ ص ٢٢٠.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠.

(٣) النبوة، تأليف الشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٦٣.

الاسلام، وفي سبيل هذا الدين.

وأيضاً فإن خديجة هي التي عرضت نفسها على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»[1] ولم يتقدم هو «صلى الله عليه وآله وسلم» بطلب يدها، ليقال: إنه إنما فعل ذلك طمعاً في مالها.

ويرى الشيخ محمد حسن آل ياسين أن حبه «صلى الله عليه وآله وسلم» وتقديره لها في أيام حياتها بل وبعد مماتها، حتى لقد كان ذلك منه يثير بعض زوجاته اللواتي ما رأين، ولا عشن مع خديجة، دليل واضح على بطلان هذا الزعم[2].

خديجة مثل أعلى:

وبالنسبة لعرض خديجة نفسها عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» نقول:

هكذا، تفعل الحرة العاقلة اللبيبة، فلا تغرها زبارج الدنيا وبهارجها، ولا تبحث عن اللذّة لأجل اللّذة، ولا عن المال والشهرة، وإنما تبحث عما يخدم هدفها الاسمى في الحياة، فتفعل ـ كما فعلت خديجة ـ تردّ زعماء قريش، اصحاب المال والجاه، والقدرة، والسلطان، وتبحث عن رجل فقير لا مال له، تبادر هي لعرض نفسها عليه؛ لأن كل ذلك لا يملأ عينها، لأنه كله ربما يكون سبباً في تدمير الحياة والانسان، وحتى الانسانية جمعاء. وانما هي تنظر فقط إلى الاخلاق الفاضلة، والسجايا الكريمة، وإلى الواقعية في التعامل، والسمو في الهدف.

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٤ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣٧ والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٠٠/٢٠١ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٦٤.

(٢) كتاب النبوة ص ٦٣.

لأن كل ذلك هو الذي يسخر المال، والجاه، والقوة، وكل شيء لخدمة الانسان والانسانية، وتكاملها في الدرجات العلى.

خديجة بين نساء قريش:

وتجدر الاشارة هنا إلى أن عامة المؤرخين على اختلاف أذواقهم، ومشاربهم، ونحلهم، يقولون: إن خديجة كانت أجمل نساء قريش. كما أنه لا ريب في أنها أفضل نسائه صلوات الله وسلامه عليها.

ولعل ذلك يفسر لنا السبب في غيرة بعض نساء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» منها، حتى بعد وفاتها؛ بحيث كن يحاولن تنقصها، والإزراء عليها باستمرار، مع أنهن لم يدركنها في بيت الزوجية أصلاً.

هذا، ولعل أم سلمة تأتي في المرتبة الثانية بين أزواجه «صلى الله عليه وآله وسلم» بعد خديجة، فضلاً واخلاصاً، وولاء، وحتى جمالاً، كما يظهر من كلام للامام الباقر «عليه السلام».

وعلى كل حال: فقد كان ذوات الجمال والاخلاص من ازواجه «صلى الله عليه وآله وسلم» يواجهن الغيرة القاتلة، والتآمر المستمر من قبل البعض الآخر من نسائه «صلى الله عليه وآله وسلم»، ممن لم يكن لهن نصيب من جمال، ولا من التزام تام بالأدب النبوي الكريم. بل كن يؤذينه «صلى الله عليه وآله وسلم» بمواقفهن وتصرفاتهن[1].

هل تزوجت خديجة بأحد قبل النبي (ص)؟!

ثم إنه قد قيل: انه «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يتزوج بكراً غير

---

(١) سيأتي لذلك مزيد توضيح في فصل: حتى بيعة العقبة، في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

عائشة، وأما خديجة، فيقولون: إنها قد تزوجت قبله «صلى الله عليه وآله وسلم» برجلين، ولها منهما بعض الأولاد. وهما عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي، وأبو هالة التميمي.

أما نحن فنقول: اننا نشك في دعواهم تلك، ونحتمل جداً أن يكون كثير مما يقال في هذا الموضوع قد صنعته يد السياسة. ولا نريد أن نسهب في الكلام عن اختلافهم في إسم أبي هالة، هل هو النباش بن زرارة أو عكسه، أو هند، أو مالك، وهل هو صحابي أولاً. وهل تزوجته قبل عتيق. أو تزوجت عتيقاً قبله[1].

ولا في كون هند الذي ولدته خديجة هو ابن هذا الزوج أو ذاك، فإن كان ابن عتيق، فهو انثى[2] وإلا فهو ذكر. وأنه هل قتل مع علي في حرب الجمل، أو مات بالطاعون بالبصرة[3].

لا، لا نريد أن نطيل بذلك، وإنما نكتفي بتسجيل الملاحظات التالية:

أولاً: قال ابن شهر آشوب: «وروى أحمد البلاذري، وأبو القاسم الكوفي في كتابيهما، والمرتضى في الشافي، وأبو جعفر في التلخيص: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» تزوج بها، وكانت عذراء.

يؤكد ذلك ما ذكر في كتابي الانوار والبدع: أن رقية وزينب كانتا

---

(١) راجع الأوائل ج١ هامش ص ١٥٩.

(٢) راجع: الأوائل ج١ ص ١٥٩ وقال: إن هنداً هذه قد تزوجت من صيفي بن عائذ فولدت محمد بن صيفي.

(٣) للإطلاع على هذه الاختلافات وغيرها راجع المصادر التالية، وقارن بينها: الإصابة ج٣ ص ٦١١/٦١٢، ونسب قريش لمصعب الزبيري ص ٢٢، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٤٠، وقاموس الرجال ج١٠ ص ٤٣١، ونقل عن البلاذري وأسد الغابة ج٥ ص ١٢/١٣ و٧١، وغير ذلك.

ابنتى هالة أخت خديجة[١]».

وثانياً: قال أبو القاسم الكوفي: «إن الاجماع من الخاص والعام، من أهل الانال (الآثار ظ) ونقلة الاخبار، على أنه لم يبق من أشراف قريش، ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم، إلا من خطب خديجة، ورام تزويجها، فامتنعت على جميعهم من ذلك؛ فلما تزوجها رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» غضب عليها نساء قريش وهجرنها، وقلن لها: خطبك أشراف قريش وأمراؤهم فلم تتزوجي أحداً منهم، وتزوجت محمداً يتيم أبي طالب، فقيراً، لا مال له؟!

فكيف يجوز في نظر أهل الفهم أن تكون خديجة، يتزوجها اعرابي من تميم، وتمتنع من سادات قريش، وأشرافها على ما وصفناه؟! ألا يعلم ذوو التمييز والنظر: أنه من أبين المحال، وافظع المقال؟!»[٢].

وأما الرد علىٰ ذلك بأنه لا يمكن أن تبقى امرأة شريفة وجميلة هذه المدة الطويلة بلا زواج.

فليس علىٰ ما يرام، لأن ذلك لا يبرر رفضها لعظماء قريش وقبولها باعرابي من بني تميم.

وأما كيف يتركها أبوها أو وليها بلا تزويج.

فقد قلنا: أن أباها قد قتل في حرب الفجار، وأما وليها، فلم يكن له سلطة الأب ليجبرها على الزواج ممن أراد.

وبقاء المرأة الشريفة والجميلة مدة بلا زواج ليس بعزيز. إذا كانت تصبر إلى أن تجد الرجل الفاضل الكامل، الذي كان يعز وجوده في تلك الفترة.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج١ ص ١٥٩، والبحار: ورجال المامقاني، وقاموس الرجال كلهم عن المناقب.

(٢) الاستغاثة ج١ ص ٧٠.

وثالثاً: كيف لم يعيرها زعماء قريش الذين خطبوها فردتهم، بزواجها من اعرابي بوّال علىٰ عقبيه؟!

ورابعاً: لقد ذكروا: أن أول شهيد في الاسلام ابن لخديجة رحمها الله، اسمه الحارث بن أبي هالة، استشهد حينما جهر رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بالدعوة[1].

ونقول: إن ذلك لا يمكن قبوله، حيث قد روي بسند صحيح عندهم، عن قتادة: أن أول شهيد في الاسلام هو سمية والدة عمار[2]، وكذا روى عن مجاهد[3]. وعن ابن عباس: «قتل أبو عمار وأم عمار، وهما أول قتيلين قتلا من المسلمين»[4].

إلا أن يدعى: أن سمية كانت أول من استشهد من النساء، والحارث كان أول من استشهد من الرجال.

ولكنه احتمال بعيد، ومخالف لظاهر كلماتهم، لا سيما وأن كلمة شهيد تطلق علىٰ الذكر والأنثى بلفظ واحد، مثل قتيل وجريح.

فإن معنى كلمة: «شهيد»: شخص، أو ذات ثبتت لها صفة الشهادة، لأن المشتقات تدل على ذات ثبت لها وصف مّا؛ فكلمة تقي معناها: شخص له التقوىٰ، وقائم أيضاً كذلك.

وكلمة شخص أو ذات أو نحوها تصدق على الرجل على حدة،

---

(١) الأوائل لأبي هلال العسكري ج١ ص ٣١١ ـ ٣١٢ والإصابة ج١ ص ٢٩٣ عنه وعن ابن الكلبي وابن حزم ومحاضرة الأوائل ص ٤٦.

(٢) الإصابة ج٤ ص ٣٣٥ وطبقات ابن سعد ج٨ ص ١٩٣ ط ليدن.

(٣) الاستيعاب هامش الإصابة ج٤ ص ٣٣١.

(٤) صفين للمنقري ص ٣٢٥

وعلى المرأة كذلك، وعلى كليهما معاً. وعلى هذا الاساس نفسر كلمة: طلب العلم فريضة على كل مسلم، بحيث يشمل الرجل والمرأة معاً.

أما إذا كان المشتق فيه (أل) الموصولية، مثل القائم والمتقي، فإن الأمر يصبح أوضح وأجلى، وذلك لأن (أل) بمنزلة (الذي) فالقائم معناه الشخص الذي له القيام. فيصح أن يراد بها الرجل، والمرأة، وهما معاً أيضاً.

وعلى هذا الأساس جرت التعابير القرآنية، مثل: المتقين، المؤمنين الشاكرين الخ.. فإنها تشمل الرجل والمرأة على حد سواء. وذلك واضح لا يخفى.

فتلخص مما تقدم: أن هذا النص لا يدل على وجود ابن لخديجة، ما دام أنه قد ثبت حصول الكذب في جزء منه.

ولعل هذا الكذب قد جاء لأجل الإيحاء بطريق غير مباشر بأن لخديجة ولداً من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأن ذلك غير قابل للنقاش ـ ولكن ـ قد قيل: لا حافظة لكذوب.

وخامساً: لقد روي أنه كانت لخديجة أخت إسمها هالة[1]، تزوجها رجل مخزومي، فولدت له بنتاً اسمها هالة، ثم خلف عليها ـ أي علىٰ هالة الاولىٰ ـ رجل تميمي يقال له: أبو هند؛ فأولدها ولداً اسمه هند.

وكان لهذا التميمي إمرأة أخرى قد ولدت له زينب ورقية، فماتت، ومات التميمي، فلحق ولده هند بقومه، وبقيت هالة أخت خديجة والطفلتان اللتان من التميمي وزوجته الأخرى؛ فضمتهم خديجة إليها، وبعد أن تزوجت بالرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» ماتت هالة، فبقيت الطفلتان في حجر خديجة والرسول «صلى الله عليه وآله وسلم».

---

(١) لها ذكر في كتب الأنساب، فراجع على سبيل المثال: نسب قريش لمصعب الزبيري.

وكان العرب يزعمون: أن الربيبة بنت، ولأجل ذلك نسبتا إليه «صلى الله عليه وآله وسلم»، مع أنهما ابنتا أبي هند زوج أختها وكذلك كان الحال بالنسبة لهند نفسه[1].

ولربما يمكن تأييد هذه الروايات بما ورد من الاختلاف في اسم والد هند، فلتراجع المصادر التي ذكرناها ثمة.

زوجتا عثمان، هل هما بنات النبي (ص)؟!

واننا بالاضافة إلى ما قدمناه آنفاً عن الاستغاثة نذكر:

أن مما يدل على عدم كون زوجتي عثمان بنات له «صلى الله عليه وآله وسلم» ـ عدا عن كون بعض الاقوال تنافي ذلك ـ ما ذكره المقدسي، عن سعيد بن أبي عروة، عن قتادة، قال: ولدت خديجة لرسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»: عبد مناف في الجاهلية، وولدت له في الاسلام غلامين، واربع بنات: القاسم، وبه كان يكنى: أبا القاسم؛ فعاش حتى مشى، ثم مات، وعبد الله، مات صغيراً. وأم كلثوم. وزينب. ورقية. وفاطمة[2].

وقال القسطلاني بعد كلام له: «وقيل: ولد له ولد قبل المبعث، يقال له: عبد مناف، فيكونون على هذا اثني عشر، وكلهم سوى هذا ولد في الاسلام بعد المبعث»[3].

كما أن بعضهم ينص على أنه قد صح عنده: أن رقية كانت أصغر

---

(١) راجع: الاستغاثة ج١ ص ٦٨ ـ ٦٩، ورسالة حول بنات النبي(ص) مطبوعة ط حجرية في آخر مكارم الأخلاق ص ٦.

(٢) البدء والتاريخ ج٥ ص ١٦ وج٤ ص ١٣٩.

(٣) المواهب اللدنية ج١ ص ١٩٦.

من الكل حتى من فاطمة عليها السلام[1].

وبعد هذا، فكيف نصدق قول من يقول: انهما تزوجتا في الجاهلية من ابني أبي لهب، ثم جاء الاسلام ففارقاهما.

يقول المقدسي: «فزوّج رسول الله رقية عثمان بن عفان، وهاجرت معه في الهجرتين إلى الحبشة، وأسقطت في الهجرة الأولى علقة في السفينة»[2].

نعم، كيف نصدق هذا، ونحن نعلم: أن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت بعد البعثة بخمس سنين، فكيف تكون رقية قد تزوجت قبل البعثة بإبن أبي لهب، ثم فارقها ليتزوجها عثمان، ثم تحمل منه قبل الهجرة إلى الحبشة، وهي انما ولدت بعد البعثة؟! إن ذلك لعجيب!! وعجيب حقاً!!.

وثانياً: لقد ذكرت بعض الروايات: أن أبا لهب قد أمر ولديه بطلاق رقية وأم كلثوم بعد نزول سورة «تبت يدا أبي لهب»[3]. مع أنهم يقولون: إن هذه السورة قد نزلت حينما كان النبي والمسلمون محصورين في الشعب[4]. وقد كان ذلك بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة.

---

(١) راجع: الإصابة ج٤ ص ٣٠٤ عن الجرجاني، والاستيعاب بهامش الإصابة ج٤ ص ٢٩٩، ٢٨٢. وفي ص ٢٨١ عن الزبير بن بكار؛ أن عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية كلهم ولدوا بعد الإسلام، وكذا في البداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٤. ونسب قريش صفحة ٢١.

(٢) البدء والتاريخ ج٥ ص ١٧ وتهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٢٩٨.

(٣) نسب قريش لمصعب الزبيري ص ٢٢ وتهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٢٩٣ و٢٩٨ وأسد الغابة ج٥ ص ٤٥٦ والاستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٤ ص ٢٩٩ والدر المنثور ج٦ ص ٤٠٩ عن الطبراني.

(٤) الدر المنثور ج٦ ص ٤٠٨ عن أبي نعيم في الدلائل.

وثالثاً: لقد روي: أن خديجة ولدت للنبي عبد الله، ثم أبطأ عليها الولد، فبينما رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» يكلّم رجلاً، والعاص بن وائل ينظر إليه، إذ مرّ رجل فسأل العاص عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وقال: من هذا؟

قال: هذا الأبتر.

فأنزل الله: **﴿إن شانئك هو الأبتر﴾**[1].

فظاهر الرواية: أنها حين ولدت عبد الله لم تكن قد ولدت غيره، أو أن من ولدتهم ماتوا جميعاً حتىٰ لم يعد للنبي أولاد أصلاً. مع أن رقية كانت عند عثمان قبل ولادة فاطمة، فلا يصح وصف العاص للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالأبتر فتنزل الآية.

إلا أن يقال: إن العرب لم تكن تهتم بالبنات، بل الميزان عندهم هو خصوص الذكور، ولأجل ذلك وصفه العاص بالأبتر.

ورابعاً: قد تقدم أن هناك من يقول: إن خديجة إنما تزوجت رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل البعثة بعشر أو بثلاث، أو بخمس سنوات، فكيف تكون رقية وزينب قد ولدتا من خديجة، وتزوجتا قبل البعثة؟!.

خامساً: ان الدولابي يقول: إن عثمان كان قد تزوج رقية في الجاهلية[2].

وذلك كله يؤكد ويؤيد: أن رقية التي تزوجها عثمان هي غير رقية التي يدعى أنها بنت الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، والتي يقال:

---

(١) راجع تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٢٩٤ والدر المنثور ج٦ ص ٤٠٤.

(٢) راجع: المواهب اللدنية ج١ ص ١٩٧.

إنها ولدت بعد البعثة، وأن التي تزوجها عثمان هي ربيبة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، لا إبنته. وقد كانت العرب تطلق على ربيبة الرجل أنها ابنته كما قلنا: وكذلك يقال بالنسبة لأم كلثوم، لأن الفرض أنها قد ولدت بعد البعثة أيضاً.

هل زينب بنت الرسول (ص) أم ربيبته؟:

وأما عن زينب فلا نستطيع أن نطمئن إلى أنها كانت بنت رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أيضاً، لأننا بالاضافة إلى أن ما قدمناه آنفاً حول زوجتي عثمان، كله بعينه جار هنا إذا كان أبو العاص بن الربيع قد تزوجها قبل البعثة ـ نشير إلىٰ ما يلي:

١ ـ قال مغلطاي عن خديجة: «ثم خلف عليها أبو هالة النباش بن زرارة فولدت له هنداً، والحرث، وزينب، وكانت تكنى أم هند، وتدعى الطاهرة»[١].

٢ ـ وعن عمرو بن دينار: أن حسن بن محمد بن علي أخبره: أن أبا العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان زوجاً لبنت خديجة فجيء به للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في قدّ، فحلّته زينب بنت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الخ[٢].

فالتعبير أولاً ببنت خديجة يشير أنها لم تكن ابنته «صلى الله عليه وآله وسلم» وإن كان عاد فذكر أنها بنت النبي؛ فلا يبعد أنه يريد بنوتها له بالتربية، وإلا فلماذا خصها أولاً بأنها بنت خديجة؟! فنسبتها إلى خديجة أولاً يكون قرينة على ارادة بنوتها للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بالتربية.

---

(١) سيرة مغلطاي ص ١٢.

(٢) المصنف للحافظ عبد الرزاق ج٥ ص ٢٢٤.

٣ ـ ويذكر الشيخ محمد حسن آل ياسين عن زينب أن: بعض المصادر تقول: إنها ولدت وعمره «صلى الله عليه وآله وسلم» ثلاثين سنة[١]، وتزوجها أبو العاص بن الربيع قبل البعثة، وولدت له علياً مات صغيراً، وامامة، اسلمت حين اسلمت أمها أول البعثة النبوية[٢].

وذلك غير معقول، فإنه لايمكن لبنت في العاشرة أن تتزوج، ويولد لها بنت، وتكبر تلك البنت حتى تسلم مع أمها في أول البعثة؛ وهذا حيث لا تزال أمها في العاشرة من عمرها[٣].

ولكن كلام هذا الباحث غير متين، لأن المقصود بالتي أسلمت هي وأمها هو زينب وخديجة، وليس المقصود هو أمامة وزينب وذلك ظاهر لا يخفى.

وبالنسبة لأم كلثوم فإن الروايات تذكر: أن علياً حين هاجر اصطحب معه خصوص الفواطم، وأم أيمن، وجماعة من ضعفاء المؤمنين[٤]. وليست أم كلثوم بينهم؛ فهل هاجرت قبل ذلك، أو بعده وحدها؟ وكيف لم يصطحبها علي «عليه السلام» معه ليحميها من كيد قريش؟ ولماذا؟ ولماذا؟!.

وبعد ما تقدم نستطيع أن نقول: إننا لا يمكن أن نطمئن بشكل نهائي إلى ما يقال: من أن عثمان قد تزوج ابنتي رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» للاحتمال القوى بأن تكونا ربيبتيه. وكذا بالنسبة لزينب زوجة أبي العاص.

---

(١) أسد الغابة ج٥ ص ٤٦٧، ونهاية الارب ج١٨ ص ٢١١، والاستيعاب هامش الإصابة ج٤ ص ٣١١.

(٢) راجع: كتاب النبوة هامش ص ٦٥.

(٣) راجع هامش كتاب النبوة للشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٦٥.

(٤) سيرة المصطفى ص ٢٥٩. والسيرة الحلبية ج٢ ص ٥٣.

وعلىٰ هـذا فيصح أن يقـال: لمن تـزوج ربيبـة لشخصٍ : أن ذلـك الشخص قد صاهره، ونال درجة من القرب منه، وعلىٰ هذا فلا منافـاة بين ما ذكرنا، وبين قول أميـر المؤمنين «عليه السـلام» لعثمان: «وقـد نلت من صهره ما لم ينالا»[1].

لكن يبقى: أن ذلك الصهر هل قام بواجباته تجاه ذلـك الذي أكـرمه بتـزويج ربيبتـه له؟! فهـذا بحث آخـر، ولـه مجـال آخـر، وستـأتي بعض الاشـارات لما كـان من عثمان في حق زوجتيـه ربيبتي النبي الاكرم «صلى الله عليه وآله وسلم».

ومهما يكن من أمر فقـد طبع لنـا كتاب بـاسم بنات النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أم ربائبه، فليرجع اليه من أراد التفصيل.

منافسون لعلي:

ولعل اصرار الآخرين على بنوتهن لـه «صلى الله عليه وآلـه وسلم»، وارسـالهم لـه إرسـال المسلمـات، يهـدف إلى إيجـاد منـافسين لعلي في فضائله الخارجية، ولذلك أطلقوا على عثمان لقب «ذي النورين»!! هـذا، مع العلم بأن سيرته لم تكن مع هاتين البنتين علىٰ ما يرام، كما سوف نشير إليه حين الحديث عن وفاتهما في الجزء الرابع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

ويـلاحظ أيضـاً: روايتهم المـوضـوعــة حـول زواج علي ببنت أبي جهل، والتي مدح فيهـا رسول الله «صلى الله عليـه وآله وسلم» صهـر أبي

---

(١) نهج البلاغة ج٢ ص ٨٥ وأنساب الأشراف ج٥ ص ٦٠ والعقد الفريد ج٣ ص ٣٧٦ والجمل ص ١٠٠ عن المدائني والغدير ج٩ ص ٧٤. عن بعض من تقدم وعن تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص ٩٦ وعن الكامل في التاريخ ج٣ ص ٦٣ وعن البداية والنهاية ج٧ ص ١٦٨.

العاص لرسول الله، تعريضاً بعلي «عليه السلام» حيث كان في مقام تحذيره، والإزراء عليه. وسيأتي أيضاً في الجزء الرابع من هذا الكتاب بعض الكلام عن هذا الموضوع إن شاء الله تعالىٰ.

خؤولة هند بن أبي هالة للامام الحسن (ع):

وقبل أن نترك الحديث حول هذا الموضوع إلى غيره، نسجل هنا تحفظاً على ما يقال من أن الامام الحسن «عليه السلام» قال:

«سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، وكان وصافاً، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به، قال: كان رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» فخماً مفخماً الخ».

قال الحسن فكتمها (فكتمتها. صح) الحسين بن علي زماناً، ثم حدثته، فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عن مدخل رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» ومخرجه، ومجلسه، وشكله، فلم يدع منه شيئاً، قال الحسين سألت أبي الخ[1].

أقول:

أولاً: سند هذا الحديث هو جميع العجلي، عن رجل من بني تميم، من ولد أبي هالة، زوج خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، يكنى أبا عبد الله، عن ابن لأبي هالة، عن الحسن بن علي الخ[2].

ونحن في غنى عن التكلم حول هذا السند، فإن الأمر فيه بيّن.

وثانياً: قد تقدم الإختلاف في كون هند المتولد من خديجة، هل هو

---

(١) راجع التراتيب الإدارية ج٢ ص ٤٤٨ و٤٤٩ فما بعدها ودلائل النبوة ج٢ ص ٢٨٦ ط دار الكتب العلمية.

(٢) المصدر السابق ص ٤٤٧.

ذكر أم انثى، وأشرنا إلى اختلافهم في أبيه من هو فيما تقدم؟!.

وثالثاً: إن الامام الحسن «عليه السلام» نفسه قد رأى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بنفسه، وعاش معه عدة سنوات، وقد بايعه وشهد له على بعض عهوده، وخرج معه إلى مباهلة النجرانيين ووالخ.

فلماذا يشتهي أن يصف هند من رسول الله شيئاً يتعلق به. فهل هو قد نسي جده يا ترى؟. وإذا كان قد نسي حقاً، فلماذا لا يسأل أباه وهو أفصح العرب؟ وأعلم الأمة، الذي رباه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في حجره، وكان يعرف عنه كل شيء، مما دق وجلّ.

أم يعقل أن يكون هند مطلعاً على أحوال النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أكثر من علي أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام؟!.

على أننا لم نجد فيما بين أيدينا من نصوص، حتى المكذوب منها ما يشير إلى أن هنداً كان يعيش مع رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، أو بالقرب منه، أو أنه كان يحضر مجالسه، أو نحو ذلك، رغم أننا نسمع الكثير عن غيره ممن كانوا يأتون إلى مجلس النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بين حين وآخر.

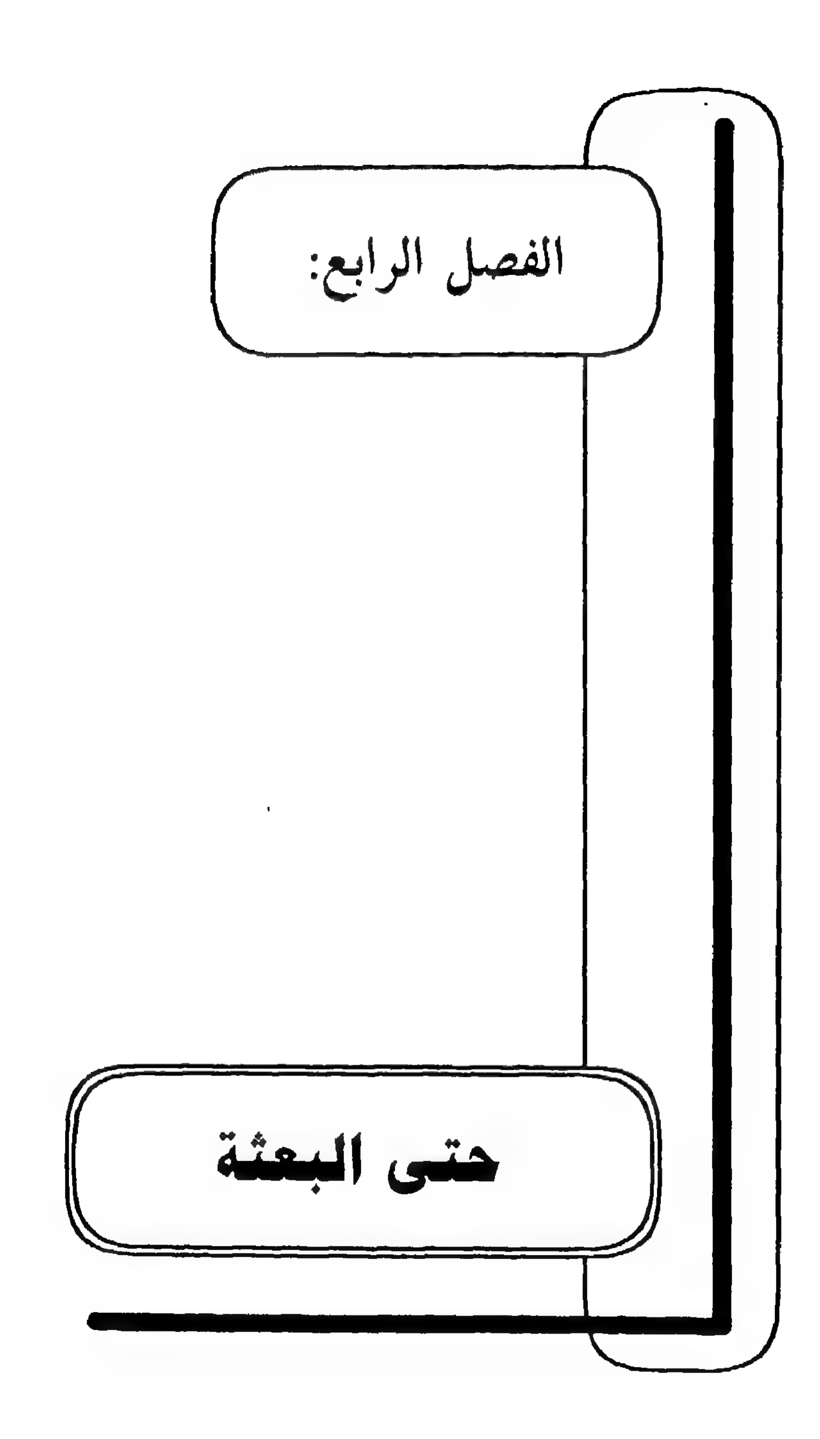
ورابعاً: لا ندري لماذا كتم الحسن «عليه السلام» أخاه هذا الأمر. مع أننا لا نعرف عنه أنه كان يستأثر لنفسه على أخيه في أمور كهذه.

خامساً: إن ما تقدم كله يدفع هذاالحديث ويلقي عليه ظلالاً من الريبة والشك.

سادساً: لا ندري، من هو ابن أبي هالة الراوي عن الامام الحسن «عليه السلام»؛ فهل هو من أبناء خديجة أيضاً؟! فإن كان الجواب بالإيجاب، فلماذا لم يحدثنا عنه التاريخ.

وإن كان هو ابن لأبي هالة من إمرأة أخرى غير خديجة. فهذا ما لم

يذكره التاريخ لنا أيضاً، ولا أشارت إليه كتب الأنساب، ولا ذكر في عـداد الرواة، ولا في كتب الرجال!!



الفصل الرابع:

حتى البعثة



حضور النبي (ص) حرب الفجار:

ويذكر المؤرخون: أن حرباً قد هاجت بين قيس من جهة، وقريش وكنانة من جهة أخرى. في الأشهر الحرم ـ وهي أشهر الحج، ورجب معها ـ ولذلك سُميت حرب الفجار.

ويقال إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد حضر بعض أيامها، وشارك فيها فعلاً، بنحو من المشاركة.

ولكننا بدورنا لا نستطيع أن نؤكد صحة ذلك، بل ونشك كثيراً؛ فيه وذلك لأمور:

الأول: لقد وقعت حرب الفجار في الأشهر الحرم، في رجب. ولا نرى مبرراً لأن ينتهك أبو طالب ومعه الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» حرمة الأشهر الحرم، كما يظهر لمن راجع سيرتهما وحياتهما، ومدى تقيدهما بمثل هذه الأمور؛ فإنهما كانا مسلمين[1]، بل لقد كان أبو طالب مستودعاً للوصايا[2]، كما ورد في بعض الأخبار في الكافي، بالإضافة إلى

---

(١) راجع: البحار: ج١٥ ص ١١٧، وستأتي مصادر أخرى في فصل: بحوث تسبق السيرة، حين الكلام حول إيمان آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) الغدير: ج٧ ص٣٩٤، والكافي: ج١ ص ٤٤٥، والدر المنثور للعاملي: ج١ ص٤٩.

نصوص أخرى تدل على عظمته وثبات قدمه في الدين، فراجع ما ذكر في الغدير، وغيره من الكتب المعدة للحديث عن أبي طالب «عليه السلام».

إلا إذا وُجِّهت المشاركة: بأن حرب الفجار قد وقعت في أشهر النسيء، أو في شعبان أو شوال، وكان سببها في الأشهر الحرم[1].

ولكنه توجيه لا يعتمد على أي سند تاريخي؛ فلا مجال للتعويل عليه. بالإضافة إلى ما سيأتي.

الثاني: قال ابن واضح المعروف باليعقوبي: «وقد روي أن أبا طالب منع أن يكون فيها (أي في حرب الفجار) أحد من بني هاشم، وقال: هذا ظلم، وعدوان، وقطيعة رحم، واستحلال للشهر الحرام، ولا أحضره، ولا أحد من أهلي؛ فأخرج الزبير بن عبد المطلب مستكرهاً. وقال عبد الله بن جدعان التيمي، وحرب بن أمية: لا نحضر أمراً تغيب عنه بنو هاشم»[2].

الثالث: إختلاف الروايات حول الدور الذي أداه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في هذه الحرب؛ فبعضهم يروي: أن عمله «صلى الله عليه وآله وسلم» قد اقتصر على مناولة أعمامه النبل، وردّ نبل عدوهم عليهم، وحفظ متاعهم[3].

وآخر يروي: أنه قد رمى فيها برميات، ما يحب أنه لم يكن قد

(١) راجع السيرة الحلبية ج١ ص ١٢٨، فإنه قد ذكر أن سبب الفجار قد كان في الأشهر الحرم أما نفس الحرب فكانت في شعبان. وأقول: ولكن ما معنى تسميتها حينئذٍ بحرب الفجار؟ . . هذا بالإضافة إلى تصريح اليعقوبي في تاريخه بأن حرب الفجار كانت في رجب فراجع.

(٢) تاريخ اليعقوبي ط صادر ج٢ ص ١٥.

(٣) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٩٨، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٩.

رماها[١].

وثالث يروي: أنه طعن أبا بـراء ملاعب الأسنـة فصرعـه[٢] مع أنهم يقـولون: إن عمـره حينئذٍ كـان أربع عشـرة سنـة![٣]، أو أنـه كـان حينئـذٍ غـلاماً[٤]. ولا نـدري إن كانت العـرب تسمـح للغـلام بخـوض المعـارك والحـروب، أولاً. ولا سيمـا بـالنسبـة إلى محمـد «صلى الله عليـه وآلـه وسلم»، الولد المتميز والعزيز جداً على عمه أبي طالب.

بـل نجد البعض ينـاقض نفسه، فيقـول: إن النبي «صلى الله عليـه وآله وسلم» قد ولد عام الفيل، وأنه حضر الفجار وعمره أربع عشـرة سنة، ثم يقول في آخر كلامه: إن حـرب الفجار كـانت بعد عـام الفيل بعشـرين سنة[٥].

ونشير إلى تناقض آخـر هنا، وهـو أن الكلام الـذي نقلناه في الأمـر الثـاني، عن اليعقـوبي ينص على أن حـرب بن أميـة قـد تغيب عن هـذه الحرب، بينما نجـد الروايـات الأخرى تنص على أنـه كان قـد حضرهـا، وكان هو قائد قريش وكنانة.

سرّ التلاعب في الروايات هنا:

وقد لفت نظرنا هذا التناقض الأخير، إذ لو كان الإختـلاف في رجل عادي من سائر أفراد الجيش، هذا يقول: حضر، وذاك يقول: لم يحضر؛

---

(١) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥١، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٧.

(٢) المصدران المتقدمان.

(٣) المصادر الأربعة المتقدمة إلا أن صفحة ابن هشام هي ١٩٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦ ط صادر.

(٥) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٩، وسيرة ابن هشام ج١ ص ١٩٥ و١٩٨.

لكان يمكن أن تُلتمس بعض المبررات لاختلاف كهذا!! وأنه ربما يقال لا تعمد في المقام!!.

ولكن إذا كان هذا يقول: كان فلان على رأس الجيش، وذاك يقول: لم يحضر أصلاً؛ فلا يمكن إلا أن يكون ثمة تعمد للكذب في قضية كهذه.

ولعل الهدف هو ابعاد حرب بن أمية عن حرب فيها ظلم، وعدوان، وقطيعة رحم، وفي الأشهر الحرم، ولو بالمخالفة لكل المؤرخين، لأن حرب بن أمية هو من تهتم الدولة برفعة شأنه، وتنزيه مقامه، ولو عن طريق الدجل والتزوير!!.

أما النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ فقد تقدم أن الخطة الملعونة كانت تهدف إلى عكس ذلك؛ ولذلك يلاحظ هنا: تعمد جعل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» حتى بعد نبوته يظهر على أنه منسجم مع مشاركته في حرب الفجار في الأشهر الحرم، والتي فيها ظلم وعدوان، وقطيعة رحم، واستحلال للشهر الحرام، حتى ليقول: إنه رمى فيها برميات، ما يحب أنه لم يكن قد رماها!!.

حلف الفضول:

وبعد منصرف قريش من حرب الفجار دعا الزبير بن عبد المطلب[1] إلى حلف الفضول، وعقد الإجتماع في دار عبد الله بن جدعان، وغمسوا أيديهم في ماء زمزم، وتحالفوا وتعاقدوا على نصرة المظلوم، والتأسي بالمعاش، والنهي عن المنكر، وكان أشرف حلف.

---

(١) هو غير الزبير بن العوام، الذي حارب أمير المؤمنين عليه السلام في وقعه الجمل، وقتل وهو منهزم.

والمتحالفون على ذلك هم: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة، وتيم[١].

وأنكر البعض أن يكون بنو أسد بن عبد العزى في حلف الفضول[٢]، وقالوا: إن عبد الله بن الزبير قد ادّعى ذلك لهم في الإسلام[٣].

وقد حضر هذا الحلف نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأثنى عليه بعد نبوته، وأمضاه؛ فقد روي أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: ما أحبّ أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به لأجبت[٤]. أو ما هو قريب من هذا.

سبب هذا الحلف:

وسبب هذا الحلف: أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل؛ فحبس عنه حقه؛ فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف، الذين كانوا يسمون: لعقة الدم، لأنهم حين تحالفوا غمسوا أيديهم بالدم على خلاف المطيبين المشار إليهم آنفاً، الذين هم اصحاب حلف الفضول أيضاً. والأحلاف هم: عبد الدار، ومخزوم، وجمح، وسهم،

---

(١) راجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٤ ص ١٢٩، ونسب قريش لمصعب ص ٣٨٣ فإنه قد شرح كلا الحلفين: حلف الأحلاف، لعقة الدم، وحلف المطيبين. والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٣، والأغاني: ج١٦ ص ٦٦ و٦٥.

(٢) الأغاني: ج١٦ ص ٦٦.

(٣) الأغاني: ج١٦ ص ٧٠.

(٤) أعيان الشيعة ج٢ ص ١٣، وسيرة ابن هشام ج١ ص ١٤٢، والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٣ و٢٩١، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٦١، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣١، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٣ والأغاني: ج١٦ ص ٦٦ و٦٧.

وعدي بن كعب.

فأبى الأحلاف معونة الزبيدي على العاص بن وائل، وانتهروه، وذلك لما كان يتمتع به العاص هذا من نفوذ، وسيأتي أنه قد أنقذ عمر من براثن أهل مكة.

فلما رأى الزبيدي الشر، صعد على أبي قبيس، واستغاث. فقام الزبير بن عبد المطلب، ودعا إلى الحلف المذكور؛ فعقد؛ ثم مشوا إلى العاص، وانتزعوا منه سلعة الزبيدي؛ فدفعوها إليه[1].

بنو أمية وحلف الفضول:

وأمّا ما ذكره أبو هريرة من أن بني أمية قد كانوا في حلف الفضول؛ فهو ما لم يتابعه عليه أحد، وأنكره غير واحد من المؤرخين[2].

وكذا قول البعض: إن أبا سفيان، والعباس بن عبد المطلب، هما اللذان دعيا إلى هذا الحلف[3].

لكن رواية الأغاني ليست صريحة في العباس بن عبد المطلب، فلعل المراد: العباس بن مرداس السّلمي، حيث إنه كان يتحدث عنه أولاً؛ ثم جاء بهذه الرواية بعده..

ولكن يرد عليه: أن العباس بن مرداس لا شأن له في هذا الأمر.

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٩١، ٢٩٢ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣٢، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٣.

(٢) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٩١، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣١ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٣، والسنن الكبرى للبيهقي.

(٣) السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٢ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٣، وكان سن العباس حينئذٍ يساعد على دعوة كهذه لأن عمره حينئذٍ كان لا يزيد على ثمانية عشر عاماً، كما يفهم من تاريخ عقد حلف الفضول..

وأما إرادة العباس بن عبد المطلب وأبي سفيان فلا يمكن قبولها، وذلك لأمور:

أولاً: إن هذا الحلف إنما كان ضد الأمويين، وكان سببه العاص بن وائل السهمي، حليف الأمويين، ووالد عمرو بن العاص. فكيف يشارك أبو سفيان فيه، فضلاً عن يكون هو الداعي له؟!.

لا سيما وأنه قد تقدم: أن الأحلاف ومنهم بنو أمية قد طردوا الزبيدي حينما استجار بهم، وتاريخ أبي سفيان وأخلاقياته لا تساعد على موقف كهذا منه.

أضف إلى ذلك: أن أبا سفيان والعباس، لم يكونا مؤهلين من حيث السنّ والنفوذ والإعتبار للقيام بأمر كهذا، كما أشير إليه في الهامش.

ثانياً: ورد أن محمد بن جبير بن مطعم، قدم على عبد الملك، حين قتل ابن الزبير، فقال له عبد الملك: يا أبا سعيد، ألم نكن نحن وأنتم ـ يعني عبد شمس بن عبد مناف، وبني نوفل بن عبد مناف ـ في حلف الفضول؟! قال: أنت أعلم. قال: لتخبرنّي يا أبا سعيد بالحق من ذلك.

فقال: لا والله، لقد خرجنا نحن وأنتم منه. قال: صدقت. وزاد البعض (وهو المعتزلي في جواب ابن جبير: وما كانت يدنا ويدكم إلا جميعاً في الجاهلية والإسلام)[1].

وثالثاً: كان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يقول: لو أن رجلاً وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل في حلف الفضول،

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٤٣، وشرح النهج للمعتزلي ج١٥ ص ٢٢٦ عن الزبير بن بكار، والأغاني: ج١٦ ص ٦٨ و٧٠، لكن في ص ٦٩: أن ذلك قد كان بين معاوية وجبير بن مطعم.

وليس عبد شمس في حلف الفضول[١].

ورابعاً: مجموعة قضايا تدل على أن الأمويين ما كانوا في حلف الفضول، وعلى أن الإسلام قد اعترف بهذا الحلف وأمضاه. ونذكر منها:

ألف: أنه كان بين الحسين «عليه السلام»، والوليد بن عتبة الأموي أمير المدينة من قبل عمه معاوية منازعة في مال متعلق بالحسين، فكأنّ الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال الحسين: أحلف بالله، لتنصفني من حقي، أو لآخذن سيفي، ثم لأقومنّ في مسجد رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، ثم لأدعونّ بحلف الفضول.

فاستجاب للحسين جماعة، منهم: عبد الله بن الزبير، وهو من أسد بن عبد العزى، والمسور بن مخرمة الزهري، وعبد الرحمان بن عثمان التيمي؛ فلما بلغ الوليد ذلك أنصف الحسين من حقه حتى رضي[٢].

ب: وحسب نص أبي هلال العسكري: «كان بين الحسين «عليه السلام» وبين معاوية كلام في أرض للحسين. فقال الحسين لابن الزبير: خيّره في ثلاثة، والرابعة الصيلم: أن يجعلك أو ابن عمر بيني وبينه. أو يقر بحقي، ثم يسألني أن أهبه له. أو يشتريه مني؛ فإن أبىٰ ـ فوالذي نفسي بيده ـ لأهتفن بحلف الفضول الخ[٣].

ج: وعند أبي الفرج رواية جاء في اخرها: أنه حينما أظهر معاوية إنزعاجه من عدم زيارة الإمام الحسن المجتبى «عليه السلام» له، وهو في

---

(١) الأغاني: ج ١٦ ص ٦٦ و٧٠.

(٢) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٤٢ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣٢، والكامل لابن الأثير ط صادر ج٢ ص ٤٢، والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٩٣ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٣ عن سيرة الحافظ الدمياطي وأنساب الأشراف ج٢ ص ١٤، والأغاني: ج١٦ ص ٦٨.

(٣) الأوائل ج١ ص ٧٣/٧٤. والأغاني: ج١٦ ص ٦٨.

المدينة، أغراه به ابن الزبير، فلم يستجب له معاوية.

فقال له إبن الزبير: «أما والله إني وإياه ليد عليك بحلف الفضول. فقال معاوية: من أنت؟! لا أعرض لك، وحلف الفضول والله إما الخ»[1].

فهذه النصوص تدل على قبول الأئمة «عليهم السلام» بحلف الفضول وإمضائهم له، تبعاً لرسول الله في إمضائه له حسبما تقدم.

كما وتدل ولا سيما النص الأخير منها على أن معاوية وقومه ما كانوا في حلف الفضول، الذي يعرّض له به إبن الزبير. كما أن مناداة الحسين «عليه السلام» بهذا الحلف، واستجابة الزبيريين، وغيرهم له ضد الأمويين، يشير إلى ذلك أيضاً.

وبعد كل ما تقدم، فإن ما يريد أبو هريرة، ومن هم على شاكلته إثباته، تزلّفاً وتقرباً لأسيادهم من الحكام الظالمين، مما يكذبه كل أقوال المؤرخين، وكل الوقائع التاريخية.

ولكن حرص أبي هريرة على أن لا تفوت بني أمية فضيلة كهذه، هو الذي دفعه إلى إدخال الأمويين في أشرف حلف في العرب، والذي يوافق مبادىء الاسلام وشرائعه، وينسجم مع الفطرة السليمة والعقل القويم.

ملاحظة:

ويلاحظ اخيراً. أننا نجدهم يروون عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» ما يدل على لزوم التمسك بأحلاف الجاهلية[2].

---

(١) الأغاني ط ساسي ج٨ ص ١٠٨.

(٢) المصنف للحافظ عبد الرزاق ج١٠ ص ٣٧٠/٣٠٦ وفي هامشه عن مسلم والترمذي ج٤ ص ١٤٦ ط المكتبة الإسلامية وعن سعيد بن منصور وعن فتح الباري ج٨ ص ١٧٣ والدارمي.

وهي دعوة مغرضة وخبيثة، إلا إذا أريد منها خصوص حلف الفضول، الذي امضاه الاسلام. أو أي حلف آخر تنسجم اهدافه مع الاسلام، كالحلف الذي عقده عبد المطلب مع جماعة خزاعة، فلما قتلت قريش جماعة من خزاعة، استنصروا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» استناداً إلى ذلك الحلف، وكان فتح مكة لذلك[1].

ملاحظات هامة على حلف الفضول:

١ ـ إن دعوة الحسين «عليه السلام» بحلف الفضول، انما كانت منه «عليه السلام» لأنه كان يعلم من خلال دراسته للاوضاع وللنفسيات أن هذه الدعوة سوف لن تنتهي إلى حد الخطر الاقصى. وقد كان يهدف منها إلى تعريف الناس على واقع وحقيقة بني أمية، وانهم ظالمون عتاة، لا يهمهم إلا الدنيا وحطامها وأن الهاشميين، وأهل البيت هم الذين يهتمون بالحفاظ على العهود والمواثيق التي تهدف إلى نصرة المظلوم، والدفاع عن الحق.

وقد خاف معاوية من هذا الأمر بالذات، فاستسلم للحسين «عليه السلام»، وارجع الحق إلى أصحابه.

كما أن هذه الدعوة قد كانت في ظرف حرج، لا يمكن اللجوء فيه إلى أية وسيلة أخرى غيرها، حتى ولا وسيلة الثورة العامة ضد تلك الطغمة الفاسدة، إذ أن إعلانه للثورة العامة حينئذٍ، وفي مناسبة كهذه، لسوف يفسر على أنه لدوافع شخصية، ولا علاقة له بالدفاع عن الدين والأمة لا من قريب ولا من بعيد.

وعليه فلو استشهد الامام الحسين «عليه السلام» والحالة هذه في

---

(١) سيأتي الحديث عن ذلك في فتح مكة إن شاء الله تعالى.

هذه المناسبة، فسوف لا يكون لقتله أية فائدة تعود على الدين والأمة. بل ربما يكون ضرر ذلك اكثر من نفعه؛ وذلك عندما يلاحق ذلك معاوية الداهية بحملة دعائية مغرضة، يقضي فيها على الأمل الوحيد للأمة، ويفصل المجتمع المسلم نفسياً وفكرياً عن أهل البيت «عليهم السلام» بشكل عام، وعن أئمتهم بصورة خاصّة.

وذلك لأن الظروف التي أوصلت معاوية إلى الحكم، وإن كانت واضحة لدى كثيرين من أهل العراق والحجاز، إلا أن أهل الشام، الذين لم يعرفوا إلا الاسلام السفياني، إسلام المصالح والأهواء، الاسلام الذي يستحل كل شيء في سبيل الوصول إلى الأهداف الشخصية، واللذات الفردية - نعم - إن أهل الشام الذين لم يتربوا تربية اسلامية صحيحة، ولا عرفوا علياً وأهل البيت على حقيقتهم، ولا عرفوا إسلام علي، ولا مبادىء علي، ولا اهداف علي «عليه السلام»، بل كان الأمويون يظهرون لهم: أنهم هم قرابة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وهم أهل بيته، حتى ليدعي عشرة من أمرائهم وقوادهم: أنهم ما كانوا يعرفون للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أهل بيت غير بني أمية[1].

بل إن معاوية ليتجرأ ويقول لأهل الشام: إن علياً «عليه السلام» لا يصلي!![2].

---

(١) النزاع والتخاصم للمقريزي ص ٢٨، وشرح النهج للمعتزلي ج٧ ص ١٥٩، ومروج الذهب ج٣ ص ٣٣، وعن دعواهم الخلافة بالقرابة من رسول الله(ص) راجع: العقد الفريد ط دار الكتاب العربي ج٢ ص ١٢٠؛ وحياة الإمام الرضا السياسية للمؤلف ص ٥٤/٥٥.

(٢) الفتوح لابن اعثم ج٣ ص ١٩٦ ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٣٥٤ وشرح النهج للمعتزلي ج٨ ص ٣٦ والكامل لابن الأثير ج٣ ص ٣١٣، وتاريخ الطبري ج٤ ص ٣٠، والغدير ج٩ ص ١٢٢ عن بعضهم.

إن أهل الشام والحالة هذه لا يمكنهم أن يدركوا واقع ما يجري وما يحدث. بل إن باستطاعة معاوية أن يموّه ويشبه الامر على غير أهل الشام أيضاً؛ لمكره وشيطنته؛ فإنه قد تأمر على الشام من قبل عمر بن الخطاب، الذي احبه العرب، واخلصوا له؛ لأنه أرضى غرورهم، ورفع معنوياتهم، بتفضيلهم على غيرهم، من أهل الامم الأخرى في العطاء، وفي مختلف الشؤون. مع أنهم الذين كانوا إلى الأمس القريب لا قيمة لهم، يتيهون في صحرائهم القاحلة، يأكلون الجشب، ويشربون الكدر، إلى آخر ما تقدم في أوائل الفصل الأول؛ ثم جاء الاسلام، فساواهم بغيرهم، ورفع من شأنهم، وقرّر: أن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى.

ولكن سياسة عمر بن الخطاب قد اقتضت إعطاء كل الإمتيازات، وفي مختلف الشؤون لخصوص العرب، وحرمان غيرهم من كل الإمتيازات، ومن كل شيء[1].

فأحب العرب عمر بن الخطاب أعظم الحب، وقدّروه أجل تقدير، وصارت افعاله وأقواله عندهم قانوناً متبعاً، لا يمكن مخالفته، ولا الخروج عليه، ويكفي أن نذكر: أن مجرد توليته لأحدهم قد أوجبت لذلك الرجل عظمة ومنزلة خاصة[2].

بل إن علياً الذي لم يكن يرى لبني اسماعيل فضلاً على بني اسحاق[3] لم يستطع أن يعزل شريحاً عن القضاء؛ وقد أبى ذلك عليه أهل

---

(١) راجع كتابنا: سلمان الفارسي في مواجهة التحدي.

(٢) الثقات: ج٢ ص ٢٩٥.

(٣) سنن البيهقي ج٦ ص ٣٤٩ والغدير ج٨ ص ٢٤٠ عنه. وأنساب الأشراف، بتحقيق المحمودي: ج٢ ص ١٤١. والغارات: ج١ ص ٧٤ ـ ٧٧، وحياة الصحابة: ج٢ ص ١١٢ عن البيهقي، وتاريخ اليعقوبي: ج٢ ص ١٨٣، والبحار ج٤١ ص ١٣٧.

الكوفة، وقالوا له: لا تعزله؛ لأنه منصوب من قبل عمر، وبايعناك على أن لا تغير شيئاً مما قرره أبو بكر وعمر[١].

كما أنه لم يستطع أن يمنع جيشه من صلاة التراويح؛ لأن عمر هو الذي شرّعها. وصاحوا واسنّة عمراه[٢]. ولعل أول من صاح في هذه المناسبة بـ «واعمراه» هو قاضيه شريح[٣].

بل لقد نادوا بعلي «عليه السلام» في حرب الجمل: «اعطنا سنة العمرين[٤]».

وسمع رجل النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يقول عن معاوية: من أدرك هذا أميراً فليبقرنّ خاصرته بالسيف؛ فرآه يخطب في الشام؛ فأراد تنفيذ أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، فقالوا له: أتدري من استعمله؟.

قال: ومن

قالوا: أمير المؤمنين عمر.

---

(١) كشف القناع عن حجية الإجماع: ٦٤، وراجع: تنقيح المقال: ج٢ ص ٨٣، وقاموس الرجال: ج٥ ص ٦٧.

(٢) راجع: شرح النهج للمعتزلي: ج٢ ص ٢٨٣ وج١ ص ٢٦٩، والصراط المستقيم: ج٣ ص ٢٦، والكافي ج٨ ص ٦٣ وتلخيص الشافي: ج٤ ص ٥٨، والبحار ط حجرية: ج٨ ص ٢٨٤، وراجع: الجواهر: ج٢١ ص ٣٣٧، والوسائل: باب (١٠) من أبواب نوافل شهر رمضان، كتاب الصلاة، وكشف القناع: ص ٦٥/٦٦ وسليم بن قيس ص ١٢٦ ط مؤسسة البعثة.

(٣) راجع: قاموس الرجال: ج٥ ص ٦٧.

(٤) الكامل للمبرد ج١ ص ١٤٤ ط دار نهضة مصر. وراجع الكافي: ج٨ ص ٥٩، وشرح النهج: ج١ ص ٢٦٩، والكامل في التاريخ: ج٣ ص ٣٤٣، والأخبار الطوال: ص ٢٠٧، وأنساب الأشراف، بتحقيق المحمودي: ج٢ ص ٣٧٠/٣٧١، وتنقيح المقال: ج٢ ص ٨٣.

قال: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين[١].

وقدّ صرح أمير المؤمنين في خطبة له بأعمال كثيرة لمن سبقوه. لم يستطع تغييرها، ولو أنه حاول ذلك لتفرق عنه جنده، حتى يبقى وحده، وقليل من شيعته. وهي أمور كثيرة فلتراجع[٢]. ولتراجع أيضاً الشواهد الكثيرة التي تؤيد ذلك في مصادرها.

ثم جاءت الدولة الأموية، فاستنت بسنة عمر، وسارت بسيرته، وانتهجت نهجه.

وإذا كان معاوية قد تولىّ الشام من قبل عمر، وإذا كان قدموّه على الناس في قضية قتل عثمان، وألقى في الناس الشبهات الكثيرة حولها، حتى استطاع أن يقود جيشاً ليحارب في صفين اعظم رجل بعد الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم».

وإذا كان قد استغل قضية التحكيم، واضفى على خلافته نوعاً من الشرعية المزوّرة، التي يمكن تضليل العوام والسذج بواسطتها. ـ إذا كان كل ذلك ـ فإن من الطبيعي أن يستطيع معاوية الذي وصل إلى الحكم في مثل تلك الظروف الغامضة، أن يصوّر الحسين بن علي «عليه السلام»، بعد قتله علىٰ أنه باغ وطاغ وطامع، تحركه المصالح الشخصية، بل وحتى خارج عن الاسلام، والعياذ بالله.

ولسوف يتمكن عن طريق الاخطبوط الأموي المتغلغل في مختلف البلاد، والذي استطاع أن يضع العراقيل في طريق علي «عليه السلام»، وغيره من الأئمة الطاهرين، لسوف يتمكن من استغلال تلك الظروف

---

(١) البحار ج٩٢ ص ٣٦ عن معاني الأخبار.

(٢) الكافي ج٨ ص ٥٩ ـ ٦٣ وسليم بن قيس ص ١٢٥/١٢٦.

الخاصة، في الحجاز، والعراق، وفي الشام، ابشع استغلال، ولا سيما بالنسبة لأهل الشام، الذين ما كان يمكنهم! إدراك واقع ما يجري وما يحدث إلا عن طريق الجهاز الأموي نفسه.

يضاف إلى ذلك كله: أنه قد كان في عهد الخلفاء قبل علي «عليه السلام»، ولأهداف سياسية معينة، ثمة حصار مضروب على كبار الصحابة؛ فلم تتح لهم الفرصة ليتفرقوا في البلاد، وينشروا تعاليم النبي الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» على حقيقتها. بل حصروهم في المدينة مدة طويلة. ومن استطاع منهم الافلات منها قليل، ومن كان يصر على الجهر بالحقيقة، فإنه يتعرض لمختلف انواع القهر والاضطهاد، كما كان الحال بالنسبة لأبي ذر (رحمه الله)[1].

وهكذا.. فإن الصحابة لم يتمكنوا من الجهر بما تجيش، أو بكل ما تجيش به صدورهم، حتى أشرف هذا الجيل على الفناء والزوال، مما كان من شأنه أن يفسح المجال أمام الجهاز الحاكم لكل افتراء ضد أهل البيت «عليهم السلام»، وضد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه، ثم ضد الاسلام بشكل عام.

وخلاصة الامر: إن قتل الحسين «عليه السلام» في زمن معاوية ليس فقط لا يجدي ولا ينفع، وإنما يكون فيه قضاء تام على الامل الوحيد للدين، والأمة، وللحق. وفي هذا خيانة حقيقية ظاهرة لكل ذلك، بمقدار ما كان استشهاد الحسين «عليه السلام» بعد ذلك وفاء للدين، وللأمة وللحق، عندما لم يعد انحراف الحكم ولا دينيته، بل وعداؤه للدين خافياً على أحد، ولم يكن بعد للدهاء والمكر، وللسياسات المنحرفة: أن تتستر عليه، ولا أن تقلّل من وضوحه. وأصبح السكوت عليه في تلك الظروف

---

(١) راجع مقالنا عن أبي ذر في الجزء الأول من كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام..

هو الخيانة للدين، وللامة، وللحق.

وإلا فإن الحسين «عليه السلام» قد عاش في حكم معاوية بعد استشهاد أخيه الحسن (ع) عشر سنوات، ولم يقم بالثورة ضده، مع أن الحسين «عليه السلام» الذي سكت في زمن معاوية هو نفسه الحسين الذي ثار في زمان يزيد. كما أن الانحراف والظلم الذي كان في زمان هذا قد كان في زمان ذاك. وما ذكرناه هو المبرر لسكوته هناك، وثورته هنا.

هذا، وقد تمدّح الإمام الحسين «عليه السلام» أخاه الإمام الحسن «عليه السلام» على صلحه مع معاوية، واعتبره إيثارا لله عند مداحض الباطل، في مكان التقية بحسن الروية. كما قاله «عليه السلام» وهو يؤبن أخاه الإمام الحسن «عليه السلام» حينما استشهد بسمّ معاوية[1].

وكتب أهل الكوفة أكثر من مرة إلى الإمام الحسين «عليه السلام» يدعونه إلى الخروج إليهم في خلافة معاوية، وفي كل ذلك يأبى عليهم[2]، وقد أمرهم بلزوم بيوتهم ما دام معاوية حيّاً[3].

فالقول بأن سبب عدم ثورته على معاوية إنما هو عدم بيعة الناس له في زمنه، لا يصح.

كما أن الناس كانوا قد بايعوا الإمام الحسن «عليه السلام»، فلماذا سكت؟ ولماذا لم يطالبه الحسين بالقيام؟! ولماذا يمدحه على صلحه لمعاوية؟

---

(١) راجع: تهذيب تاريخ دمشق: ج٤ ص ٢٣٠، وعيون الأخبار لابن قتيبة: ج٢ ص ٣١٤.

(٢) ترجمة الإمام الحسين (ع) من تاريخ دمشق (بتحقيق المحمودي): ص ١٩٧.

(٣) الأخبار الطوال: ص ٢٢١/٢٢٢.

هذا ما أردنا الاشارة إليه هنا، ولهذا البحث مجال آخر.

٢ ـ ويلاحظ أيضاً: أنه حين دعا الحسين «عليه السلام» بحلف الفضول قد استجاب له حتى أعداؤه، كابن الزبير، الذي لم يكن ليخفى على أحد، كيف كان موقفه من الهاشميين أيام خلافته حتى لقد كان يريد أن يحرقهم بالنار في مكة، لولا وصول النجدة لهم من العراق.

كما أنه قد قرت عينه ـ على حد تعبير ابن عباس ـ حين توجه الحسين «عليه السلام» إلى العراق.

أضف إلى ذلك: أنه قد قطع الصلاة على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في خطبه، ولما عوتب على ذلك ادعى: أن هذا الحي من بني هاشم إذا سمعوا ذكره «صلى الله عليه وآله وسلم» أشرأبت أعناقهم، وأبغض الاشياء إليه ما يسرهم. وفي رواية: إن له أهيل سوء الخ[1].

نعم، لقد استجاب للإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه حتى اعداؤه حين دعاهم بحلف الفضول، ولكنهم لا يستجيبون لداعي الله والرسول الذي يأمرهم بقبول إمامة الحسنين «عليهما السلام» قاما أو قعدا ولا يدافعون عن إمامهم الذي خرج في طلب الاصلاح في أمة جده، بل وينصبون العداء له ولأهل بيته عموماً كما أشرنا إليه.

فما هو سر استجابتهم للنداء بحلف الفضول، ثم عدم استجابتهم للحسين، حين دعاهم للجهاد ضد أعداء الدين، فلم يخرج منهم أحد إلى كربلاء لمحاربة الظلم والطغيان، والانحراف عن الدين والحق؟!. مع أن القضية الأولى وإن كانت تمثل مكافحة للظلم والتجبر، إلا أنها في

---

(١) راجع: العقد الفريد ج٤ ص ٤١٣ ط دار الكتاب العربي، وشرح النهج للمعتزلي ج٢٠ ص ١٢٧ وغير ذلك، وأنساب الأشراف ج٤ ص ٢٨ وقاموس الرجال ج٥ ص ٤٥٢، ومقاتل الطالبيين ص ٤٧٤.

الحقيقة تنتهي إلى مسألة خاصة، محدودة الزمان والمكان، والأشخاص، كما سوف تفسرها ابواق الدعاية الأموية المغرضة.

أما في قضية كربلاء، فقد كان واضحاً لدى كل أحد حقيقة أهداف الثورة. وقد أوضحها الامام الحسين «عليه السلام» أكثر من مرة، ولم يُبق مجالاً للشك في أنها ذات أهداف اسلامية جامعة، بعيدة كل البعد عن المكاسب الشخصية والنفعية المحدودة.

فلماذا السكوت؟، وربما السرور من بعضهم بالمصير الذي لاقاه الامام الحسين «عليه السلام» هنا؟ ثم هم يهبون لنصرته، والقيام دونه، أو على الاقل يظهرون استعدادهم لذلك هناك؟! مع أن الأهداف إن لم تكن في المآل واحدة؛ فإنها في قضية كربلا أهم واكثر مساساً بهم وبدينهم وكرامتهم.. فهل كانوا يهدفون إلى إضعاف عدوهم الأقوى أوّلاً؟! أم أنهم أمنوا معاوية، وخافوا يزيد الخمور؟ ربما يكون ذلك، وربما لأن حلف الفضول كان جاهلياً، وهم إلى الجاهلية في حقها وفي باطلها أقرب منهم إلى الاسلام، حتى حينما تكون القضية مصيرية، وحتى ولو كانت مصيرية بالنسبة للأمة بأسرها، وبالنسبة للدين نفسه.

ولو أنهم التفتوا إلى أن حلف الفضول قد امضاه الاسلام، وصار اسلامياً فلربما يكون لهم حينئذٍ موقف آخر.

إن ذلك لعجيب حقاً! وأي عجيب!!.

٣ ـ إن موقف الحسين هذا، وكذلك إمضاء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لهذا الحلف في كلامه المتقدم، ليدل على أن الاسلام قد أمضى هذا الحلف؛ لأنه قائم على أساس الحق والعدل والخير. وهل الاسلام إلا ذلك؟ـ إنه يمضيه ـ مع أن الذين قاموا به كانوا وقتها على الشرك والكفر. ولكنه يهدم مسجد الضرار، مع أن الذين بنوه كانوا يتظاهرون بالاسلام، ويتعاملون على اساسه، بحسب الظاهر.

وهذا ما يؤكد واقعية الاسلام، وأنه إنما ينظر إلى عمل يدي الصياد لا إلى دموع عينيه، وأنه لا يغتر بالمظاهر، ولا تخدعه الشعارات مهما كانت براقة، إذا كانت تخفى وراءها الوصولية، والخيانة والتآمر، فالحق حق، ومقبول، ولا بد من الالتزام به، والتعامل على أساسه، ولو صدر من مشرك، والباطل باطل ومرفوض، ولا يجوز الالتزام به، ولا التعامل على أساسه، مهما كانت الشعارات براقة ومغرية.

ولهذا نفسه نجد أمير المؤمنين أيضاً يرفض خدعة رفع المصاحف على الرماح في صفين ويحذر منها. ولقد كان هو المصيب في رفضه. وغيره، ممن كان يتظاهر بالتقى والعبادة كان هو المخطىء.

وفقنا الله للسير على هدى أمير المؤمنين علي«عليه السلام»، وتأثّر خطاه، والعمل بمنهاجه، الذي هو نهج الايمان والإسلام، إنه ولي قدير.

٤ ـ إن اهتمام النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، والأئمة «عليهم السلام» بحلف الفضول إنما يدل على أن الاسلام ليس منغلقاً على نفسه، وإنما هو يستجيب لكل عمل إيجابي فيه خير الانسان، ويشارك فيه على أعلى المستويات، انطلاقاً من الشعور بالمسؤولية، وانسجاماً مع أهدافه العليا، ومع المقتضيات الفطرية، واحكام العقل السليم.

٥ ـ أما استجابة الذين استجابوا للزبير بن عبد المطلب حينما دعا لعقد هذا الحلف، فلعل لهم دوافع مختلفة باختلاف الأشخاص، والبيوتات، والقبائل، ونذكر من هذه الدوافع:

ألف: الدافع الفطري الإنساني؛ لأن هذا هو ما تحكم به الفطرة، والعقل السليم، ثم هو ينسجم مع الشعور الإنساني، والأخلاقي.

ب: الدافع المصلحي، وذلك لأن عدم الأمن في مكة لسوف يقلل من رغبة التجار في الوفود عليها، والتعامل مع أهلها.

ج: وثمة دوافع أخرى ربما تكون لدى بعضهم، كالحفاظ على قدسية مكة وأهلها في نفوس العرب؛ وغير ذلك. وقد تقدم في الفصل الأول ما يفيد هنا؛ فراجع إن شئت.

تاريخ ولادة أمير المؤمنين (ع):

أما عن تاريخ ولادة أمير المؤمنين «عليه السلام» ففيه إثنا عشر قولاً على وجه التقريب، تبدأ من سبع، حتى ست عشرة سنة قبل البعثة، وقال آخرون: ولد قبل البعثة بعشرين، وغيرهم بثلاث وعشرين سنة[1].

---

(١) راجع الأقوال المذكورة كلًا أو بعضاً في الكتب التالية:

المصنف لعبد الرزاق ج٥ والعقد الفريد ج٤ ص ٣١١، وأنساب الأشراف، ومقاتل الطالبيين ص ٢٦، والأنس الجليل ج١ ص ١٧٨، والتهذيب ج٧ ص ٣٣٦، والأوائل، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٩ عن شواهد النبوة، وطبقات ابن سعد ط ليدن ج٣ ص ١٣، والمعارف لابن قتيبة ص ٥١، وحياة الحيوان ج١ ص ٥٤، والبحار، وينابيع المودة، وتاريخ بغداد ج١ ص ١٣٤، وذخائر العقبى ص ٥٨، والاستيعاب، وسنن البيهقي ج٦ ص ٢٠٦، ونزهة المجالس، ومناقب الخوارزمي وأسد الغابة ج٤ ص ١٦ ـ ١٨، والبداية والنهاية، ومجمع الزوائد ج٩ ص ١٠٢، وفتح الباري ج٧ ص ٥٧، وإحقاق الحق ج٧ص٥٣٨ ـ ٥٥٤.

والقول بالعشر موجود في: الفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٢ والاستيعاب ج٣ ص ٣٠ ط صادر، وطبقات ابن سعد ط مصر ج٣ ص ٢١، وسيرة ابن هشام ج١ ص ٢٦٢، والكافي ج١ ص ٣٧٦، وإرشاد المفيد ص ٩، وإعلام الورى ص ١٥٣، ومناقب آل أبي طالب ج٢ ص ٧٨، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٨٦، ومستدرك الحاكم ج٣ ص ١١١، وتلخيصه بهامشه للذهبي، ومناقب الخوارزمي ص ١٧، وتاريخ الخلفاء ص ١٦٦ والبداية والنهاية ج٣ ص ٢٦، وذخائر العقبى، وأنساب الأشراف، وملحقات إحقاق الحق ج٧ عن بعض من تقدم.

وللقول بالإثني عشر راجع: البحار ج٣٥ ص ٧ وإحقاق الحق ج٧ ص ٥٤٩، عن نهاية الإرب ج٨ ص ١٨١ والاستيعاب ج٣ ص ٣٠.

ويمكن أن تقلّ الأقوال عن ذلك، إذا قلنا: إنه لا منافاة بين القول: بأنه ولد قبل البعثة باثني عشرة سنة، وبين القول بأنه ولد قبلها بخمس عشرة سنة، إذا كان القائل بالثاني لا يسقط السنوات الثلاث الأولى من بعثته (ص) من الحساب، لأن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن يجهر فيها بالدعوة.

ولعل اختلافهم في مدة نبوته (ص) في مكة على قولين: عشر سنوات، وثلاث عشرة سنة سببه ذلك أيضاً.

بل نجد البعض يقول إن سرّية الدعوة قد استمرت خمس سنوات، فيمكن بملاحظة هذا وما تقدم في سائر الاقوال: أن تقلّ الأقوال عن ذلك كثيراً. ولكن هذا على أي حال يبقى مجرد احتمال.

وعلى كل حال، فإن القول بالإثني عشر، وإن كان مروياً عن أهل البيت، إلا أن القول الآخر، وهو أن ولادته كانت قبل البعثة بعشر سنوات مروي أيضاً، وهو المشهور عند علمائنا، وعند غيرهم، كما يظهر من ملاحظة المصادر المتقدمة.

ولذا، نقول: إن هذا القول المعتضد بالشهرة هو الأولىٰ بالاعتماد والإعتبار. لا سيما وأنه مروي عن أهل البيت الذين هم أدرى من كل أحد بما فيه.

وأما محاولات البعض الاستفادة من ذلك، واستنتاج نتيجة معينة

---

* ونُقلت كثير من الأقوال عن المصادر التالية: إكمال الرجال ص ٦٨٧ والروضة الندية ص ١٣، واحكام الأحكام ج١ ص ١٩٠، وأنباه الرواة في أنباء النحاة ج١ ص ١١، ونهاية الارب ج٨ ص ١٨١، والمختصر في أخبار البشر ج١ ص ١١٥، ونظم درر السمطين ص ٨١ و٨٢، والرياض النضرة ج٢ ص ١٥٦ والغرة المنيفة ص ١٧٦ وشرح المواهب للزرقاني ج١ ص ٢٤٢، والطبقات المالكية ج٢ ص ٧١، والمصباح الكبير ج٢٠ ص٥٦.

لتأكيد فكرة معينة، من قبيل ادعاء أن علياً هوأول من اسلم من الصبيان؛ ليكون أبو بكر أول من أسلم من الرجال. فسيأتي عند الحديث عن اسلام أمير المؤمنين «عليه السلام»: أن هذا لا يمكن أن يصح بأي وجه.

أول هاشمي ولد من هاشميين:

لقد ولد أمير المؤمنين «عليه السلام» وهو الشخصية الأولى بعد الرسول، والذي تربّى في حجر الوحي، وارتضع لبان النبوة من أبوين قرشيين هاشميين، هما: أبو طالب، شيخ الابطح. وفاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وقال الكليني وغيره: «وهو أول هاشمي ولد هاشم مرتين» وقريب منه غيره(١).

وعلق المجلسي: بأن اخوته طالباً، وعقيلاً، وجعفراً قد ولدوا قبله من هذين الهاشميين. وقول التهذيب وغيره: «في الاسلام»، لا يصحّح ذلك؛ إذ لو كان مرادهم أنه ولد بعد البعثة فهو لا يصح، للاتفاق على أنه قد ولد قبلها.

ولو كان المراد: أنه الوحيد الذي ولد بعد ولادة الرسول، فهو كذلك لا يصح، لأن أكثر إخوته قد ولدوا بعد ولادة النبي «صلى الله عليه واله وسلم»، مع أنه اصطلاح غريب غير معهود(٢).

والصحيح: أن يقال كما قال المعتزلي، والشهيد، وغيرهما: «وأمه

---

(١) الكافي ج١ ص ٣٧٦، ونسب قريش لمصعب الزبيري ص ١٧، والتهذيب للشيخ ج٦ ص ١٩ والبحار ج٣٥ ص ٥ عنه وعن الكافي، وأسد الغابة ج٤ ص ١٦ وج٥ ص ٥١٧ والفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٣.

(٢) راجع: البحار ج٣٥ ص ٦.

أول هاشمية ولدت لهاشمي»[١].

ولادة أمير المؤمنين (ع) في الكعبة:

لقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام قد ولد في جوف الكعبة أعزها الله، في يوم الجمعة في الثالث عشر من شهر رجب. وأن هذه فضيلة اختصه الله بها، لم تكن لأحد قبله، ولا بعده، وقد صرح بذلك عدد كبير من العلماء، ورواة الأثر، ونظمها الشعراء والادباء. وذلك مستفيض عند شيعة أهل البيت «عليهم السلام»، كما أنه كذلك في كتب غيرهم، حتى لقد قال الحاكم وغيره:

«تواترت الأخبار: أن فاطمة بنت أسد، ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة...».

وصرح بأنه لم يولد فيها أحد سواه عدد من العلماء والمؤرخين[٢].

---

(١) البحار ج٣٥ ص ٦ عن الدروس للشهيد، وشرح النهج للمعتزلي ج١ ص ١٣ وج١٥ ص ٢٧٨ والبدء والتاريخ ج٥ ص ٧١، ونسب قريش لمصعب ص ٤٠، ونزهة المجالس ج٢ ص ١٦٥، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم مخطوط في مكتبة طوب قپوسراي رقم ٤٩٧/١ أ الورقة ١٩ وذخائر العقبى ص ٥٥ والمعارف لابن قتيبة ص ٨٨.

(٢) راجع مستدرك الحاكم ج٣ ص ٤٨٣، وتلخيصه للذهبي هامش نفس الصفحة، ونور الأبصار ص ٧٦، والفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٢، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي ص٤٠٦ و٤٠٧ ومناقب الإمام أمير المؤمنين لابن المغازلي ص٧ وذكر ولادته فيها أيضاً: أسد الغابة ج٤ ص ٣١ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٣٩ ونزهة المجالس ج٢ ص ٢٠٤. وتذكرة الخواص ص ١٠ ونقله صاحب الغدير ج٦ ص ٢٢ ـ ٣٨ عن عشرات المصادر مثل: إزالة الخفاء للدهلوي، والآلوسي في شرح الخريدة الغيبية، ص ١٥ ومروج الذهب ج٢ ص ٢ وشرح الشفا ج١ ص ١٥١، والمناقب لمحمد صالح الترمذي، وآئينه تصوف ص ١٣١١ وروائح المصطفى ص ١٠ وكتاب الحسين للسيد على جلال الدين ج١ ص ١٦، ونقله أيضاً عن عشرات =

ويقول السيد الحميري، المتوفى في سنة ١٧٣ هـ :

ولـدتـه في حـرم الالـه وأمنـه ... والبيت حيث فنـاؤه والـمسـجـد
بيضـاء طـاهـرة الثيـاب كـريمـة ... طـابت وطـاب وليـدهـا والمـولـد
في ليلة غـابت نحـوس نجـومهـا ... وبـدا مـع القمـر المنيـر الاسعـد
مـا لُف في خـرق القـوابـل مثله ... إلا أبـن آمنـة الـنبـي مـحـمـد

ويقول عبد الباقي العمري :

أنت العلي الذي فوق العلى رفعـا ... ببـطن مكـة وسط البيت إذ وضعـا

ولكـن نفـوس شانئي علي «عليه السلام»، قـد نفست عليه هـذه الفضيلة التي اختصـه الله بهـا، فحـاولت تجـاهـل كـل أقـوال العلمـاء والمؤرخين، ورواة الحـديث والأثر، والضـرب بها عـرض الجدار، حيث نجدهم ـ وبكل جرأة ولا مبالاة ـ يثبتـون ذلك لـرجل آخـر غير علي «عليه السلام»، بل ويحاولون التشكيك في ما ثبت لعلي أيضاً، حتى لقد قال في كتاب النور:

«حكيم بن حزام ولد في جوف الكعبة، ولا يعرف ذلك لغيـره. وأما ما روي من أن علياً ولد فيها فضعيف عند العلماء[1]».

= المؤلفات للإمامية فليراجع. وحياة أمير المؤمنين لمحمد صادق الصدر ص ٣٠ عن غاية الاختصار ص ٩٧ وعن مصادر أخرى.

وليراجع إحقاق الحق بتعليقات السيد النجفي ج٧ ص ٤٨٦ ـ ٤٩٠ عن أرجح المطالب ص ٣٨٨، ومحاضرة الأوائل ص ٧٩، والبلخي في كتابه على ما في تلخيصه ص ١١ طبع بمبئي، وعن مطالب السؤل لابن طلحة ص ١١، وفضائل أمير المؤمنين للقفال الشافعي، مخطوط، ومفتاح النجا ص ٢٠ مخطوط واعلام الورى ص ٩٣، ونقل أيضاً عن الاستيعاب وشواهد النبوة وكنوز الحقائق.

واستقصاء مصادر هذه القضية متعذر وما ذكرناه كاف لمن ألقى السمع وهو شهيد.

(١) راجع: السيرة الحلبية ج١ ص ١٣٩، وذكر ولادتها فيها في أسد الغابة ج٢ ص ٤٠ =

وقال المعتزلي: «كثير من الشيعة يزعمون: أنه ولد في الكعبة، والمحدّثون لا يعترفون بذلك، ويزعمون: أن المولود في الكعبة حكيم بن حزام[١].

ثم حاول الحلبي والديار بكري الجمع والصلح بين الفريقين، باحتمال ولادة كليهما فيها[٢].

ولكن كيف يصح هذا الجمع، ونحن نجد عدداً ممن قدمنا أسماءهم، وغيرهم ممن ذكرهم العلامة الأميني في كتاب الغدير، وغيره، يصرّون علىٰ أنه لم يولد في جوف الكعبة سوىٰ علي، لا قبله ولا بعده؟! وأن تلك فضيلة اختصه الله بها دون غيره من العالمين؟!

وكيف يقبل ذلك الجمع، ونحن نجد الحاكم يصرح بتواتر الأخبار في ولادة أمير المؤمنين «عليه السلام» في جوف الكعبة؟!. فهل الحاكم بنظر المعتزلي جاهل بالحديث؟!

ومن أين لحديث ولادة حكيم بن حزام حتىٰ خصوصية صحة سنده. فضلاً عن أن يكون متواتراً ومقطوعاً به؟!.

لماذا حكيم بن حزام؟!

وإنما اثبتت هذه الفضيلة لحكيم بن حزام؛ لأنه كان للزبيريين فيه هوى؛ فإنه ابن عم الزبير، وابن عم اولاده؛ فهو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، والزبيريون ينتهون أيضاً إلى أسد بن عبد العزى.

= والإصابة ج١ ص ٣٤٩ والاستيعاب هامش الإصابة ج١ ص ٣٢٠.

(١) شرح النهج ج١ ص ١٤.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٩، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٩.

ولم يسلم حكيم إلا عام الفتح، وهو من المؤلفة قلوبهم.[١] وكان يحتكر الطعام على عهد رسول الله (ص)[٢] وعن المامقاني: نقل الطبري: أنه كان عثمانياً متصلباً تلكأ عن علي[٣]، ولم يشهد شيئاً من حروبه[٤].

وإذن فمن الطبيعي أن يروي الزبير بن بكار، ومصعب بن عبد الله،[٥] وهما لا شك في كونهما زبيريي الهوى: أنه لم يولد في جوف الكعبة سواه، وذلك على خلاف جميع الأخبار المتواترة، ومخالفة لكل من نص على أنه لم يولد فيها سوى أمير المؤمنين «عليه السلام» لا قبله ولا بعده؟!.

تجديد بناء الكعبة أعزّها الله تعالى:

ويقولون: إن الكعبة قد جاءها سيل جارف تجاوز الردم، الذي كان قد وضع ليمنع من مثل ذلك؛ فدخلها، وصدع جدرانها.

ويقال أيضاً: إنها كانت قد احترقت حينما أرادت احدى النساء تبخيرها فطارت شرارة إلى ثياب الكعبة فاحترقت جدرانها[٦]. ثم جاء السيل بعد ذلك فزاد في تصدعها حتى خاف الناس عليها.

ويرى البعض: أن هذا الحريق كان في زمان ابن الزبير.

---

(١) الإصابة ج١ ص ٣٤٩، والاستيعاب ج١ ص ٣٢٠ هامش الإصابة.

(٢) وسائل الشيعة كتاب التجارة ص ٣١٦.

(٣) قاموس الرجال ج٣ ص ٣٨٧ عن تنقيح المقال.

(٤) قاموس الرجال ج٣ ص ٣٨٧.

(٥) راجع: الإصابة ج١ ص ٣٤٩، ومستدرك الحاكم ج٣ ص ٤٨٣.

(٦) مصنف عبد الرزاق ج٥ ص ٣١٩، والبداية والنهاية ج٢ ص ٣٠٠ كلاهما عن الزهري.

ورفع الحلبي التنافي باحتمال حصول الحريق مرتين[١].

ونحن نقول: انه يبدو أن دعوى احتراقها على هذا النحو الاتفاقي، إنما صيغت للتخفيف من الامتعاض الناشىء من جرأة الامويين على بيت الله الحرام، حيث إنها قد تصدعت حينما ضربت بالمنجنيق وبالنار من قبلهم، وتركها ابن الزبير ليراها الناس محترقة، يحرضهم على أهل الشام[٢].

ومهما يكن من أمر. فقد اتفقت قريش قبل بعثة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» على هدمها، وإعادة بنائها، وأن يرفع بابها، حتى لا يدخلها إلا من شاؤا، وأعدّوا لذلك نفقة طيبة، ليس فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة مما اخذوه غصباً، أو قطعوا فيه رحماً، أو انتهكوا فيه حرمة، أو ذمة[٣].

وبدأت كل قبيلة تجمع الحجارة على حدة، ويقولون: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد شارك في جمع الحجارة. وكان أول من جرأهم على هدمها هو الوليد بن المغيرة.

وتجزأت قريش الهدم والبناء، لكل قبيلة شق، وجهة معينة. وقد اختلف المؤرخون في اختصاصات هذه القبائل بتلك الجهات

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ١٤١.

(٢) صحيح مسلم هامش القسطلاني ج٦ ص ١٨، والكامل لابن الأثير ج٤ ص ١٢٤ ط صادر وذكر في الكامل عن البخاري قولاً آخر، وهو أنها احترقت في زمن ابن الزبير، بسبب نار أوقدها أصحابه حولها.
وأقول الظاهر أن الأمويين أرادوا رد التهمة في جنايتهم على ابن الزبير وأصحابه.

(٣) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٠٦ والبداية والنهاية ج٢ ص ٣٠١، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٤١.

والأجزاء[١]. ولا مجال لتأكيد أو نفي أي من الأقوال في ذلك، ولا سيما في موارد كهذه، يجهد فيها كل فريق أن ينيل من يميل إليهم بعض الشرف، ومواقف الكرامة.

وأما عن تاريخ بناء البيت فقد اختلفت كلمات المؤرخين فيه، فهذا يقول: إن بناءه كان حين بلوغه «صلى الله عليه وآله وسلم» الحلم، أي بعد الفيل بـ ١٥ سنة[٢]. وآخر يقول: إنه بُنِيَ بعد الفيل بخمس وعشرين سنة[٣]. وثالث يقول: إنه كان بعد الفيل بخمس وثلاثين سنة، أي قبل البعثة بخمس سنين[٤].

ولعل هذا الأخير هو الاشهر:

وضع الحجر الأسود:

ولما بلغ البنيان موضع الحجر الاسود اختصموا: كل قبيلة تريد هي أن تنال شرف رفعه إلى موضعه. وكاد أن يؤدي الامر بهم إلى السيف، حتى جاء بنو عبد الدار، وبنو عدي بإناء فيه دم؛ فوضعوا أيديهم فيه، ومعهم بنو سهم، وبنو مخزوم[٥]، وتحالفوا على الموت، ، فسُموا: «لعقة الدم»[٦]. حتى أشار أبو أمية بن المغيرة ـ والد أم سلمة، أم

---

(١) راجع: سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٠٧، والبداية والنهاية ج٢ ص ٣٠٢، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٤٤.

(٢) مصنف عبد الرزاق ج٥ ص ٣١٨، والبداية والنهاية ج٢ ص ٣٠٠ عن الزهري

(٣) البداية والنهاية ج٢ ص ٣٠٠ عن موسى بن عقبة، عن مجاهد، وعروة ومحمد بن جبير بن مطعم، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٩ عن تاريخ يعقوب.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٠٤، والبداية والنهاية ج٢ ص ٣٠٠.

(٥) شرح النهج للمعتزلي ج١٤ ص ١٢٩.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٠٩، والبداية والنهايه ج٢ ص ٣٠٣.

المؤمنين، وأحد أجواد قريش. ويقول البلاذري: أبو مهشم بن المغيرة بأن يحكموا أول داخل عليهم من باب السلام، وهو باب بني شيبة، أو من باب الصفا على الاختلاف.

فكان الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» أول داخل. فلما رأوه قالوا: هذا الامين، رضينا، هذا محمد.

ويقول البعض: إنهم كانوا يتحاكمون إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في الجاهلية؛ لأنه كان لا يداري، ولا يماري[1].

فلما أخبروه بالأمر طلب ثوباً، أو بسط إزاره ـ على الاختلاف ـ ثم أخذ الحجر؛ فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، فلما حاذوا موضعه أخذه رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» بيده الشريفة، فوضعه مكانه.

ملاحظات هامة:

١ ـ إن بني عبد الدار، ومعهم بنو سهم، ومخزوم وعدي قد جاؤا بالدم، فوضعوا أيديهم فيه، وتحالفوا على الموت. ونجد في مقابل ذلك: أن بني عبد مناف قد جاؤا بالغالية ـ وهي نوع من الطيب ـ فوضعوا أيديهم فيها، حينما تحالفوا زمن قصي في مقابل بني عبد الدار؛ فسموا حلف المطيبين.

ولبني عبد مناف حلف آخر هو اكرم وأشرف حلف سمع به في العرب[2]، وهو حلف الفضول الذي أمضاه الاسلام، حسبما تقدم. وكان في مقابلهم حلف الاحلاف، من قبل بني عبد الدار، وسهم، وجمح، ومخزوم، وعدي، ولا يقصد في حلفهم إلا الشرف الدنيوي، ولو أريقت الدماء، وازهقت النفوس.

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ١٤٥.

(٢) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٩١.

ولعل هذا يعكس بوضوح الفرق بين الاتجاهين، ونوعية التفكير، ومستوى الوعي، والنظرة للحياة لدى كل من الفريقين.

ولا نبالغ إذا قلنا: إن من الممكن أن نفهم من مراجعة كتب التاريخ والانساب: أن بني عبد مناف، ولا سيما آل أبي طالب كانوا هم رجالات الاسلام، والهداة إلى الحق، والمجاهدين في سبيل الدين.

بينما نجد بني عبد الدار، والمتحالفين معهم أقل تحمساً للدين، وتضحية في سبيله، بل ويكثر فيهم المناوؤون له، والحاقدون عليه.

٢ ـ إن اشتراط قريش: أن تكون نفقة الكعبة طيبة، لا ربا فيها، ولا مظلمة لأحد الخ.. إن دل على شيء فإنما يدل ولا شك على شعور حقيقي بقبح هذه الامور، وعدم رضا الله والوجدان بها.

وقد يفسر ذلك أيضاً باقتضاء الفطرة لذلك، وحكم العقل بقبحه.

ونحن، ، وإن كنا نعترف بأن ذلك كذلك. بل إن كل احكام الدين موافقة للفطرة، ولأحكام العقل، إلا أننا لا بد وأن نضيف هنا: أنه يدل أيضاً على بقاء شيء من تعاليم الحنيفية فيهم، خصوصاً عند قريش، وبني عبد مناف، ولذلك يلاحظ كثرة الاشارات إلى دين ابراهيم، وما يدل على ايمانهم بالله في كلمات عبد المطلب، وأبي طالب «عليهم السلام» كثير. وما الخطبة التي ألقاها أبو طالب حينما طلب يد خديجة للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عنا ببعيدة.

٣ ـ إن ما تقدم يدل على أن أهل مكة كانوا يتعاملون بالمنطق القبلي حتى في تعاونهم على بناء البيت، وحمل الحجارة له، وهو أقدس مقدساتهم، ورمز عزهم ومجدهم وكرامتهم. بل وعليه تقوم حياتهم. وإن تحالف لعقة الدم حين الاختصام فيمن يرفع الحجر إلى موضعه، ليعتبر الذروة في هذا الأمر، الذي يمجه الذوق، وتنبو عنه الفطرة، ويرفضه العقل السليم.

٤ ـ وبعد هذا، فإن ما يلفت نظرنا: هو فرح قريش حينما رأوا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» أول داخل عليهم، ثم وصفهم له بأنه «الأمين»، مما يعني أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يحتل مكانة خاصة في نفوس الناس في مكة، حيث تسكن قريش سيدة القبائل العربية كلها، حتى إنهم كانوا يحكّمونه في كثير مما كان يشجر بينهم، ويضعون كل ثقتهم فيه، حتى لقبوه بـ «الأمين». بل اننا نجد:

في كلمات أبي طالب المتقدمة، خير شاهد على مكانته «صلى الله عليه وآله وسلم»، وعلو منزلته، وشرفه، وسؤوده.

وفي موقف أمية بن خلف في غزوة بدر دلالة على ذلك أيضاً[1] فراجع.

خرافة انحلال الازار:

هذا، وبعد كل ما تقدم، فإننا نواجه هنا اكذوبة مفضوحة، ليس الهدف منها إلا الحط من كرامة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، والاساءة لمقامه الاقدس، من أولئك الذين لمّا يدخل الايمان في قلوبهم، ولم يسلموا وانما استسلموا، وأقسموا على العمل على دفن ذكرمحمد، وطمس اسمه ودينه. ولكن الله يأبي إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وتلك الاكذوبة التي هي واحدة من مئات امثالها، مما تقشعر له الابدان، ويشتد له غضب الرحمان، هي التالية:

روى الشيخان، وغيرهما من المؤلفين في التاريخ والحديث، ممن تجمعهم معهما رابطة الدين، والسياسة، والصنعة ـ والنص للبخاري ـ: «أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» كان ينقل معهم الحجارة للكعبة، وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يابن أخي لو حللت إزارك

(١) سيأتي ذلك في أوائل غزوة بدر إن شاء الله.

فجعلت على منكبيك دون الحجارة؟ . .

قال: فحلّه، فجعله على منكبيه؛ فسقط مغشياً عليه. فما رؤي بعد ذلك عريانا[1]».

وفي رواية أخرى للبخاري في كتاب الحج: «فخر إلى الأرض، فطمحت عيناه، فقال: أرني ازاري، فشده عليه».

ونحن لا نشك أن ذلك مختلق ومفتعل، ونكتفي بالاشارة هنا إلى ما يلي:

أولاً: إن ثمة تناقض ظاهر بين هذه الروايات، الامر الذي يذكرنا بالمثل المشهور: «لا حافظة لكذوب». وكمثال على ذلك نذكر:

أن رواية تقول: إن تعريه (ص) كان وهو صغير، حينما كان يلعب مع الصغار، وكلهم قد تعرى، وهم أيضاً ينقلون الحجارة للعب، فلكمه لاكم لا يراه، وقال: شد عليك إزارك[2].

وفي أخرى: أن ذلك كان حينما كان عمه أبو طالب يصلح زمزم، فأمر بالستر، من قبل متكلم لا يراه[3].

---

(١) البخاري، باب كراهية التعري في الصلاة ط سنة ١٣٠٩ ج١ ص ٥٠ ص ١٨١ وج٢ ص ٢٠٣، وصحيح مسلم ط سنة ١٣٣٤ هـ ج١ ص ١٨٤، ومسند أحمد ج٣ ص ٢٩٥ و٣١٠ و٣٣٣، وج٥ ص ٤٥٤ و٤٥٥، والمصنف ج٥ ص ١٠٣ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٧ عن الصحيحين وعن البيهقي. وراجع: مراة الجنان ج١ص١٩ والغدير ج٩ ص٢٨٥و٢٨٦ عن البخاري ومسلم وعن السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٩٧.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ١٢٢ وفتح الباري ج٧ ص ١١١ عن ابن إسحاق وسيرة ابن هشام ج١ ص ١٩٤ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٧.

(٣) السيرة الحلبية ج١ ص ١٤٢ و١٢٢.

وثالثة تذكر: أن ذلك كان حين بناء البيت، وهي المتقدمة. ومعنى ذلك أن عمره كان ٣٥ سنة.

ونوع آخر من الاختلاف، وهو: أن النمرة قد ضاقت عليه، فذهب يضعها على عاتقه، فبدت عورته، لصغر النمرة؛ فنودي: يا محمد، خمر عورتك. فلم ير عرياناً بعد ذلك[1].

وأخرى تقول: إن العباس طلب منه أن يضع إزاره عن عاتقه[2].

ورواية تقول: صرع. وأخرى: لكم، وثالثة: اغمي عليه. إلى آخرما هنالك من وجوه الاختلاف.

طريق جمع فاشل:

وقد حاول العسقلاني والحلبي الجمع بين الروايات:

فقال العسقلاني: إن النهي السابق لم يكن يفهم منه الشمول لصورة الاضطرار العادي. وحين بناء البيت اضطر إلى ذلك، فرأى أن لا مانع من التعري حينئذٍ[3].

وهكذا يبذل هؤلاء المحاولات لإثبات هذا الأمر الشنيع على الرسول الاكرم «صلى الله عليه وآله وسلم»، لأن ذلك قد ورد في صحيح البخاري، وهو الكتاب المقدس عندهم، بل هو أصح شيء بعد القرآن. بل إن القرآن فيه تحريف ونسخ للتلاوة وغيرها عندهم. أما البخاري فيجل عن ذلك!!

---

(١) مسند أحمد ج٥ ص ٤٥٥، ومصنف عبد الرزاق ج٥ ص ١٠٣.

(٢) ربما يجاب عن ذلك بأن العباس حين رأى ضيق النمرة طلب منه ذلك فأجاب، فنودي.

(٣) فتح الباري ج١ ص ٤٠١.

مع أنه قد فات العسقلاني هنا: أنه قد جاء في رواية أبي الطفيل: «فما رؤيت له عورة قبل ولا بعد»[1].

هذا كله عدا عن أنه هو نفسه يذكر: أنه (ص) كان مصوناً عما يستقبح قبل البعثة وبعدها[2]

ثم جاء الحلبي، وقال: إن من الممكن أن تكون عورته (ص) قد انكشفت، لكن لم يرها أحد حتى العباس[3].

ولكن ما يصنع الحلبي بعبارة البخاري، وغيره، والتي تنص على أنه: ما رؤي بعد ذلك عرياناً.

وعبارة أبي الطفيل: ما رئيت له عورة قبل ولا بعد.

وثانياً: ومما يكذب ذلك: ما ورد عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» ـ وكأنه تنبأ عما سوف يقال زوراً، وبهتاناً عنه ـ: من كرامتي على ربي: أن أحداً لم ير عورتي. أو ما هو قريب من هذا[4].

وثالثاً: لقد قال عنه أبو طالب «عليه السلام»، قبل بناء البيت بعشر سنوات: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لا يوزن برجل إلا رجح به، ولا يقاس به أحد إلا وعظم عنه الخ. فكيف إذن يقدم هذا الرجل العظيم على التعري أمام الناس، حين حمله الحجارة للكعبة؟!.

ورابعاً: إن ثمة روايات تفيد: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان

---

(١) فتح الباري ج٧ ص ١١١.

(٢) فتح الباري ج١ ص ٤٠١.

(٣) السيرة الحلبية ج١ ص ١٤٢.

(٤) السيرة الحلبية ج١ ص ٥٣ و٥٤ و١٤٢. وكنز العمال ج١٢ ص ٨٣ عن الطيالسي والخطيب وابن عساكر، والطبراني وتهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٣٥٠ والمعجم الصغير ج٢ ص ٥٩.

مصوناً من رؤية عورته حتى بالنسبة لأزواجه؛ فعن عائشة: ما رأيت عورة رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» قط، أو نحو ذلك[1].

وإن كانت قد عادت فذكرت: أن زيد بن حارثة قرع الباب، فقام إليه رسول الله يجر ثوبه عرياناً، قالت: «والله ما رأيته عرياناً قبله ولا بعده، فاعتنقه، وقبّله»[2].

لكن نصاً آخر يقول: «فما رأيت جسمه قبلها»[3]. وهذا هو الأقرب إلى الصواب، بملاحظة ما قدمناه وما سيأتي.

وخامساً: في حديث الغار: أن رجلاً كشف عن فرجه، وجلس يبول، فقال أبو بكر: قد رآنا يا رسول الله، قال: لو رآنا لم يكشف عن فرجه[4].

وهذا يدل على أن المشركين كانوا يستقبحون أمراً كهذا، ولا يقدمون عليه؛ فكيف فعله الرسول الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»؟!

وسادساً: لقد روي أنه (ص) كان أشد حياءً من العذراء في خدرها[5]، فهل العذراء الخجول تستسيغ لنفسها التعري أمام الناس.

---

(١) الشفاء لعياض ج١ ص ٩٥ وشرحه للقاري عن ابن ماجة، والترمذي في شمائله وحياة الصحابة ج٢ ص ٦١١ عن الترمذي في الشمائل ص ٢٦، ولسان الميزان ج٢ ص ٩ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٤٢. وسنن ابن ماجة ج١ ص ٦١٩ وراجع: صيد الخاطر ص ٤٨١ والمعجم الصغير ج١ ص ٥٣.

(٢) حياة الصحابة ج٢ ص ٥٤٤/٥٤٥ عن الترمذي ج٢ ص ٩٧ وقال: حسن غريب.

(٣) صيد الخاطر ص ٤٨١.

(٤) فتح الباري ج٧ ص ١٠، والسيرة الحلبية ج٢ ص ٣٧، والبحار ج١٩ ص ٧٨ عن المناقب لابن شهرآشوب ج١ ص ١١١.

(٥) راجع الغدير ج٩ ص ٢٨١، وعن البخاري ومسلم.

وسابعاً: عن ابن عباس: كان رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» يغتسل وراء الحجرات، وما رأى أحد عورته قط[1].

وثامناً: وقد عد من خصائصه «صلى الله عليه وآله وسلم»: أنه لم ترى عورته قط، ولو رآها أحد لطمست عيناه[2].

فلماذا لم تطمس عينا العباس، الذي كان حاضراً وناظراً، وشدّ عليه إزاره، وكذا أعين سائر من رآه حين بناء البيت؟! وكذلك لماذا لم تطمس أعين رفقائه الصغار، الذين رأوا منه ذلك وهم يلعبون؟! فإن كانوا قد رأوا، فاللازم هو طمس أعينهم، وإن لم يكونوا قد رأوا، فلماذا هذا الكذب والافتراء، وسوء الادب، والجرأة على مقام النبي الاقدس «صلى الله عليه وآله وسلم»، والتفوّه بما يتنافى مع شرفه، وعلو منزلته وكرامته، وسؤوده، وتسديد الله له. نعوذ بالله من الخذلان، ومن وساوس الشيطان.

وتاسعاً: وأخيراً، لقد روي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قوله: ليس للرجل أن يكشف ثيابه عن فخذه، ويجلس بين قوم[3].

فكيف اذن يكشف النبي الاعظم عورته أمام الناس يا ترىٰ؟

وأخيراً، فإن ثمة نصوصاً أكثر شناعة وقباحة من ذلك، نجلّ مقام النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الاقدس عن ذكرها.

ثوبي حجر!!

وبالمناسبة، فإن أمثال هذه الافتراءات قد تعدت نبينا الاكرم (ص) إلى نبي الله موسى «عليه السلام» ولكن بنحو أكثر شناعة، وأشد قباحة،

---

(١) الغدير ج٩ ص ٢٨٨ عن شرح المواهب للزرقاني ج٤ ص ٢٨٤، وعن فتح الباري ج٦ ص ٤٥٠.

(٢) الشفاء للقاضي عياض ج١ ص ٩٥ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢١٤.

(٣) البحار ج٧٥ ص ٤٦٦.

حيث نسبت ذلك إلى فعل الله سبحانه به.

فلقد روىٰ البخاري وغيره: أن بني اسرائيل اتهموا موسىٰ بأنه آدر (أي مصاب بانتفاخ في خصيته بسبب الفتق) فنزع ثوبه، ووضعه على حجر واغتسل. فلما أراد أن يأخذ ثوبه عدا الحجر بثوبه؛ فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو اسرائيل إلى موسى، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً.

قال أبو هريرة: فوالله، إن بالحجر لندباً: ثلاثاً، أو اربعاً، أو خمساً، فذلك قوله تعالى: لا تكونوا كالذين آذوا موسى، فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهاً[١].

ولا ندري كيف لم يلتفت موسى إلى نفسه، حتى بلغ مجالس بني اسرائيل؟!، وما هو الذي أفقده صوابه حتى خرج عن حيائه وسجيته، التي ذكرتها الرواية: أنه كان حيياً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه؟!.

ولا ندري ما هي حقيقة هذا الحجر العبقري! الذي يهرب من موسى، ويتركه يعدو خلفه؟! ولا ندري كذلك كيف التفت موسى إلى عصاه قبل أن يلحق بالحجر، وما الذي خطر في باله آنئذٍ؟!.

وإذا لم يكن الحجر مأموراً، فما الذي جعله يقوم بهذه العملية،

(١) البخاري ط سنة ١٣٠٩ ج١ ص ٤٠ وج٢ ص ١٥٨، ومسند أحمد ج٢ ص ٣١٥ والدر المنثور ج٥ ص ٢٢٣ عنه وعن عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه وابن الأنباري في المصاحف، والبزار، والحاكم وصححه، وابن أبي شيبة، عن أبي هريرة، وأنس، وابن عباس، وتفسير الميزان ج١٦ ص ٣٥٣، وتفسير القمي ج٢ ص ١٩ بسند حسن ولكن نسبة التفسير إلى القمي مشكوك فيها ومشكل الآثار ج١ ص ١١ وتفسير نور الثقلين ج٤ ص ٣٠٩ وتفسير البرهان ج٣ ص ٣٣٩. وكشف الأستار ج٣ ص ٦٦ ومجمع الزوائد ج٧ ص ٩٣.

ويخرجه عن وضعه الطبيعي؟!، وإذا كان مأموراً، فلماذا لم يدرك موسى ذلك بمجرد تحرك الحجر بثوبه الذي هو أمر خارق للعادة؟. هذا مع كونه يناديه ويخاطبه، حتى كأنه عاقل مدرك لما يقول!!

وأخيراً، فإنني لا أدري ما هو ذنب هذا الحجر، حتى استحق هذا الضرب الوجيع الذي أثر فيه وجعل فيه ندباً؟! ولماذا لم يعين لنا عدد تلك الندب، فذكرت على نحو الترديد: ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً؟!. وفي بعض الروايات: ستاً، سبعاً؟!.

وإذا كان أبو هريرة قد بلغ به النسيان هذا الحد، فكيف استطاع أن يحفظ تلك التفاصيل الدقيقة للقصة نفسها؟!.

ثم كيف استطاع أن يحفظ هذه الآلاف المؤلفة من الاحاديث عن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»؟!.

هذا وتحسن الإشارة هنا إلى أنه لا يرد كثير مما ذكرنا، على رواية القمي التي لم تذكر عصاه، ومناداته، وضربه للحجر. ولعلها أقرب إلى الاعتبار من تلك الرواية البخارية.

وقد جاء أن آية ايذاء موسى، قد نزلت في طعن بني اسرائيل على موسى بسبب هارون: لأنه توجه معه إلى زيارة، فمات هارون؛ فدفنه موسى؛ فاتهمه بعض بني اسرائيل بقتله، فبرأه الله تعالى بأن أخبرهم جسد هارون بأنه مات ولم يقتل[1].

حياء عثمان:

هذا، ولا بأس بالمقارنة بين ما يذكر هنا عن نبينا الاعظم «صلى الله

---

(١) فتح الباري ج٦ ص ٣١٣ عن ابن مردويه والطحاوي، وابن منيع بسند حسن، والدر المنثور ج٥ ص ٢٢٣ عن هؤلاء وعن ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه عن ابن عباس، ومشكل الآثار ج١ ص ١٢.

عليه وآله وسلم» وبين ما يذكر عن حياء عثمان، حتى إن أبا بكر، وعمر ليدخلان على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وفخذه مكشوفة، فلا يسترها، حتى إذا دخل عليه عثمان جلس، وستر فخذه، وسوى عليه ثيابه؛ فتسأله عائشة؛ فيجيبها بأنه: ألا يستحي من رجل تستحى منه الملائكة؟ أو ما هو قريب من هذا[1].

هذا، مع أن هذا النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه يأمر ويؤكد باستمرار بالحياء، ويحث عليه، فيقول: إذا لم تستح، فاصنع ما شئت. ويقول: الحياء من الايمان، والايمان في الجنة. إلى غير ذلك من النصوص الكثيرة عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» ولا مجال لتتبعها.

كما أن أبا سعيد الخدري قد وصف النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بأنه: أشد حياء من العذراء في خدرها[2].

وأيضاً، فإنهم ينقلون عنه «صلى الله عليه وآله وسلم»: أنه أمر رجلاً

---

(١) مجمع الزوائد ج٩ ص ٨٢، والبداية والنهاية ج٧ ص ٢٠٢ عن الطبراني في الكبير، والأوسط، ومسند أحمد، وأبي يعلى، وتاريخ جرجان ص ٤١٦، والمصنف ج١١ ص ٢٣٢/٢٣٣ والمحاسن والمساوي ج١ ص ٦١ وحياة الصحابة ج٢ ص ٦١١ و٦١٢ عن الأولين ومشكل الآثار ج٢ ص ٢٨٣/٢٨٤، ومسند أحمد ج١ ص ٧١ وج٦ ص ٦٢ و١٥٥ و١٦٧ وصحيح مسلم ج٧ ص ١١٦/١٧٧، والغدير ج٩ ص ٢٧٤ و٢٧٥ و٢٨٧ وص ٢٩٠ عن الأخيرين وعن: مصابيح السنة ج٢ ص ٢٧٣، والرياض النضرة ج٢ ص ٨٨ وراجع: تأويل مختلف الحديث ص ٣٢٣ والتراتيب الإدارية ج٢ ص ٣٨٣ و٣٨٤ وفيه أحاديث أخرى عن حياء الملائكة من عثمان ومسند أبي يعلى ج٧ ص ٤١٥.

(٢) البداية والنهاية ج٦ ص ٣٦، ومجمع الزوائد ج٩ ص ١٧، عن الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح، وصحيح مسلم ج٧ ص ٨٧، والغدير ٩ ص ٢٨١ عن البخاري باب صفة النبي(ص) وعن مسلم، وحياة الصحابة عن بعض من تقدم وعن الترمذي ص ٢٦.

بستر فخذه؛ فإنها من العورة[١].

وأما ما يدل على أن ما بين السرة والركبة عورة، فكثير أيضاً[٢].

وعن حياء أبي موسى وأبي بكر، والخدري[٣] هناك نصوص لا مجال لإيرادها فعلاً.

وقد قال العلامة الاميني: «هب أن النهي عن كشف الأفخاذ تنزيهي، إلا أنه لا شك في أن سترها أدب من آداب الشريعة، ومن لوازم الوقار، ومقارنات الأبهة، ورسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» أولى برعاية هذا الأدب، الذي صدع به هو الخ»[٤].

أهل الكتاب، وتعرّي الأنبياء:

ولا بد أن نشير أخيراً إلى أننا نجد لهذا الأمر أصلاً عند أهل الكتاب،

---

(١) مسند أحمد ج٥ ص ٢٩٠ وج١ ص ٢٧٥، وصحيح البخاري ج١ ص ٥١ وسنن البيهقي ج٢ ص ٢٢٨، والإصابة ج٣ ص ٤٤٨، وفتح الباري ج١ ص ٤٠٣، ونيل الأوطار ج٢ ص ٥٠، ومستدرك الحاكم ج٤ ص ١٨٠/١٨١، ومجمع الزوائد ج٢ ص ٥٢ عن أحمد والطبراني في الكبير والغدير ج٩ ص ٢٨٢ فما بعدها عن من تقدم وعن إرشاد الساري، وابن حبان في صحيحه وليراجع: موطأ مالك، والترمذي، وأبو داود، ومشكل الآثار ج٢ ص ٢٨٤ و٢٨٥ و٢٨٦ وحتى ص ٢٩٣. والمصنف ج١١ ص ٢٧ وتأويل مختلف الحديث ص ٣٢٣/٣٢٤.

(٢) راجع: الغدير ج٩ ص ٢٨٥، و٢٨٤، و٢٨٨، ٢٩٠ و٢٩١ و٢٩٢. والمعجم الصغير ج٢ ص ٩٦. وحياة الصحابة ج٢ ص ٦١٢/٦١٣ تجد كثيراً من أقوال العلماء والنصوص حول ذلك.

(٣) راجع: طبقات ابن سعد ج٤ ص ١١٣ و١١٤ والزهد والرقائق ص ١٠٧وربيع الأبرار ج١ ص ٧٦٠ وحياة الصحابة ج٣ ص ٤٨٢ عن كنز العمال ج٨ ص ٣٠٦ وج٥ ص ١٢٤ وعن حلية الأولياء ج١ ص ٣٤، والغدير ج٧ ص ٢٤٨ وج٩ ص ٢٨١.

(٤) الغدير ج٩ ص ٢٨٥.

فلعل الخطة الأموية الملعونة قد استفادت أصل هذا الموضوع من أهل الكتاب!!.

فقد جاء في أخريات العشرين من أشعيا: أن الله أمر نبيه أشعيا: أن يمشي عرياناً وحافياً بين الناس ثلاث سنين، ليبلغ الناس، ويقول لهم: هكذا يسوق ملك آشور سبي مصر، وجلاء كوش الفتيان والشيوخ عراة وحفاة، ومكشوفي الاستاه، خزياً لمصر.

وجاء في تاسع التكوين الفقرة (٢١): وشرب نوح من الخمر فسكر، وتعرّى داخل جنانه.

وفي صموئيل الأولى، الاصحاح التاسع عشر، الفقرة ٢٣/٢٤: «فكان يذهب ويتنبأ، حتى جاء نايوت في الرامة، فخلع هو أيضاً ثيابه، وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل، وانطرح عرياناً ذلك النهار كله، وكل الليل، لذلك يقولون: أشاول أيضاً بين الأنبياء».

ولادة فاطمة بنت الرسول (ص):

يذكر البعض: أن فاطمة الزهراء «عليها السلام»، بنت الرسول الاكرم «صلى الله عليه وآله وسلم»، قد ولدت قبل البعثة، ثم يختلفون ـ أولئك البعض ـ فيما بينهم في تحديد سنة ولادتها، فبعضهم يقول: إنها ولدت سنة بناء الكعبة، أي قبل البعثة بخمس سنين[١].

وبعضهم يقول: إنها ولدت قبل البعثة بسبع سنين[٢]؛ وقيل[٣]:

---

(١) راجع: تاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٧، وذخائر العقبى ص ٥٢ ومقاتل الطالبيين ص ٤٨، وسيرة مغلطاي ص ١٧ عن ابن الجوزي. والبحار ج٤٣ ص ٩.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٨، وذخائر العقبى ص ٥٢.

(٣) المصدران السابقان.

باثنتي عشرة سنة[١].

والقائلون بأنها ولدت بعد البعثة اختلفوا أيضاً، بين قائل: إنها ولدت سنة البعثة[٢]، وقيل: في الثانية[٣]. وقيل: سنة أحدى واربعين من عمره الشريف[٤].

القول الحق:

والقول الحق هو ما عليه شيعة أهل البيت تبعاً لأئمتهم «عليهم السلام»، وأهل البيت أدرى بما فيه، وتابعهم عليه جماعة من غيرهم،

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٧، وذخائر العقبى ص ٥٢، والمواهب اللدنية ج١ ص ١٩٨ والاستيعاب هامش الإصابة ج٤ ص ٣٧٤، واختاره الحاكم في المستدرك ج٣ ص ١٦١.

(٢) البحار ج٤٣ ص ٨ عن إقبال الأعمال، عن حدائق الرياض، للشيخ المفيد رحمه الله وتاريخ الخلفاء: ص ٧٥. وهو مقتضى كلام العسقلاني في تهذيب التهذيب: ج٢ ص ٤٤١ حيث قال: إنها تزوجت في السنة الثانية من الهجرة وعمرها خمسة عشر سنة وخمسة أشهر ونصفاً.

(٣) البحار: ج٤٣ ص ٩، وفي الاستيعاب (بهامش الإصابة): ج٤ ص ٣٧٤ أنها ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبي(ص) ونهاية الإرب ج١٨ ص ٢١٣.

(٤) في مستدرك الحاكم ج٣ ص١٦٣ ذكر أنها ماتت وعمرها(٢١) سنة وولدت على رأس (٤١) من مولده(ص). وكذا في نهاية الارب ج١٨ ص٢١٣ ودلائل النبوة للبيهقي ط دار الكتب العلمية ج٢ ص ٧١ والتبيين في أنساب القرشيين ص ٩١ ومختصر تاريخ دمشق ج٢ ص ٢٦٩ والمواهب اللدنية ج١ ص ١٩٨ والاستيعاب بهامش الإصابة ج٤ ص ٣٧٤.

وسيرة مغلطاي ١٧، والبحار ج٤٣ ص ٨، وملحقات احقاق الحق للمرعشي ج١٠ ص ١١ عن الثغور الباسمة للسيوطي. وراجع: البصائر والذخائر ج١ ص ١٩٣ وراجع تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٠.

وهو أنها قد ولدت في السنة الخامسة من البعثة، وتوفيت وعمرها ثمانية عشر عاماً[١].

ويدل على ذلك، أو يؤيده:

١ ـ ما تقدم في البحث عن أولاد خديجة، من أن البعض قد ذكر أنهم كلهم قد ولدوا بعد الاسلام باستثناء عبد مناف[٢]، مع العلم بأن فاطمة «عليه السلام» كانت أصغر أولاده «صلى الله عليه وآله وسلم».

ويدل على ذلك: أنه قد ذكر في الاستيعاب في ترجمة خديجة: أن الطيب قد ولد بعد النبوة، وولدت بعده أم كلثوم، ثم فاطمة.

٢ ـ ويدل على أنها قد ولدت بعد البعثة روايات كثيرة، أوردها جماعة من العلماء، على اختلاف نحلهم ومشاربهم، تدل على أن نطفتها قد انعقدت من ثمر جاء به جبرئيل إلى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من الجنة، حين الاسراء والمعراج، وذلك مروي عن عدد من الصحابة، منهم: عائشة، وعمر بن الخطاب، وسعد بن مالك، وابن عباس، وغيرهم[٣].

(١) ذخائر العقبى ص ٥٢ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٨ نقلاً عن الإمام أبي بكر أحمد بن نصر بن عبد الله الدراع في كتاب تاريخ مواليد أهل البيت ومروج الذهب: ج٢ ص ٢٨٩، والبحار ج٤٣ ص ١ ـ ١٠ عن الكافي بسند صحيح، والمصباح الكبير، ودلائل الإمامة، ومصباح الكفعمي، والروضة، ومناقب ابن شهرآشوب، وفي الأخيرين: أنها ولدت بعد البعثة بخمس سنين، وبعد الإسراء بثلاث سنين، وكذا في كشف الغمة: ج٢ ص ٧٥، وإثبات الوصية للمسعودي، وغير ذلك.

(٢) راجع: البدء والتاريخ ج٥ ص ١٦، والمواهب اللدنية ج١ ص ١٩٦، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٢.

(٣) تجد بعض هذه الروايات في كتب الشيعة، مثل: البحار ج٤٣ ص ٤ و٥ و٦ عن أمالي الصدوق، وعيون أخبار الرضا، ومعاني الأخبار، وعلل الشرائع، وتفسير القمي، والاحتجاج وغير ذلك. والأنوار النعمانية ج١ ص ٨٠. وفي كتب غيرهم =

وإذا أمكنت المناقشة في بعض تلك الروايات فإن البعض الآخر لا مجال للنقاش فيه.

ويؤيد ذلك أيضاً: أن النسائي قد روى: أنه لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة ردّهما «صلى الله عليه وآله وسلم»، وقال لهما: إنها صغيرة[1]. فلو كان عمرها سبع عشرة سنة أو أكثر، فلا يقال: إنها صغيرة.

ويؤيده أيضاً: ما رُوي من أن خديجة رحمها الله كانت قد هجرتها نساء قريش، فلما حملت بفاطمة كانت تحدثها من بطنها، وتصبّرها[2].

بقي أن نشير إلى أن استبعاد حمل خديجة بفاطمة في السنة الخامسة من البعثة؛ لأن سن خديجة كان حينئذٍ عالياً ـ هذا الاستبعاد ـ.

في غير محله؛ لما تقدم، من أن سن خديجة حينئذ كان ما بين ٤٥ حتى ٥٠ سنة بناء على عدد من الأقوال في مقدار عمرها، ولعل من بينها ما هو الأقوى، وإن كان المشهور خلافه.

= مثل: المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص ١٥٦، وتلخيصه للذهبي (مطبوع بهامشه)، و نزل الأبرار: ص ٨٨، والدر المنثور: ج٤ ص ١٥٣، وتاريخ بغداد: ج٥ ص ٨٧، والمناقب لابن المغازلي: ص ٣٥٧. تاريخ الخميس ج١ ص ٢٧٧، وذخائر العقبى ص ٣٦ ولسان الميزان ج١ ص ١٣٤ واللآلي المصنوعة ج١ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤، ونقله النجفي في ملحقات إحقاق الحق ج١٠ ص ١ ـ ١٠ عن بعض من تقدم وعن ميزان الاعتدال والروض الفائق، ونزهة المجالس، ومجمع الزوائد، وكنز العمال، ومنتخبه، ومحاضرة الأوائل. ومقتل الحسين للخوارزمي، ومفتاح النجاة، والمناقب لعبد الله الشافعي، وإعراب ثلاثين سورة، واخبار الدول. وستأتي بغية المصادر حين الكلام حول تاريخ الإسراء والمعراج .

(١) راجع: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: ص ١١٤، والمناقب لابن شهراشوب: ج٣ ص ٣٤٥، وتذكرة الخواص: ص ٣٠٦/٣٠٧.

(٢) البحار ج٤٣ ص ٢.

وحتى على هذا المشهور؛ فإن عمر خديجة حينئذٍ كان لا يـأبى عن الحمل؛ فإن القرشية يستمر حيضها إلى الستين، كما هو مقـرر في الفقه. وهذا يعني أن قابلية الحمل موجودة أيضاً، كما هو ظاهر.

ومما ذكرناه، ومن قول المصباح: «والعامة تروي: أن مـولدهـا كان قبل المبعث بخمس سنين»[1]، نعرف: أن المسعـودي قد اشتبـه في نسبة القول بالتسع والعشرين إلى أكثـر أهل البيت وشيعتهم[2]. ولعله سهـو من قلمـه، أو عمد أو سهـو من النساخ، بحيث كـان في الاصل تسـع عشرة، فبدل إلى تسع وعشرين.

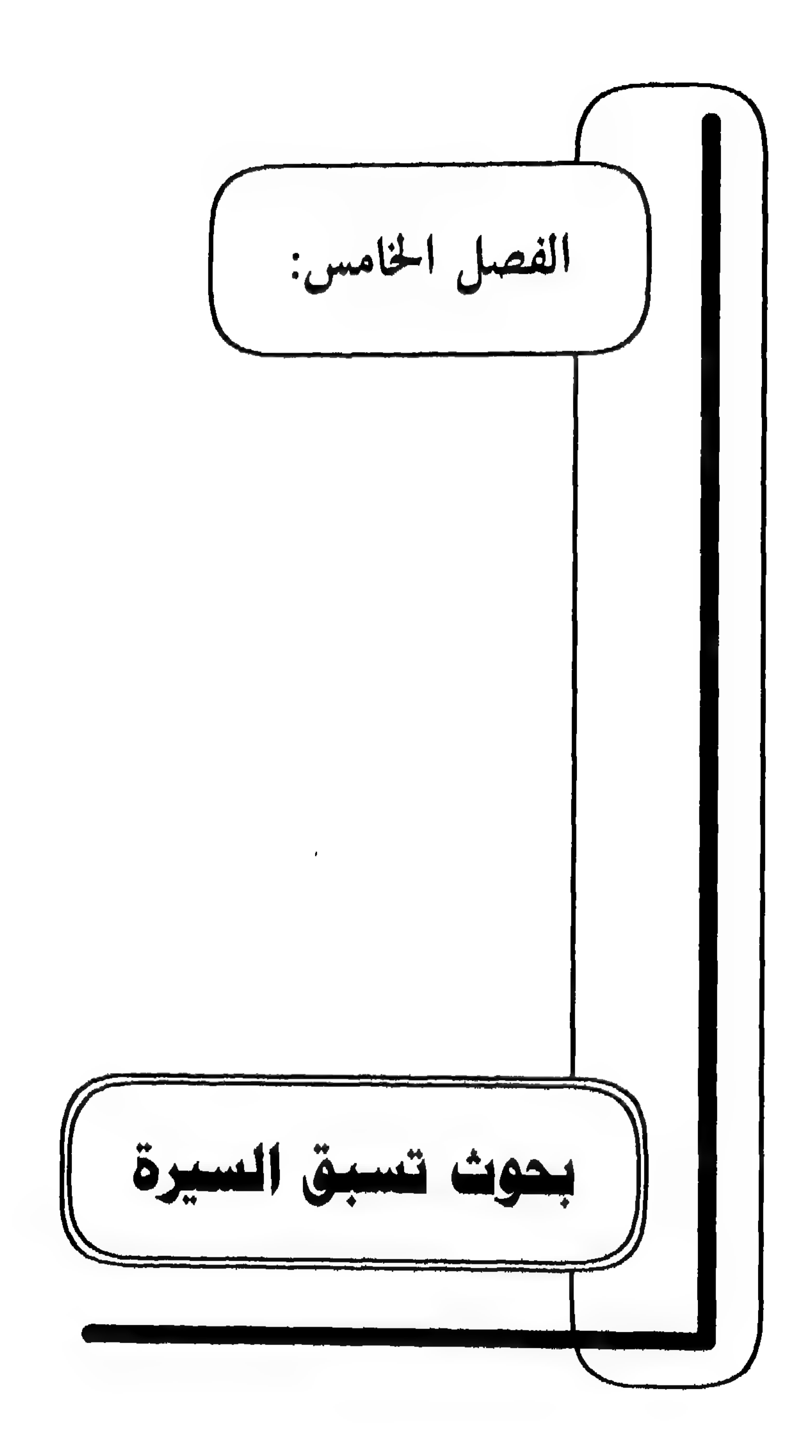
وبعد كل ما تقدم؛ فإنه إذا كانت فاطمة قد ولدت في السنة الخامسة من البعثة؛ فإنها تكون قد توفيت وعمرها ثمانية عشـر عامـاً فقط، كما هـو ظاهر.

---

(١) البحار ج٤٣ ص ٢ وليراجع حق ص ١٠

(٢) التنبيه والإشراف ص ٢٥٠.




الفصل الخامس:
بحوث تسبق السيرة



البحث الأول:

إيمان آباء النبي (ص) إلى آدم (ع):

قالوا: إن كلمة الامامية قد اتفقت على أن آباء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، من آدم إلى عبدالله كلهم مؤمنـون موحـدون[1]. بل ويضيف المجلسي قـوله: «. . . بـل كانـوا من الصديقين، إمـا انبياء مـرسلين، أو أوصياء معصومين، ولعـل بعضهم لم يظهـر الاسلام، لتقيـة، أو لمصلحة دينية»[2].

ويضيف الصدوق هنا: أن أُم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» آمنة بنت وهب كانت مسلمة أيضاً[3].

ومعنى ذلـك: هو أنـه ليس في آباء الـرسـول «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» إلا الخير والبركة، وهذا هو ما ورثه الرسـول عنهم، ويتأكـد بذلـك

(١) راجع: أوائل المقالات ص ١٢، وتصحيح الاعتقاد ص ٦٧، وتفسير الرازي ج٢٤ ص ١٧٣ ط دار الكتب العلمية بطهران وفي طبعة أخرى ج٤ ص ١٠٣، والبحار ج١٥ ص ١١٧، ومجمع البيان ج٤ ص ٣٢٢، وليراجع البداية والنهاية ج٢ ص ٢٨١.

(٢) البحار ج١٥ ص ١١٧.

(٣) نفس المصدر.

طهارته «صلى الله عليه وآله وسلم» من الأرجاس، والرذائل، حتى ما يكون عن طريق الوراثة، والناس معادن كمعادن الذهب والفضة، وهو ما أثبته العلم الحديث أيضاً، حيث لم يبق ثمة أية شبهة في تأثير عامل الوراثة في تكوين شخصية الإنسان، وفي خصاله ومزاياه.

قال ابو حيان الاندلسي: «ذهبت الرافضة إلى أن آباء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»كانوا مؤمنين»[١].

أما غير الامامية، فذهب اكثرهم إلى كفر والدي النبي وغيرهما من آبائه «صلى الله عليه وآله وسلم»، وذهب بعضهم إلى ايمانهم.

وممن صرح بايمان عبد المطلب، وغيره من آبائه «صلى الله عليه وآله وسلم»، المسعودي، واليعقوبي، وهو ظاهر كلام الماوردي، والرازي في كتابه اسرار التنزيل، والسنوسي، والتلمساني محشي الشفاء، والسيوطي، وقد ألف هذا الاخير عدة رسائل لإثبات ذلك[٢].

وفي المقابل قد الف بعضهم رسائل لإثبات كفرهم، مثل ابراهيم الحلبي، وعلي القاري الذي فصّل ذلك في شرح الفقه الاكبر، واتهموا السيوطي بأنه متساهل، لا عبرة بكلامه، مالم يوافقه كلام الائمة النقاد.

وسيأتي في آخر هذا البحث إن شاء الله تعالى ما يشير إلى السبب في الإصرار على كفر آباء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وأعمامه.

---

(١) تفسير البحر المحيط ج٧ ص ٤٧.

(٢) رسائل السيوطي، هي التالية:

١ ـ مسالك الحنفا. ٢ ـ الدرج المنيفة في الآباء الشريفة. ٣ ـ المقامة السندسية في النسبة المصطفوية. ٤ ـ التعظيم والمنة في أن أبوي رسول الله (ص) في الجنة. ٥ ـ السبل الجلية في الآباء العلية. ٦ ـ نشر العلمين المنيفين. في إثبات عدم وضع حديث إحياء أبويه (ص) وإسلامهما على يديه (ص).

بعض الأدلة على إيمانهم:

وقد قال الإمامية: إن ثمة روايات كثيرة تدل على ايمان آبائه «صلى الله عليه وآله وسلم»، بالاضافة إلى اجماع الطائفة المحقّة، وهذا الإجماع وإن كان معلوم المستند، فلا بد من النظر إلى مستنده نفسه، ومستند ذلك هو الاخبار. والاحاطة بجميعها متعسر، إن لم يكن متعذراً[1].

وهذا هو الدليل المعتمد.

وقد استدلوا على ذلك ايضاً:

١ ـ بقوله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى ارحام المطهرات، حتى اخرجني في عالمكم، ولم يدنسني بدنس الجاهلية».[2]

ولو كان في آبائه «صلى الله عليه وآله وسلم» كافر، لم يصفهم كلهم بالطهارة، مع قوله تعالى: «إنما المشركون نجس».[3]

إلا أن يكون المقصود هو الطهارة من العهر، أو من الأرجاس والرذائل، وهو لا يلازم الكفر.

---

(١) ذكر طائفة منها العلامة المجلسي رحمه الله في البحار: ج١٥، والسيوطي في رسائله المشار إليها، فراجع رسالة السبل الجلية: ص ١٠ فما بعدها، وراجع أيضاً: السيرة الحلبية، وغير ذلك وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٣٤ فما بعدها.

(٢) مجمع البيان ج٤ ص ٣٢٢، والبحار ج١٥ ص ١١٧ و١١٨ وتفسير الرازي ج٢٤ ص ١٧٤ والسيرة الحلبية ج١ ص ٣٠، والدر المنثور ج٥ ص ٩٨، وسيرة دحلان ج١ ص ١٨ وتصحيح الاعتقاد ص ٦٧ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٣٤ وتفسير البحر المحيط ج٧ ص ٤٧.

(٣) راجع: المصادر المتقدمة.

٢ ـ واستدلوا على ذلك ايضاً بقوله تعالى: «الذي يـراك حين تقوم، وتقلبك في الساجـدين»[1]. لما روي عن ابن عبـاس، وأبي جعفر، وأبي عبد الله «عليهما السلام»: انه «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يـزل ينقل من صلب نبي إلى نبي.

ويمكن المناقشة في ذلك أيضاً: بأن الآية تقول: إنه تعالى يراه حال عبـادته وسجـوده؛ فهو «صلى الله عليـه وآله وسلم» في جملة السـاجـدين الموجودين فعلاً، وغيرهم.

لا أنه يراه وهو يتقلب في أصلاب الانبياء.

ولـو ثبتت الروايـة، فيمكن القول بـانها لا تـدل على استغراق ذلـك لجميع آبائه؛ فلعله يرى تقلبه في أصلاب الانبياء من آبائه، كما يرى تقلبه في أصلاب غير الانبياء.

هذا، عدا عن أن من الصعب جداً اثبات نبوة جميع آبائه «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى آدم «عليه السلام».

وأما أدلة غير الامامية فقد استقصـاها السيـوطي في رسائله المشـار اليها، ولكن استعراضهـا والاستقصاء فيهـا نقضاً وابـراماً يحتـاج إلى وقت طويل، وتأليف مستقل.

٣ ـ ويمكن أن يستدل على ايمان أبائه «صلى الله عليـه وآله وسلم» إلى إبراهيم بقوله تعالى، حكاية لقول إبراهيم وإسمـاعيل: «واجعلنـا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك»[2]، مع قوله تعالى:

---

(١) الشعراء ٢١٨/٢١٩ وراجع تاريخ الخميس ج١ ص ٢٣٤ و٢٣٥ وتفسير البحر المحيط ج٧ ص ٤٧.

(٢) البقرة: ١٢٨.

«وجعلها كلمة باقية في عقبه[1]»، أي في عقب ابراهيم، فيدل على أنـه لا بد أن تبقى كلمـة الله في ذرية ابـراهيم، ولا يـزال نـاس منهم على الفطرة يعبدون الله تعالى حتى تقوم الساعة. ولعل ذلك استجابة منه تعالى لـدعاء ابـراهيم الذي قـال: «واجنبني وبني أن نعبد الاصنـام[2]» وقـولـه: «رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي[3]».

وواضح أنه: لو أنه تعالى قد استجاب لابراهيم في جميع ذريته لمـا كـان ابو لهب من أعـظم المشركين، واشـدهـم على رسـول الله «صلى الله عليه وآله وسلم». وهـذا ما يفسـر الاتيان بمن التبعيضيـة في قولـه: «ومن ذريتي».

استغفار ابراهيم (ع) لابيه:

وقد اعترض على القائلين بايمـان جميع آبـائه «صلى الله عليـه وآله وسلم» إلى آدم، بأن القرآن الكريم ينص على كفر آزر أبي ابـراهيم، قال تعالى: «وما كان استغفار ابـراهيم لابيه إلا عن مـوعدة وعـدها إيـاه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، إن ابراهيم لأواه حليم»[4].

وأجابوا:

أولاً: إن إبن حجر يدعي اجمـاع المؤرخين على أن آزر لم يكن أبا لابراهيم، وإنما كان عمه، أو جده لأمه، على اختلاف النقل[5] وإسم أبيه

---

(١) الزخرف: ٢٨.

(٢) ابراهيم: ٣٥.

(٣) ابراهيم: ٤.

(٤) التوبة: ١١٤.

(٥) راجع: السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٣٧، وراجع: الدر المنثور للعاملي: ج١ ص ١٦٠.

الحقيقي: تارخ[١]، وانما اطلق عليه لفظ الاب توسعاً، وتجوزاً وهذا كقوله تعالى: «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت؛ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا: نعبد إلهك واله آبائك[٢]». ثم عد فيهم اسماعيل، وليس من آبائه؛ ولكنه عمه.

وقد ذكر بعض العلماء: أن اسم آزر لم يذكر في القرآن إلا مرة واحدة في أول الأمر، ثم لم يتكرر إسمه في غير ذلك المورد، تنبيهاً على أن المراد بالأب: آزر.

وثانياً: إن استغفار ابراهيم لابيه قد كان في اول عهده وفي شبابه، مع أننا نجد أن إبراهيم حين شيخوخته، وبعد أن رزق أولاداً، وبلغ من الكبر عتياً يستغفر لوالديه، قال تعالى حكاية عنه: **﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين، يوم يقوم الحساب﴾**[٣] قال هذا بعد أن وهب الله له على الكبر اسماعيل واسحاق حسب نص الآيات الشريفة.[٤] مع أن الآية تفيد: أن الإستغفار الأول قد تبعه التبرّؤ مباشرة.

ولكن من الواضح: أن بين الوالد والأب فرقاً، فإن الأب يطلق على المربي وعلى العم والجد، أما «الوالد» فإنما يخص الوالد بلا واسطة. فالإستغفار الثاني إنما كان للوالد، أما الأول فكان للأب.

وثالثاً: إنه يمكن أن يكون ذلك الذي استغفر له، وتبرأ منه، قد عاد إلى الايمان، فَعاد هو إلى الاستغفار له.

هذا، ولكن بعض الأعلام[٥] يرى: أن اجماع المؤرخين على أن أبا

---

(١) الدر المنثور للعاملي: ج١ ص ١٦٠ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٣٥ و٢٣٦.

(٢) البقرة ١٣٣.

(٣) ابراهيم ٤١.

(٤) راجع: تفسير الميزان ج١٢ ص ٧٨/٧٩.

(٥) هو العلامة المحقق السيد مهدي الروحاني.

ابــراهيم ليس آزر منشؤه التــوراة، التي تــذكــر ان اسم أبـي ابــراهيـم هو: «تارخ». ثم ذكر ما استظهرناه نحن أيضاً من أن من الممكن أن يكون نفس والـد إبراهيم قـد كـان مشـركـاً يجـادلـه في الايمـان بـالله، فـوعـده بالاستغفار له، ووفى بوعـده، ثم عاد فـآمن بعد ذلـك فكان يـدعو لـه بعد ذلك أيضاً حتى في أواخر حياته هو كما اسلفنا.

وهــذا الإحتمــال وإن كــان وارداً حيث لا ملْزِم لحمــل الأب في القرآن، والوالد على المجاز.

إلا أنه ينافي الإجماع والأخبار؛ فلا محيص عن الإلتزام بمـا ذكرنـاه آنفاً من أن المراد بـالأب هو العم والمـربي، لا الوالـد على الحقيقة. مـع عدم قبولنا منه قوله: إن استعمال الاب في العم المربي، يكون مجازاً.

ان أبي و أباك في النار:

روى مسلم وغيـره: أن رجـلاً سـأل النبي «صلى الله عليـه وآلـه وسلم»: أين أبي؟ فقال: في النار. فلما قفا دعاه، وقال لـه: إن أبي وأباك في النار[1].

ونقول: إن هذا لا يصح.

أولا: لما تقدم. ممـا يدل على إيمـان جميع آبـائه «صلى الله عليـه وآله وسلم».

وثانياً: لقد روى هذه الرواية حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس.

---

(١) راجع بالإضافة إلى صحيح مسلم: صفة الصفوة ج١ ص ١٧٢ عن مسلم والإصابة ج١ ص ٣٣٧ عن ابن خزيمة، وسنن أبي داود المطبوع مع عون المعبود ج١٢ ص ٤٩٤، والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٠ عن مسلم ومسالك الحنفا ص ٥٤ عن مسلم وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٣٢.

مع أننا نجد: أن معمراً قد روى نفس هذا الحديث عن ثابت عن أنس، ولكن بنحو آخر لا يدل على كفر أبيه «صلى الله عليه وآله وسلم»، فقد قال له «صلى الله عليه وآله وسلم»: «حيثما ـ أو إذا ـ مررت بقبر كافر فبشره بالنار[1]».

وقد نص علماء الجرح والتعديل ـ من اصحاب هؤلاء الرواة ـ على أن معمراً أثبت من حماد. وأن الناس قد تكلموا في حفظ حماد، ووقع في احاديثه مناكير، دسّها ربيعة في كتبه، وكان حماد لا يحفظ، فحدث بها، فوهم فيها[2].

وثالثاً: لقد رويت هذه الرواية بسند صحيح على شرط الشيخين عن سعد بن ابي وقاص، وجاء فيها: حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار[3].

وكذا أيضاً روي عن الزهري، بسند صحيح أيضاً[4]

ورابعاً: كيف يكون أبواه «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأبو طالب، وعبد المطلب، وغيرهم، في النار حسب اصرار هؤلاء، ثم يكون ورقة بن نوفل، الذي أدرك البعثة، ولم يسلم، في الجنة عليه ثياب السندس[5].

وكذلك فان زيد بن عمرو بن نفيل ـ ابن عم عمر بن الخطاب ـ في الجنة يسحب ذيولاً، مع أنه مثل ورقة الآنف الذكر[6]. كما أن أمية بن أبي

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ٥٠/٥١، مسالك الحنفا ص ٥٤/٥٥.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ٥١، ومقدمة فتح الباري ص ٣٩٧، وتهذيب التهذيب ج٣ ص ١٢ ـ ١٥. ومسالك الحنفا ٥٥.

(٣) السيرة الحلبية ج١ ص ٥١ عن البزار، والطبراني، والبيهقي، والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٠. عن البيهقي، ومسالك الحنفا ص ٥٥ عنهم وص ٥٦ عن ابن ماجة.

(٤) مصنف الحافظ عبد الرزاق ج١٠ ص ٤٥٤.

(٥) سيأتي بعض الحديث عن ورقة حين الكلام على روايات بدء الوحي فانتظر.

(٦) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٣٩ و١٦٨ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٣٧ ـ ٢٤١.

الصلت كاد يسلم في شعره، وهكذا؟!.[١]

وكيف تطرح كل تلك الاحاديث والتواريخ المتضافرة، المتواترة الدالّة على ايمان أولئك، ويتشبث لايمان هؤلاء ببيت شعر، أو بكلمة عابرة، لم يتبعها إلا التصميم على النهج الأول؟!.

نعم، وكيف لا يكون لهؤلاء نجاة ويكونون في النار[٢]، ثم يدخل المشركون الذين عاشوا في زمن الفترة الجنة؟! فقد ذكر الحلبي ودحلان وغيرهما: أن أهل الفترة لا عذاب عليهم إلا على قول ضعيف، مبني على وجوب الايمان والتوحيد بالعقل، والذي عليه اكثر أهل السنّة والجماعة: أنه لايجب ذلك إلا بارسال الرسل.

واطبق الأشاعرة في الاصول، والشافعية في الفقه على أن من مات ولم تبلغه الدعوة مات ناجياً، ويدخل الجنة؛ فعليه أهل الفترة من العرب لا تعذيب عليهم، وإن غيّروا، أو بدّلوا، أو عبدوا الأصنام، والاحاديث الواردة بتعذيب من ذكر مؤوّلة[٣].

وبهذا، وبالاحاديث المتواترة يرد ما زعموه من أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد مُنِع من الاستغفار لأمه رضوان الله تعالى عليها، وإن كنا نحن نعتقد أن اهل الفترة يعذبون إذا قامت عليهم الحجة العقلية أو النقلية إلا القاصرين منهم؛ فان التوحيد يثبت بالعقل لا بإرسال الرسل، وإلا، لم يمكن اثبات شيء على الاطلاق، لا التوحيد، ولا النبوة، ولا الدين من الأساس.

---

(١) الأغاني ط ساسي ج٣ ص ١٩٠.

(٢) عون المعبود ج١٢ ص ٤٩٤، والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٨١ عن دلائل النبوة للبيهقي.

(٣) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٣٢/٣٣، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٠٦/١٠٧، وهذا هو رأى ابن حجر الهيتمي، والمناوي، والسيوطي.

غريبة:

ومن غريب الأمر هنا: أن نجد البعض يوجه رواية: إن أبي وأباك في النار، بأن المقصود هو عمه أبو طالب؛ لأن العرب تسمي العم أباً، وقد كان «صلى الله عليه وآله وسلم» ينسب بالبنوة إلى ابي طالب[١].

ولا ندري لماذا ترك عمه أبا لهب لعنه الله تعالى. فان كفره مسلم ومقطوع به، وتمسك بالمُدافع عنه، والمُناصح له، والباذل مهجته في سبيل نبيه ودينه ـ وسوف يأتي إن شاء الله أن ايمان أبي طالب هو المسلم والمقطوع به. بل هو كالنار على المنار، وكالشمس في رابعة النهار.

ويكفي أن نذكر أن العظيم آبادي قد قال هنا: وهذا أيضاً كلام ضعيف باطل[٢].

ملاحظة:

ويلاحظ هنا أن في عبارة الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» المتقدمة في حديث: «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار» تورية لطيفة؛ حيث إن عبارته هذه قد خففت من تأثر السائل. وهي في نفس الوقت صادقة المضمون، ولا تدل على كفر أبيه «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ إذ أن من الطبيعي أن الكافر مبشر بالنار. وأما أن أباه «صلى الله عليه وآله وسلم» كافر أو لا؛ فذلك مسكوت عنه.

والغريب هنا: أنه قد روي أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد قال ذلك عن أمه رحمها الله، فقد قال لرجلين: أمي وأمكما في النار.

---

(١) عون المعبود ج١٢ ص ٤٩٤/٤٩٥ عن السندي، والسيرة الحلبية ج١ ص ٥١، ومسالك الحنفا ص ٥٨.

(٢) عون المعبود ج١٢ ص ٤٩٥.

ونحن لا نزيد على أن نذكر هنا أن الذهبي قد حلف على عدم صحة هذا الحديث. يعني حديث كون أمه وأمهما في النار[1].

وأخيراً: فإننا نكاد نصدق مقولة: أن السبب في تكفير آباء رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» وأعمامه هو مشاركة علي «عليه السلام» له فيهم، أو أنهم يريدون أن لا يكون آباء الخلفاء من بني أمية ومن غيرهم، وآباء رجالات الحكم وأعوانه كفاراً، ويكون آباء النبي وأهل بيت النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مؤمنين، فلا بد من سلب هذه الفضيلة عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» ليستوي هو وغيره في هذا الأمر.

البحث الثاني

بماذا كان يدين النبي (ص) قبل البعثة:

إن ايمان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وتوحيده قبل بعثته يعتبر من المسلمات، ولكن يبقى: أنهم قد اختلفوا في أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» هل كان متعبداً بشرع أحدٍ من الانبياء قبله او لا. فهل هو متعبد بشرع نوح، أو ابراهيم، أو عيسى، أو بما ثبت أنه شرع، أو لم يكن متعبداً بشرع أحد؟ ذهب إلى كلّ فريق[2].

وتوقف عبد الجبار، والغزالي، والسيد المرتضى.

وذهب المجلسي إلى أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» حسبما صرحت به الروايات: كان قبل البعثة، مذ اكمل الله عقله في بدو سنه

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ١٠٦ ومسالك الحنفا ص ٥٢.

(٢) راجع: تاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٤.

نبياً، مؤيداً بروح القدس[١]، يكلمه الملك، ويسمع الصوت، ويرى في المنام، ثم بعد أربعين سنة صار رسولاً، وكلمه الملك معاينة، ونزل عليه القرآن، وأمر بالتبليغ. وقال المجلسي: إن ذلك ظهر له من الآثار المعتبرة، والاخبار المستفيضة[٢].

وقد استدلوا على نبوته «صلى الله عليه وآله وسلم» منذ صغره بأن الله تعالى قد قال حكاية عن عيسى: **﴿إني عبدالله آتاني الكتاب، وجعلني نبيا، وجعلني مباركاً اينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا﴾**[٣].

ويقول تعالى عن يحيى «عليه السلام»: **﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾**[٤] فإذا أضفنا إلى ذلك: أنه قد ورد في أخبار كثيرة بعضها صحيح، كما في رواية يزيد الكناسي في الكافي: إن الله لم يعط نبيا فضيلة، ولا كرامة، ولا معجزة، إلا أعطاها نبينا الاكرم «صلى الله عليه وآله وسلم».

فان النتيجة تكون: هي أن الله تعالى قد اعطى نبينا محمداً «صلى الله عليه وآله وسلم» الحكم والنبوة منذ صغره[٥]؛ ثم أرسله للناس كافة، حينما بلغ الاربعين من عمره... وقد أيد المجلسي هذا الدليل بوجوه كثيرة[٦].

---

(١) وكان عيسى أيضاً مؤيداً بروح القدس؛ قال تعالى: «وأيدناه بروح القدس» ولو لم يكن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم مؤيداً بروح القدس، لكان يحيى وعيسى أفضل منه صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) البحار ج١٨ ص ٢٧٧.

(٣) مريم: ٣٠.

(٤) مريم: ١٢.

(٥) راجع: البحار ج١٨ ص ٢٧٨/٢٧٩.

(٦) راجع: البحار: ج١٨ ص ٢٧٧ - ٢٨١.

ويمكن المناقشة في ذلك بأن إعطاءه (ص) فضائل الانبياء ومعجزاتهم الواردة في الرواية لا يستلزم ما يراد اثباته هنا؛ فان بعض معجزاتهم لم يكن ثمة حاجة إليها في زمانه «صلى الله عليه وآله وسلم». نعم هي واقعة تحت اختياره «صلى الله عليه وآله وسلم» ولو احتاجها لاستفاد منها جميعاً. وأما الفضائل فقد كان «صلى الله عليه وآله وسلم» هو الجامع لها على النحو الاكمل والاشمل في جميعها، حتى انه إذا كان أيوب قد امتاز على غيره من الانبياء بالصبر، فان صبر نبينا «صلى الله عليه وآله وسلم» كان اكمل من صبر أيوب، وهكذا بالنسبة لسائر الانبياء، وامتيازاتهم في الفضائل، ومكارم الاخلاق.

وأما الكرامات، فان الظاهر هو أن المقصود بها نفس المعجزات، فان الله تعالى قد اكرمه بها.

ومع الغض عن كل ذلك، فانه لابد من ثبوت تلك الأخبار؛ ليمكن الحكم بمضمونها، بعد تسليم دلالتها بشكل قطعي ونهائي.

نعم ثمة روايات كثيرة تلمح وتصرح بنبوته قبل بعثته، أشار إليها المجلسي كما قلنا، وأشار العلامة الأميني أيضاً إلى حديث: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان نبياً وآدم بين الروح والجسد، ورواه عن العديد من المصادر من غير الشيعة[١].

ولكن لا يمكن الحكم بمضمون هذه الروايات إلا بعد التأكد من اسانيدها ودلالتها، وثبوت ذلك بشكل قطعي، حيث إنه يراد إثبات أمر إعتقادي بها، والمطلوب في الإعتقادات هو القطع، ولا يكفي ما دونه.

وبعد كل ما تقدم، فان ما نستطيع نحن الجزم به، هو انه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان مؤمناً موحداً، يعبد الله، ويلتزم بما ثبت له أنه شرع

---

(١) راجع: الغدير: ج٩ ص ٢٨٧.

الله تعالى مما هو من دين الحنيفية شريعة إبراهيم «عليه السلام»، وبما يؤدي إليه عقله الفطري السليم، وأنه كان مؤيداً ومسدداً، وأنه كان أفضل الخلق واكملهم خلقاً، وخُلقاً وعقلاً.

وكان الملك يعلمه، ويدله على محاسن الأخلاق.

كما أننا نجدهم ينقلون عنه «صلى الله عليه وآله وسلم»: انه كان يلتزم بأمور لا تعرف إلا من قبل الشرع وكان لا يأكل الميتة، و يلتزم بالتسمية والتحميد، إلى غير ذلك مما يجده المتتبع لسيرته صلوات الله عليه.

ملّة ابيكم ابراهيم:

بل إننا نقول: إن هناك آيات ودلائل تشير إلى أن إبراهيم الخليل «عليه السلام» ونبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم»، هما اللذان كان لديهما شريعة عالمية، وقد بعثا إلى الناس كافة.

أما موسى وعيسى «عليهما السلام» فإنما بعثا إلى بني اسرائيل.

وقد حرصت الآيات القرآنية العديدة على ربط هذه الأمة بإبراهيم «عليه السلام» فلاحظ قوله تعالى: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً﴾[3].

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) النساء: ١٢٥. (٣) آل عمران: ٩٥.

وقال جل وعلا: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبي، والذين آمنوا﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا. قل: بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[٢].

ثم نجد القرآن يصرح أيضاً أن النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» شخصياً كان مأموراً أيضاً باتباع ملة ابراهيم «عليه السلام»، فقد قال سبحانه:

﴿ثم أوحينا إليك: أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين﴾[٣].

وقال في موضع آخر: ﴿قل: إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، دينا قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[٤].

وهذا، وإن كان ظاهره: أنه «صلى الله عليه وآله» قد أمر بذلك بعد البعثة وبعد نزول الوحي عليه، لكنه يثبت أيضاً: أنه لا مانع من تعبده (ص) قبل بعثته بما ثبت له أنه من دين الحنيفية، ومن شرع إبراهيم «عليه السلام»، وليس في ذلك أية غضاضة، ولا يلزم من ذلك أن يكون نبي الله إبراهيم أفضل من نبينا «صلى الله عليه وآله وسلم»، فإن التفاضل إنما هو في ما هو أبعد من ذلك.

هذا كله، لو لم نقتنع بالادلة الدالة على نبوته (ص) من صغره «صلى الله عليه وآله وسلم».

---

(١) آل عمران: ٦٨.

(٢) البقرة: ١٣٥.

(٣) النحل: ١٢٣.

(٤) الأنعام: ١٦١.

ووجدك ضالاً فهدى:

وبعد ما تقدم نقول: إن قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾[2] لا يدل على وجود ضلالة فعلية ولا على وجود جهل فعلي قبل النبوة.

بل غاية ما يدل عليه هو أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لولا هداية الله له لكان ضالاً ولولا تعليم الله له لكان جاهلاً. أي لو أن الله أوكله إلى نفسه، فإنه بما له من قدرات ذاتية وبغض النظر عن الالطاف الإلهية، والعنايات الربانية ضال قطعاً، وجاهل بلا ريب. فهو من قبيل قولك: ما أنا في نفسي بفوق أن أخطىء لولا لطف الله وعصمته وتوفيقه، لكن بعد أن كان لطف الله حاصلاً من أول الأمر فإن العصمة تكون حاصلة بالضرورة من أول الأمر أيضاً.

أولوا العزم:

وبعد، فقد نجد في قوله تعالى حكاية عن آدم «عليه السلام»: ﴿لم نجد له عزماً﴾[3]. وقوله: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾[4].

وغير ذلك من شواهد ودلائل ما يشجعنا على القول: بأن المراد من إطلاق هذه الصفة على بعض الأنبياء هو التأكيد على رسوخ وعمق درجة

---

(١) الشورى: ٥٢.

(٢) الضحى: ٧.

(٣) سورة طه: ١١٥.

(٤) سورة الأحقاف: ٣٥.

العصمة فيهم، وقدرتهم الكبيرة على التحمل في مواجهة أعظم التحديات مع الطواغيت والجبارين، وتحمل المسؤوليات الجسام، والمشاق العظام في نطاق الدعوة إلى الله سبحانه. وقد يكون بعض أولي العزم، حتى مثل موسى وعيسى «عليهما السلام» لم يبعث للناس كافة، وإنما لخصوص بني إسرائيل، الذين ربما يحتاجون إلى بعض التشريعات الإستثنائية الخاصة بهم، مع كون العمل في المسار العام إنما هو شريعة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وهذا بحث يحتاج إلى توفر تام، وجهد مستقل، نأمل ان يوفقنا الله لهما في فرصة أخرى إن شاء الله تعالى.

من الأساطير:

وبعد كل ما تقدم نعلم: أن كل ما يذكر عنه «صلى الله عليه وآله وسلم» من أمور تتنافى مع التسديد، ومع شرع الله تعالى، لا أساس له من الصحة. ونذكر هنا على سبيل المثال:

ما رواه البخاري وغيره، من أنه قد قدِّم لزيد بن عمرو بن نفيل سفرة فيها شاة ذبحت لغير الله تعالى. (وعند البخاري إنها قدمت للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»)؛ فأبى زيد أن يأكل منها، وقال: أنا لا آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه.

وفي رواية أحمد: إن زيداً مرّ على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وهو يأكل مع سفيان بن الحرث من سفرة لهما، فدعواه إلى الطعام فرفض، وقال الخ.

قال: فما رؤي النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من يومه ذاك يأكل مما ذبح على النصب حتى بعث.

ويذكرون أيضاً: ان زيد بن عمرو بن نفيل كان يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الخ . . .[١].

وعليه، فزيد بن عمرو بن نفيل كان أعقل من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» واعرف منه ـ والعياذ بالله ـ لأنه أدرك وعرف قبح اكل ما ذبح على النصب، ولم يذكر اسم الله عليه، أو بلغه ذلك. ولكن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يستطع أن يدرك ذلك، ولا كان على قرب من مصادر المعرفة، فكان يأكل منه؛ مع أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» اعقل الكل وفوق الكل، ومع أنه قد تربّى في حجر عبد المطلب، الذي ترك الاصنام، وابتعد عنها حسبما تقدم. ثم في حجر عمه أبي طالب، . وبيتهم كان أرفع بيت في العرب. وهم أعرف الناس بتعاليم الحنيفية.

نعم، لقد أدرك زيد ذلك برايه، حسبما يرجحه العسقلاني[٢]، ولم يستطع النبي الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» أن يدركه. لقد كانت النبوّة بزيد قريب عمر بن الخطاب[٣] أجدر منها بمحمد، نعوذ بالله من الزلل في القول والعمل.

واحتمال: أن يكون زيد قد أخذ ذلك عن بعض النصارى أو اليهود، كما احتمله البعض.

يحتاج إلى اثبات: أن النصارى كانوا يحرمون اكل ما ذبح على

---

(١) راجع: صحيح البخاري ط مشكول المصرية ج٥ ص ٥٠ وج٧ ص ١١٨ باب ما ذبح على النصب والأصنام، والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٣، ومسند أحمد ج١ ص ١٨٩ وراجع فتح الباري ج٧ ص ١٠٨ و١٠٩ والروض الأنف ج١ ص ٢٥٦ والبداية والنهاية ج٢ ص ٢٣٨ و٢٣٩ و٢٤٠ وراجع ص ٢٣٧.

(٢) فتح الباري ج٧ ص ١٠٩.

(٣) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٣٧.

النصب، أو مالم يذكر اسم الله عليه.

أما اليهود فما كانوا يهتمون بدخول غيرهم في دينهم. وإذا كان ذلك شائعاً عنهم؛ فلماذا لم يعرف به غير زيد.

على أن هناك نص يقول: إن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: «كان لم يأكل مما ذبح على النصب»[1].

ومهما يكن من أمر، فقد قال السهيلي: «كيف وفق الله زيداً الى ترك ما ذبح على النصب، وما لم يذكر اسم الله عليه، ورسوله «صلى الله عليه وآله وسلم» كان أولى بهذه الفضيلة في الجاهلية؛ لما ثبت من عصمة الله تعالى له».

ثم أجاب عن ذلك: بأنه ليس في الرواية: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد اكل من السفرة، وبأن شرع ابراهيم إنما جاء بتحريم الميتة، لا بتحريم ما ذبح لغير الله تعالى. فزيد امتنع عن اكل ما ذبح لغير الله برأي رآه لا بشرع متقدم[2].

ولكنه جواب بارد حقاً،

فان إدراك زيد لهذا الأمر الذي وافق فيه نظر الشرع، وعدم إدراكه هو «صلى الله عليه وآله وسلم» له مما لا يمكن قبوله، أو الالتزام به.

هذا.. ولماذا يسدد الله تعالى نبيه حينما كشف عن عورته حين بناء البيت، ويمنعه عن ذلك ـ حسبما يدعون ـ، ثم تُبغض اليه الاصنام، والشعر، ولا يسدده الله، ويحفظه من اكل ما ذبح لغير الله تعالى؟! الذي

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٥٤.

(٢) الروض الأنف ج١ ص ٢٥٦، وراجع: السيرة الحلبية ج١ ص ١٢٣ عنه، وفتح الباري ج٧ ص ١٠٩.

يدرك بعض الناس أنه ليس محبوباً لله تعالى؟!

استلام الاصنام:

ومن أساطيرهم أيضاً ما ذكروه من أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يستلم الأصنام بل لقد ذكر البعض: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قال: «أهديت للعزى شاة عفراء، وأنا على دين قومي»[١].

مع أنهم يذكرون: ان زيداً المتقدم وعمر بن الحويرث، وابا قيس بن هرمة، وقس بن ساعدة، وأسعد بن كريب، وعبيد الله بن جحش، ورباب بن البراء وغيرهم، لم يسجدوا لصنم قط، وحرّموا عبادة الاوثان.

فلماذا أدركوا هم ذلك دونه؟!.

وايضاً فقد سئل «صلى الله عليه وآله وسلم»: هل عبدت وثنا قط؟ قال: لا.

وقال: ابن حجر: إن الناس قد انكروا حديث استلامه الاصنام. وقال أحمد بن حنبل ـ على ما في الشفاء ـ: إنه حديث موضوع[٢].

وعلى كل حال؛ فان هناك تفاهات كثيرة، وأكاذيب عديدة عليه «صلى الله عليه وآله وسلم»، سواء بالنسبة إلى الفترة التي سبقت البعثة، أو التي تلتها. وسيأتي بعض من ذلك، ولكن لابد من الاعتراف: بأن استقصاءها متعسر بل متعذر؛ ولذا فلابد من الاقتصار على ما يسعه المجال، ثم الانصراف إلى ما هو أهم، وأجدر، وأولى.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٨٦.

(٢) راجع السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٥٠/٥١ والسيرة الحلبية ج١ ص ١٢٥ و٢٧٠.

البحث الثالث:

شروط النهضة:

هناك عدة أمور تعتبر ضرورية وحتمية في بناء الحضارة، وحصول النهضة لأي شعب كان، وأية أمة كانت. ونود أن نشير إلى بعض مقومات وعناصر ذلك عموماً. ثم.. وبمقارنة بسيطة وموجزة، نستطيع أن نتعرف على جانب من عظمة الاسلام وسموّه، وأصالته.

ومن اجل تسهيل تصور ما نريد عرضه على القارىء، نقوم بمقارنة محدودة بين واقع وظروف عرب شمال الجزيرة العربية، وهم اهل الحجاز، وبين واقع وظروف عرب جنوبها، وهم أهل اليمن.

فنقول:

ألف: لقد عاش اليمنيون في منطقة غنية وثرية، وتستطيع، اذا ما اشتغل أهلها بزراعتها: أن توفر لهم لقمة العيش. وهي بالاضافة إلى ذلك أرض جبلية، صعبة المسالك، فهي إذن تستطيع في كثير من الأحيان أن توفر لهم حماية طبيعية، وقدرة على مقاومة الأعداء.

وإذا كان اليمنيون يشتغلون بزراعة أرضهم، ويستفيدون منها، ويعتبرونها المصدر الأول والاساس لحياتهم، واستمرار وجودهم؛ فمن الطبيعي أن يتولد فيهم لذلك شعور مبهم بمحبة هذه الارض، والتمسك بها، والحنين إليها.

وهذا بالطبع، هو المهم عادة في حب الناس لأوطانهم، وحنينهم إليها، حتى إنهم قد يبذلون كل غال ونفيس حتى دماءهم في سبيل الدفاع

عنها، بل وحتى عن شبر واحدٍ منها؛ فمحبة الوطن تنشأ غالباً من محبة الارض، ومحبة الارض تنشأ (عموماً) من الشعور بأنها تعطيه كل مقومات الحياة، وبأنها تحفظ له استمرار بقائه ووجوده، بالشكل المرضي له، والمقبول عنده.

ب: وكان في اليمن أيضاً حكومة مركزية مهيمنة تفرض النظام والقانون، وتهتم باشاعة الطمأنينة، والأمن والسلام.

وإذا كان الانسان يشعر بالامن، ويعيش في ظل القانون، ولا يتخوف من أي عدو يتربص به الغوائل، فانه يجد الفرصة للتفكير في تغيير الوضع الحياتي الذي يعيشه، إلى وضع أفضل واكمل.

ج: ثم تتاح الفرصة لآمال وتطلعات هذا الانسان للتعبير عن نفسها، وفرض وجودها، فتدفعه إلى بذل المحاولة. والتصرف فيما تناله قدراته في توجيهه في هذا السبيل.

د: ثم يأتي دور الأهم والأقوى تأثيراً في النهضة، ألا وهو النظام الأكمل والاشمل والأصلح، الذي يستطيع أن يبني الانسان من الداخل، ويحافظ عليه من الخارج، ويزيل من طريقه كل العقبات، التي يمكن أن تعترض سبيل تقدمه؛ ولتنمو، وتتكامل في ظل ذلك النظام ـ من ثم ـ ملكات هذا الانسان، وخصائصه، ولتجد طاقاته وامكاناته الفرصة للتأثير في عملية التغيير للحاضر الذي يعيشه، والتخطيط الصحيح والسليم للمستقبل الذي يقدم عليه.

فاذا توفرت كل تلك العناصر لاية أمة، فانها ولا شك سوف تكون قادرة على أن تبني حضارة، وتصنع لنفسها مستقبلاً مغرياً وزاهراً ومجيدا.

وقد كانت كل تلك العناصر متوفرة في منطقة اليمن، باستثناء العنصر الأخير منها. وكان فقدانها له بالذات هو السبب في أنها لم تستطع أن تفيد شيئاً من تلك القدرات والامكانات التي توفرت لها، ولا يحدثنا

التاريخ عن شيء ذي بال، تميزت به اليمن في تاريخها القديم، سواء على الصعيد الفكري، أو الحضاري، أو غير ذلك، ولا كان فيها ما يعبر عن نظرة واعية، أو عقلية متطورة تتلائم مع حجم امكاناتها تلك.

كما أن الديانة اليهودية المحرفة، التي سيطرت عليها حقبة من الزمن، لم تستطع أن تقدم لها شيئاً يذكر في مجال النهوض باهلها، والخروج بهم من ظلمات جهلهم، والتخفيف من شقائهم وآلامهم، تماماً كما لم تستطع المسيحية المحرفة في الرومان، والزرادشتية في الفرس: أن تؤثر تأثيراً يذكر في ذلك.

أما في الحجاز، فقد كانت كل تلك العناصر مفقودة؛ ولكن عندما وجد العنصر الاخير منها ـ فقط ـ استطاعت هذه الامة ـ وذلك هو الاعجاز حقاً ـ أن تنتقل من أمة متوحشة بدائية، تتصف بكل صفات الذل والمهانة، إلى أُمة لا تدانيها، ولن تدانيها أية أمة أخرى على الاطلاق.

فعرب الحجاز لم يكونوا في الاكثر أهل زراعة، لان أرضهم لم تكن صالحة لذلك؛ بسبب قلة المياه فيها، حيث لم يكن فيها حتى نهر واحد بالمعنىٰ الصحيح للكلمة[1]. كما أن الامطار تقل فيها بشكل ملحوظ. وكل ما كان هناك هو بعض الينابيع، التي كانت تظهر في الشتاء، وتجف في الصيف، فيرحلون عنها بحثاً عن غيرها. هذا عدا عن أن الارض نفسها كان فيها القليل مما يصلح للزراعة.

إذن، فلا شيء يشد العربي إلى هذه الارض، أو يربطه بها، ويجعله يحبها، ويتفانى في سبيلها. بل كان مصدر حياتهم ورزقهم هو: السيف، والماشية، والابل بصورة عامة، ولهذا نرى أن اكثر ما يعزّ عليهم، وله مكانة في نفوسهم هو هذه الأمور بالذات؛ فنرى الشاعر العربي يتغنى بالجمل، والسيف، والفرس، ويتغزل بالرياح الطيبة، التي

(١) راجع: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج١ ص ١٥٧ فما بعدها.

تخفف عنه بعض ما يعانيه من آلام؛ نتيجة حرّ منطقته، ثم هو يناجي القمر والنجوم كثيراً أيضاً.

وإذا ما رأيناه يبكي ـ أحياناً ـ الديار والاطلال، فليس ذلك إلا لأنها كانت في وقت ما مصدر أنس له، أو لأنه هو نفسه كان حضرياً.

ولأن العربي هذا قد اتخذ الغزو والسلب وسيلة من وسائل العيش؛ فاننا نراه يهتم بالتغني بمواقفه هذه، ويفتخر باستمرار بشنّه الغارات فرساناً وركباناً.

ومن الجهة الاخرى، فانه دائماً يتوقع أن يُغزى، وأن تُشنّ عليه الغارات؛ ولا يشعر بوجود سلطة تستطيع أن تحميه، فهو في خوف دائم، ورعب مستمر.

وإذا كان الامن غير متوفر له، فكيف يمكن أن تتوفر له الفرصة للتفكير في حياته، ومحاولة الخروج من واقعه، وتحسين ظروف عيشه، ثم التخطيط للمستقبل بواقعية، وأناة، ثم العمل بهدوء واطمينان على تنفيذ خططه، وتحقيق آماله؟!

ومن الجهة الثالثة، كيف وأنى يمكن لأماله أن تنمو، ولطموحاته أن تتجسد؟ وهو في كل يوم يفقد أملاً، ويتحمل ألماً.

وخلاصة الامر: إنه لا سلطة مركزية تستطيع أن تفرض هيبتها وهيمنتها بيسر وفعالية، بل إن ذلك قد يتعذر بالنسبة إلى أمة تعيش حياة التنقل والغارة، وتتحول باستمرار من مكان إلى مكان.

وقد كان العرب يتجنّبون الالتحام بالجيوش المنظمة، ؛ لتفوقها عليهم، فاذا تعقبتهم تلك الجيوش هربوا الى البادية، واعتصموا بها. وكذلك يفعلون اذا واجهوا الجيش ووجدوا فيه قوة[1].

---

(١) راجع: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٥ ص ٤١٣ و٤١٤ و٤٢٠.

وإذن.. فهم كانوا يفقدون كل اسباب النهضة والتقدم، ولا يملكون منها حتى الامل بالتغيير، فضلاً عن ارادته، والعمل من أجله. هذا فضلاً عن أن الصفات الذميمة، والعادات السيئة، التي كانت تهيمن عليهم جماعات وأفراداً لم تكن تسمح لهم بأية نهضة، أو أي تقدم نحو الافضل، إن لم تكن تزيد من بلائهم وشقائهم، وتدفعهم خطوة بل خطوات إلى الوراء.

ولكنهم مع ذلك كله، عندما وجدوا الرسالة السماوية الحقة، استطاعت تلك الرسالة، وذلك الرسول ـ وفي فترة وجيزة جداً ـ ان تنقل هذه الامة من حضيض الذل والمهانة إلى أوج العظمة، والعزة والكرامة، وأن تغير فيها كل عاداتها ومفاهيمها، وتخفف، بل وتقضي على كل أسباب شقائها، وآلامها. وذلك هو الاعجاز حقاً.

نعم لقد استطاع الاسلام في فترة لا تتجاوز سنواتها عدد أصابع اليدين أن يحدث انقلاباً حقيقياً وجذرياً في عقلية ومواقف وسلوك تلك الامة، وفي مفاهيمها، وان ينقلها من العدم إلى الوجود، ومن الموت إلى الحياة.

ولو أن المسيحية واليهودية وغيرها من الأديان والمذاهب كان فيها أدنى صلاح، ومع توفر كل الظروف الملائمة لنجاحها في تغيير الاوضاع السيئة آنذاك ـ لعبرت عن نفسها، ولأثبتت وجودها، مع أن المسيحية قد كانت في العرب أيضاً قبل الاسلام، وكذلك اليهودية، ولكنها لم تستطع أن تغير من عقلية العربي، وسلوكه، ومفاهيمه عن الحياة والمستقبل شيئاً، بل بقي يئد البنات، ويشن الغارات، إلى غير ذلك من أفعال وصفات.

بل إنهم ليذكرون أن القبيلة العربية الفلانية التي كانت تدين

وراجع: تاريخ التمدن الإسلامي المجلد الأول، الجزء الأول ص ٧٠ وحياة محمد لهيكل ص ٣٩ ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ج١ ص ٣٣.

بالمسيحية ما كانت تعرف من المسيحية غير شرب الخمر، كما سيأتي.
كما أن اليهود قد عاشوا بينهم، وكان العرب يحترمونهم جداً، ويعتبرونهم وحدهم مصدراً للمعرفة والعلم ـ كما تقدم في الجزء السابق ـ ولكنهم لم يكن لهم في سلوكهم، وعقليتهم، أثر يذكر.

البحث الرابع:

العوامل المساعدة على انتصار الاسلام وانتشاره:

وبعد ذلك الموجز الذي قدمناه لابد أن نشير إلى بعض العوامل والظروف التي ساعدت على انتصار الاسلام وانتشاره، في منطقة لها تلك الصفات والمميزات المشار إليها في البحث السابق.

وبعض تلك العوامل يرجع إلى شخصية الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، وبعضها يرجع إلى الرسالة نفسها، وبعضها يعود إلى أمور أخرى، خارجة عن هذا وذاك. ويمكن أن نلخص ما نريد الاشارة إليه في الامور التالية:

١ ـ منطلق الدعوة: مكة:

أ: إنه يلاحظ أن الاسلام قد انطلق من أقدس بلدٍ لدى الانسان العربي، بل ولدى غيره أيضاً، وهو المكان الذي تهوى إليه ثمار الافئدة من كل مكان. وهو ملتقى لكل العواطف، ومحل آمال الناس، وغاية رجائهم.

ب: يقول البوطي: «البقعة الجغرافية للجزيرة العربية ترشحها للقيام بعبء مثل هذه الدعوة؛ بسبب أنها تقع ـ كما قلنا ـ في نقطة الوسط بين الأمم المختلفة التي من حولها. وهذا مما يجعل اشعاعات الدعوة

الاسلامية تنتشر بين جميع الشعوب والدول المحيطة بها في سهولة ويسر[1]».

وطبيعي: أن هذا الدين لو كان ظهر في بلاد كسرى؛ فان اتباع قيصر لا يتبعونه، وكذلك العكس؛ وذلك بسبب المنافسة القائمة بين الامبراطوريتين والحواجز النفسية الحاكمة والمهيمنة على الأمتين.

جـ: لقد بدأ «صلى الله عليه وآله وسلم» دعوته في مكان بعيد عن نفوذ الدولتين العظيمتين: الرومان، والفرس، وغيرهما من الدول ذات القوة.

إذن، فلا قوة قاهرة تستطيع أن تضرب الضربة الحاسمة، وتقضي على دعوته في مهدها؛ وذلك لأن المحيط الذي بدأ فيه دعوته، والحجاز عموماً، كانت تسيطر عليه الروح القبلية، ويطغى عليه التعصب القبلي. والقوى فيه متكافئة: تقريباً، وكانت القبائل المتعددة كثيرة ـ فبطون قريش وحدها كانت عشرة أو تزيد ـ يرقب بعضها بعضاً، ويخشى بعضها بأس بعض.

هذا كله، عدا عن أنها كانت تعرف: أنها إذا أرادت أن تنتهك حرمة الحرم، ويحارب بعضها بعضاً؛ فان مكانتها واحترامها ـ وبالتالي مصالحها الحيوية، سوف تتعرض لدى سائر العرب لنكسة قاسية، إن لم تكن قاضية.

٢ ـ خصائص شخصية الرسول (ص):

أ: لقد كان صاحب هذه الدعوة: محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» من قريش، أعظم قبائل العرب خطراً، وقوة، ونفوذاً، والتي كان

---

(١) فقه السيرة ص ٣٠.

ينظر إليها من كل أحد بعين الاجلال والاكبار، وبالأخص هو من البيت الهاشمي منها، الذي كان يمتاز بالنزاهة والطهر، وله السيادة والزعامة، والسؤدد في مكة، وله الشرف الرفيع الذي لا يدانيه ولا ينازعه فيه أحد.

فمحمد «صلى الله عليه وآله وسلم» إذن ليس بحاجة إلى الشرف والزعامة؛ ليجعل من ادّعاء النبوّة وسيلة للوصول إليها، والحصول عليها. وقد كان واضحاً ـ لو قيست الأمور بالمقاييس العادية ـ أن دعواه تلك لسوف تجرّ عليه الكثير من المتاعب والمصائب، ويكون بذلك قد فرط بكل ما لديه من رصيد إجتماعي في هذا المجال، فإستمراره في دعوته مع وضوح اخطارها له يعتبر امراً غير منطقي، لو كان ما يدعيه لا واقعية له.

كما أن كل أحد يكون على استعداد لقبول الدعوة من بني اسماعيل، الذين هم مهبط الوحي، ومعدن الطهر. وسيأتي إن شاء الله تعالى في مباحث عرض الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» دعوته على القبائل. أنه لما عرض دعوته على بني عامر بن صعصعة، ورفضوا إلا أن يجعل الامر فيهم بعده، ورفض هو، وعادوا إلى بلادهم، وتحدثوا بما كان لشيخ لهم، وضع ذلك الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف؟ هل لذناباها من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده، ما تقوّلها إسماعيلي قط، وإنها لحق؛ فأين رأيكم كان عنكم[١].

ب: تلك الخصائص والمميزات في الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه، والتي اشار إليها جعفر بن أبي طالب بقوله: «بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته وعفافه». حتى لقد لقّب بـ «الصادق الأمين» فقد كان لذلك أثر كبير في ظهور دعوته، وانتصار وانتشار رسالته. وقد كان تحلّيه «صلى الله عليه وآله وسلم» بهذه

---

(١) سيأتي ذلك مع مصادره في الجزء الثاني من هذا الكتاب، في فصل: حتى بيعة العقبة.

مواصفات ضرورياً؛ لأن فقدانها موجب لريبهم، كما قال تعالى: «إذن رتاب المبطلون».

هذا كله، بالاضافة إلى ما قد تمدّحه الله عليه من خلقه العظيم، ال: «وانك لعلى خلق عظيم»[1].

ومع ذلك فاننا نود أن نخص بالذكر هنا ما يلي:

١ ـ اننا نجد البعض يسلم استناداً إلى شهادة الرسول «صلى الله ليه وآله وسلم» نفسه، فقد ورد أن رجلاً دخل على جمل؛ فأناخه في مسجد؛ وعقله، ثُم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي «صلى الله عليه وآله سلم» متكىء بين ظهرانيهم.

فقلنا: هذا الرجل الابيض المتكي.

فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟

فقال له «صلى الله عليه وآله وسلم»: قد أجبتك.

فقال الرجل: إني سائلك فمشدّد عليك في المسألة؛ فلا تجد علي ي نفسك.

فقال: سل عما بدالك.

فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، أالله أرسلك إلى الناس كلهم؟

فقال: اللهم نعم.

فقال: أنشدك بالله، أالله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم الليلة؟.

قال: اللهم نعم.

---

١) سورة القلم/٤ وثمة احتمال آخر في الآية الشريفة راجع مقالاً لنا بعنوان: فلسفة الأخلاق في الإسلام في كتابنا: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام.

قال: انشدك الله. . . إلى أن قال:

فقال الرجل: آمنت بما جئت بـه، وأنا رسـول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة الخ. (١)

فان عدم قـدرة ضمام على تمييـزه «صلى الله عليه وآلـه وسلم» عن أصحابه، لخيردليل على خلق النبي العظيم، وعلى أن الاسلام لا يعتـرف بتلك الفوارق المصطنعة بين الحاكم ورعيتـه، ولا يعتبر أن الحكم يعـطي للحاكم امتيازاً، وإنما هو مسؤولية.

كما أن اسلام ضمـام استناداً إلى شهـادة النبي «صلى الله عليه وآلـه وسلم» نفسه ليعتبر الذروة في الثقة به «صلى الله عليه وآله وسلم»، وتأثيـر هذه الثقة في قبول دعوته، وانتشار رسالته.

٢ ـ هـذا مع مـا كانت تعـرفه قـريش فيه، من وفـور العقل، وحسن التدبير، وأصالة الرأي ـ وقد تقدمت قضية رفع الحجر الاسود إلى موضعـه عنـد بناء البيت، وحلّه «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» المشكلة التي كـانت تواجههم.

ثم ما ظهر له من الآيات والبـراهين، حين ولادته، وبعـدها، وكـونه ابن الذبيحين، الأمر الذي جعل له قدسية خاصة في نفوس الناس.

نعم، إن كل ذلك قد وضع قريشاً، وسائر الناس أمام الأمر الواقـع، فكان كل من يحـاول تكذيبـه «صلى الله عليه وآلـه وسلم» يجد نفسـه أمام صـراع داخلي، ووجـداني؛ لأن وجـدانـه وضميـره كـان يقـول لـه: انت الكاذب الحقيقي، وهو الصادق الامين، وهو محـل الثقة المـطلقة، وانت

---

(١) البخاري هامش فتح الباري ج١ ص ١٣٩ ـ ١٤١، وليراجع فتح الباري نفسه أيضاً. للإطلاع على العديد من المصادر، والبداية والنهاية ج٥ ص ٦٠ عن ابن إسحاق وتاريخ الطبري ج٢ ص ٣٨٤.

مظنة الخيانة، وهو صاحب الرأي والتدبير، والعقل الكبير، وأنت القاصر المقصر في ذلك. وهكذا الحال في سائر صفاته الغرّ، وأخلاقه الفضلى.

٣ ـ وقد عزز ذلك وقواه: أن كل أحد كان يعرف أميته «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأنه لم يتلق العلم والمعرفة من أحد. وها هو لا يستطيع أحد على وجه الارض أن يدعي المعرفة بجزءٍ مما جاء به، فضلاً عن بيئته المتناهية في الجهل والضياع، فلم يكن ثمة مجال للارتياب في صدقه، وصحة دعوته، إلا من مكابر، لا يرى إلا نفسه، ولا يفكر الا فيها.

وحتى لو كان قارئاً، فماذا عساه يجد في كتب السابقين، وهل يمكن ان يقاس ذلك بما جاء به «صلى الله عليه وآله وسلم» من المعارف العالية، والتشريعات المعجزة، بلسان القرآن، الذي يعجز الجن والإنس عن ان يأتوا بسورة من مثله؟!

٤ ـ ثم هو لم يسجد لصنم قط؛ فلا يستطيع أحد أن يعترض عليه، بأنك أنت كنت بالامس تسجد للاصنام، وتعبد الاوثان؛ فلماذا تكفر بها اليوم؟! . فان كانت عبادتها تخالف العقل والفطرة، فأين كان عنك عقلك، ولماذا شذت بك فطرتك؟!.

٥ ـ ثم يأتي بعد ذلك اسلوب دعوته المتطور، على وفق الحكمة، وعلى حسب مقتضيات الأحوال، وفي حدود الاهداف الرسالية، التي لا بد من التقيد بها، وفي حدودها.

٦ ـ ثم هناك اصراره، وصبره، وتحمله لكل المشاق والآلام، ورفضه لكل المساومات، حتى إنهم لو وضعوا الشمس في يمينه، والقمر في شماله على أن يترك هذا الأمر، ما تركه. بل هو لا يقبل منهم أن يسلموا شرط أن يعطيهم فرصةً زمنية للتزود من عبادة أوثانهم، مما أوضح لهم: أن المسألة تتجاوز حدود اختياره، وأن رب السماء هو الذي يرعى

هذا الامر، ويريده منهم.

٣ ـ الحالة الاجتماعية:

ويأتي بعد ذلك كله دور الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك، حيث كان الناس يعيشون حياة الشقاء والبلاء، بكل ما لهذه الكلمة من معنى، كما دلت عليه كلمات الامام أمير المؤمنين «عليه السلام» المتقدمة، في أوائل هذا الجزء عن الحالة الاجتماعية عند العرب ـ وهي لا تختلف كثيراً عما عند غيرهم ـ ونضيف إلى ذلك هنا ما قاله جعفر «رحمه الله» لملك الحبشة، حينما ذهب عمرو بن العاص ليخدعه عنهم:

«كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الاصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الارحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف»[1].

فهذه الحالة الاجتماعية القاسية التي كانت تهيمن على الأمة، وذلك الضياع الذي يسيطر عليها قد هيأ الانسان الجاهلي نفسياً، لقبول الحق، والتفاعل معه، وجعله يتطلع للدعوة التي يجد فيها الحق والخير، ويعرف: أنها تستطيع أن تخفف من شقائه وآلامه، وتنقذه من واقعه المزري والمهين ذاك. وقد عبر جعفر بن أبي طالب «عليه السلام» عن ذلك، لملك الحبشة، بعد عبارته المتقدمة، فقال:

«فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وعفافه فدعانا إلى الله؛ لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والاوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء

---

(١) راجع تاريخ الخميس ج١ ص ٢٩٠ وقاموس الرجال ج٢ ص ٣٧١ والبداية والنهاية ج٣ ص ٧٣ و٧٤.

الامـانة، وصلة الـرحم، وحسن الجوار، والكفـ عن المحـارم والـدمـاء. ونهـانا عن الفـواحش، وقول الـزور، واكل مـال اليتيم، وقذف المحصنـة إلخ[١]».

وقد عبر أهـل المدينـة على لسان أسعـد بن زرارة عن أملهم في أن يحلّ «صلى الله عليه وآله وسلم» بدعوته تلك مشاكلهم المستعصية، حيث يذكر المؤرخون: أن الأوس والخزرج ما كانوا يضعون السـلاح في ليل ولا نهـار[٢]، فمن الطبيعي إذن أن يشتـاقوا إلى الخـروج من وضـع كهـذا إذ: نعمتان مجهولتان: الصحة والامان.

وسيـأتي الحديث عن ذلـك حين الكـلام على دخـول الاسـلام إلى المدينة.

هذا، ولابد من الاشارة هنا إلى أن الاندفاع نحو الاسلام، إنما كان ظاهراً وقوياً في جملة الضعفـاء والعبيد، والفقـراء. أما اولئـك المستغلون والمستكبرون وأصحاب الاموال، والاطماع، من أمثـال: أبي جهل، وأبي سفيان؛ فقد كـانوا هم الـذين يهتمون بـالقضاء على الـدعوة، ومنعهـا من الانتشـار. وإن المطالـع لتاريـخ الاسلام في مكـة ليجد الكثيـر الكثير من الشواهد، التي تؤيد ما ذكرناه هنا. مع تأكيدنا علىٰ أن ذلك لا يختص بمـا جرىٰ بالنسبة لنبينا «صلى الله عليـه وآله وسلم» بـل هو ينسحب علىٰ غيـره من الانبيـاء السابقين. وقـد عبر القـرآن عن هؤلاء المخـالفين من الـطبقـة الارستقراطية بـ «الملأ» في اكثر من مورد، واكثر من مناسبة.

٤ ـ نوع معجزته «صلى الله عليه وآله وسلم»:

ومما ساعـد على انتشار الاسـلام وانتصاره نـوع المعجزة التي جـاء

---

(١) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٩٠ وراجع: البداية والنهاية ج٣ ص ٧٣ و٧٤.

(٢) البحار ج١٩ ص ٨ و٩ و١٠ واعلام الورىٰ ص ٥٥.

بها «صلى الله عليه وآله وسلم» فان هذا القرآن قد حيّر العرب، ليس فقط بما يتضمنه من قوانين عامة وشاملة، ومن معان واخبارات غيبية، ومن قصص فيها العبر والعظات، رأى فيها غير المسلمين تصحيحاً دقيقاً لما جاء منها في كتبهم، وغير ذلك من علوم ومعارف. وإنما قهرهم وبهرهم فيما كانوا يعتبرون أنفسهم، ويعتبرهم العالم بأسره قمة فيه، اكمالاً للحجة، وحتى لا يبقى مجال لأي خيار؛ لأن خروجه «صلى الله عليه وآله وسلم» في بيئة كهذه، بحجة كهذه، لابد أن يجعلهم يذعنون وينقادون للحق، وإلا فلسوف يراهم كل أحد، ويرون أنفسهم أيضاً معاندين للحق، ومناصرين للباطل.

نعم، لقد بهرهم هذا القرآن وحيرهم، ولم يترك لهم مجالاً للخيار فإما الجحود على علم. «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم»، واما الايمان والتسليم.

وإذا كنا نعلم: أن من مميزات العربي، وبحكم حياته وطبيعته: أنه كان يعيش حياة الحرية بكل ما لهذه الكلمة من معنى، ولم تلوّث فكره وعقله الافكار والشبهات والآراء المصطنعة ـ كما كان الحال بالنسبة لسائر الأمم، كالرومان والفرس وغيرهما، الذين كانوا يحاولون فلسفة أديانهم البعيدة عن الفطرة، والمنافرة لها، وإظهارها بمظاهر معقولة ومقبولة ـ

إذا كنا نعلم ونرى ذلك، فان هذا القرآن قد جاء منسجماً مع فطرة العربي، ومتلائماً مع طبعه وسجيته، ومع صفاء نفسه وقريحته، تماماً كما كانت الدعوة نفسها منسجمةً مع فطرته وروحه، ويستجيب لها عقله، وضميره ووجدانه، لأنه كان يعيش على الفطرة، والاسلام دين الفطرة: «فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم»[1].

(١) الروم: ٣٠.

ولذلك نراه سرعان ما صار يبذل ماله، وولده، ودمه في سبيل هذه الدعوة، ويقتل حتى أباه، وأخاه من أجلها. ولسوف نتحدث إن شاء الله تعالى عن سر اعجاز القرآن فيما يأتي من فصول.

٥ ـ بشائر اليهود والنصارى به (ص):

وأيضاً، فان بشائر أهل الكتاب بقرب ظهور نبي في المنطقة العربية، قد سهّل هو الآخر قبول دعوته، وانتشار رسالته.

فقد جاء في التوراة المتداولة: «وهذه هي البركة، التي بارك بها موسى رجل الله بني اسرائيل قبل موته، فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران»[١].

فالمجييء من سيناء كناية عن تكليم الله لموسى «عليه السلام» في سيناء، وساعير هي جبال فلسطين، وهو إشارة لعيسى «صلى الله عليه وآله وسلم». وفاران اسم قديم لأرض مكة[٢]، التي لم يظهر فيها الا نبينا الاعظم محمد «صلى الله عليه وآله وسلم»، الذي انزل عليه القرآن.

والنبي محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» هو من نسل ابراهيم «صلى الله عليه وآله وسلم»، الذي جعلها أرض غربته، تقول التوراة: «وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان، ملكاً أبدياً»[٣].

فالمقصود بأرض غربة ابراهيم خصوص مكة، لأنها هي التي اسكن أهله فيها.

وأرض كنعان وإن كانت هي بلاد الشام ولكن المقصود فيها هنا

---

(١) سفر التثنية، الإصحاح ٣٣ الفقرة ١.

(٢) معجم البلدان للحموي ج٤ ص ٢٢٥.

(٣) سفر التكوين الإصحاح ١٧، الفقرة ٨.

عموم بلاد العرب، بضرب من التجوز، لأن ابراهيم لم يهاجر إلى الشام، ولا أسكن اهله فيها[١].

وجاء في الانجيل قوله: «وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين؛ ليسألوه: من أنت؟ فاعترف، ولم ينكر، وأقرّ: أني لست أنا المسيح. فسألوه: إذن ماذا؟ إيليا؟ فقال: لست أنا. النبي أنت؟ فأجاب: لا[٢]».

فالمراد بإيليا ليس الياساً ـ كما ربما يُدَّعى ـ وذلك لأنه قد كان قبل عيسى بقرون، فلابد أن يكون المقصود به رجلاً يأتي بعد عيسى. وكذلك الحال بالنسبة إلى النبي الذي سألوه عنه.

ومن المعلوم أنه لم يأت بعد عيسى غير نبينا محمد «صلى الله عليه وآله وسلم»، واوصيائه «عليهم السلام» فلعل المقصود بالنبي هو محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» وبإيليا وصيّه علي «عليه السلام».

هذا وبشارات العهدين به «صلى الله عليه وآله وسلم» كثيرة جداً، فمن أرادها فليراجع الكتب المعدة لذلك[٣] مع الأخذ بعين الاعتبار: أن التوراة والانجيل الموجودين فعلاً قد نالتهما يد التحريف والتزوير، كما يظهر لمن راجع كتاب: الهدى الى دين المصطفى، والرحلة المدرسية، للمرحوم البلاغي. واظهار الحق لرحمة الله الهندي، وغير ذلك.

ويكفي أن نذكر هنا: أن القرآن قد قرّر: أن أهل الكتاب «يعرفونه

---

(١) كما يفهم من مراجعة تاريخ حياته في كتب التاريخ؛ فراجع على سبيل المثال كتاب: قصص الأنبياء لطبارة.

(٢) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول، الفقرة ١٩ ـ ٢١.

(٣) راجع كتاب: أنيس الإعلام (فارسي)، والرحلة المدرسية والهدى إلى دين المصطفى، ورسول الإسلام في الكتب السماوية، وغير ذلك.

كما يعرفون ابناءهم، وان فريقاً منهم ليكتمون الحق، وهم يعلمون[١]».

وقال تعالى: «الذين يتبعون النبي الامي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات[٢]».

ولو أن اهل الكتاب كان يمكنهم اثبات خلاف هذا النص القرآني، لبادروا إليه، ولما عرضوا أنفسهم للحروب والبلايا، في سعيهم الدائب لإطفاء نور الله، هم ومشركوا مكة، الذين كانوا يتعاونون معهم تعاوناً وثيقاً.

بل إن اهل الكتاب انفسهم كانوا يتوعّدون العرب، ويقولون لهم: «ليخرجنّ نبي، فيكسرن أصنامكم، فلما خرج رسول الله كفروا به»[٣].

ويقول مغلطاي: إنه لما شاع قبل ولادته: أن نبياً اسمه محمد، هذا إبّان ظهوره، سمى جماعة أبناءهم محمداً، رجاء أن يكون هو، منهم محمد بن سفيان بن مجاشع إلخ. ثم عد جماعة من المسمّين بهذا الاسم»[٤].

ولما دعا رسول الإسلام بعض المدنيين - قبل الهجرة - إلى الإسلام، قال بعضهم لبعض: يا قوم، إن هذا الذي كانت اليهود يدعوننا به، أن يخرج في آخر الزمان، وكانت اليهود إذا كان بينهم شيء، قالوا: «إننا ننتظر نبياً يبعث الآن يقتلكم قتل عاد وثمود، فنتبعه، ونظهر عليكم معه الخ[٥]».

---

(١) البقرة: ١٤٧. (٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) البحار ج١٥ ص ٢٣١.

(٤) راجع: سيرة مغلطاي ص ٧.

(٥) الثقات، لابن حبان ج١ ص ٩٠.

مناطق سكنى أهل الكتاب:

وبعد، فإن النصارىٰ لم يتوغّلوا في قلب الجزيرة العربية، بل كانوا يسكنون علىٰ اطرافها: الحيرة، وبلاد الشام، وكانت بعض القبائل العربية تدين بالنصرانية، دون ان يلتزموا بطقوسها الدينية الا بصورة ضعيفة كما سنرىٰ.

أما اليهود، فقد كانوا أولاً هم حكام يثرب، بعد أن قدموها من بلاد فلسطين، فراراً من الاضطهاد الذي حاق بهم، ثم قدمها الأوس والخزرج القحطانيون من اليمن، وتغلبوا عليها، وحصروا اليهود ـ وهم ثلاث قبائل: بنو النضير، وقينقاع، وقريظة ـ في مناطق معينة في المدينة واطرافها، وكانوا يسكنون فدكا وتيماء أيضاً.

ويذكر هيكل: أنه كان يحظر على اليهود والنصارى سكنى مكة، إلا أن يكون أجيراً، لا يتحدث بشيء من امر دينه ومن أمر كتابه. ثم يستثني في موضع آخر: العبيد منهم[1].

ولكننا نجد: أنه كان يسكنها المتنصرة من العرب كورقة بن نوفل واضرابه، وعلى كل حال، فان هذا الامر لا يهمنا تحقيقه كثيراً.

اهل الكتاب وهيمنتهم العلمية على العرب:

وما يهمنا هنا: هو الاشارة إلى أن العرب كانوا ينظرون إلى أهل الكتاب نظر التلميذ إلى معلمه، ويعتبرونهم مصدر الثقافة والمعرفة لهم، حتى إننا لنجد في التاريخ: أن العربي كان إذا أراد الاسلام يستشير حبراً، أو راهبا في ذلك. بل نجد قبيلة بكاملها تذهب إلى يهود فدك وتسألهم عن

---

(١) راجع: حياة محمد، لمحمد حسين هيكل ص ٦٥ و٦٦.

رسول الله، بعد أن عرض دعوته عليهم(١).

كما ويعرض الاسلام على كندة؛ فيأبونه؛ فيستدل بعضهم على صدق هذا النبي بأن اليهود قد قالوا: إنه سوف يظهر نبي من الحرم قد أظل زمانه(٢).

واسلام أهل المدينة كان في مبدئه مستنداً إلى نظير هذه الحجة، كما أشرنا، وسنشير إليه ان شاء الله تعالى(٣).

وعن ابن عباس، قال: «كان هذا الحي من الانصار - وهم اهل وثن - مع هذا الحي من اليهود، وهم اهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم. وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم(٤).

وقد اسلم وفد أهل الحيرة، وكعب بن عدي، فلما توفي «صلى الله عليه وآله وسلم» ارتابوا؛ فثبت كعب على الاسلام، قال: ثم خرجت أريد المدينة، فمررت براهب كنا لا نقطع أمراً دونه(٥). إلى آخر كلامه، الذي ذكر فيه حصول اليقين له، بسبب كلام الراهب.

وليلاحظ بدقة قوله: «كنا لا نقطع أمراً دونه»!

وأيضاً، فقد تقدم في الفصل الاول من هذا الجزء وسيأتي(٦): أن

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج٣ ص ١٤٥، ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ١٠٢.

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ١٠٣.

(٣) سيأتي ذلك في الجزء الثاني في فصل: حتى بيعة العقبة حين الكلام حول دخول الإسلام إلى المدينة.

(٤) الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير ص١٠٩ عن أبي داود. وقال: وانظر تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٦١.

(٥) الإصابة ج٣ ص ٢٩٨ عن البغوي، وابن شاهين، وابن السكن، وابن يونس في تاريخ مصر، وأبي نعيم.

(٦) سيأتي ذلك في فصل: غدر اليهود، والاغتيالات عن البداية والنهاية ج٤ ص ٦ =

أبا سفيان قد سأل كعب بن الاشرف عن: أن أي الدينين أرضى لله تعالى، دينه أم دين محمد.

وقالت قريش لبعض يهود بني النضير، وهم: سلام بن أبي الحقيق وحييّ بن أخطب، وكنانة بن الربيع، حين ذهبوا إلى مكة ليحرّضوا الاحزاب على حرب المسلمين، قالت لهم قريش: «يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد؛ أفدينا خير أم دينه، قالوا: بل دينكم خير من دينه، وانتم أولى بالحق منه، فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم، ونشطوا لما دعوهم إليه الخ»[1].

ونحن، وإن كنا نعلم أن زعماء قريش كانوا يعلمون الحق، ولكنهم كانوا يكتمونه عناداً واستكباراً لقوله تعالى: وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم. ولكن الذي يلفت نظرنا هو هذا الاستغلال لنفوذ اليهود، وهيمنتهم العلمية، واعتبارهم مصدراً للمعارف الدينية.

وبالمناسبة فان التاريخ يعيد نفسه، فان نظرة المسلمين إلى الاوروبيين الآن تشبه تماماً، ما كانت عليه في الجاهلية.

وأخيراً، فقد قال الحلبي وابن هشام: «لا يخفى: أن كفار قريش بعثوا النضر بن الحرث، وعقبة بن أبي معيط، إلى احبار يهود بالمدينة. وقالوا لهما: اسألاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله؛ فانهم أهل الكتاب الأول»[2] ثم ذكر ما جرى بينهم وبين اليهود، ثم ما جرى لهم مع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في مكة.

والخلاصة: أن اخبارات أهل الكتاب تلك قد غرست في ذهن

= والسيرة النبوية لابن كثير ج٣ ص ١١.

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص٢٢٥/٢٢٦. وستأتي بقية المصادر في غزوة الخندق.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ٣١٠، وسيرة ابن هشام ج١ ص ٣٢١.

العربي: أن نبياً سوف يخرج من منطقته، مما سهل عليه قبول دعوته «صلى الله عليه وآله وسلم»، والاذعان للحق الذي جاء به؛ لأن الناس ـ باستثناء اصحاب المطامح والأهواء، والطواغيت منهم ـ لصفاء وسلامة طباعهم، وكونهم أقرب الىٰ الفطرة، وعدم تلوث فكرهم بالشبهات والفلسفات المعقدة كانوا يتقبلون الحق، ويذعنون له. وقَبَلِيّتهم وعاداتهم إنما كانت تمنع فقط من انقياد بعضهم لبعض، بسبب غلظتهم، وانفتهم، وبعد هممهم. ولكن لم يكن ذلك يمنعهم من قبول الحق، والإذعان لإرادة السماء[1].

٦ ـ الفراغ العقائدي والسياسي:

أ: الفراغ العقائدي:

لقد كان العرب يعانون من فراغ عقائدي هائل، عبر عنه أمير المؤمنين «عليه السلام» بقوله المتقدم: «بعثه، والناس ضلال في حيرة، وحاطبون في فتنة، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل».

ويكفي أن نذكر: انهم حتى عبادتهم للاصنام قد كانت ملوّنة باللون القبلي، فلكل قبيلة بل لكل بيت وثن، وطريقة.

وكثيراً ما كانت دوافعهم إلى عبادة تلك الاصنام عاطفية، بعيدة عن اساليب التبرير العقلي، والمنطقي، فارتباط العربي بهذا الصنم إنما هو لأن هذا الصنم مرتبط بتاريخ أبيه أو جدّه. فالعربي يعتز بنسبه بحسب طبعه، وبما ينسب إليه، قال تعالى حكاية لذلك عنهم: «بل قالوا: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وانا على آثارهم مهتدون[2]».

---

(١) راجع: البيان والتبيين للجاحظ ج٣ ص ١٢٧.

(٢) الزخرف: ٢٢.

ومما يدل على أن عبادتهم للاصنام لم تكن عن تعقل وقناعة هـو أن الذين كانوا يرجعون إلى فطرتهم، والى عقولهم سرعان ما يدركون منافرتها للفطرة، ولأحكام العقل السليم، ويرغبون بالخروج من هذا الجو، ولذلك نجد المؤرخين يذكـرون: أن عبد المـطلب قد رفض عبـادة الأوثان، كمـا ويذكرون: أن ورقة بن نوفـل، وعثمان بن الحـويرث، وزيـد بن عمرو بن نفيل، وعبيد الله بن جحش قد تبرموا من عبادة الأوثان، وعبروا عن ضعف ثقتهم فيها، فاجتمعوا وتشاوروا فتنصر الأولان، وبقي الآخران في حيرتهم وشكهم[1].

ب: الفـراغ السياسي: فـإن أرض العـرب القـاحلة، والجـو الحـار الـذي تتميز بـه، وحيـاتهم المتنقلة من مكـان الى مكـان، وقـدرتهم على تحمل المشاق. قد جعل السيطرة عليهم شبه مستحيلة حسبمـا قدمنـا. بل جعلهم بحسب طبيعـة ظروفهم الحيـاتية قـادرين على تـوجيـه الضـربـات القاصمة لكل دخيل، وجعله في رعب دائم، وخوف مستمر، الأمر، الذي اسهم بشكل فعال في ابعاد أطماع المستعمـرين عن منطقتهم، مـع قناعـة المستعمر بأنه سوف لا يجني الكثير من النفع، في مقابل الكثير من الضرر الذي سوف يتعرض له، ولا سيما مع علمه بأن حب الانطلاق في الباديـة بـلا رقيب ولا حسيب مغـروس في دم العـربي، وفي روحـه، وفي أعمـاق أعماقه، ولا يتنازل عن ذلك بأي ثمن كان.

فكـل ذلك قـد جعل المنـطقة في فـراغ سياسي محسـوس، بـل إن شمالي الجزيرة العربية لم يتعرض لأي حكم أجنبي أصـلاً نعم قد تعـرض جنوبها وهو اليمن لسلطة الاحباش لفترة قصيرة[2].

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج٢ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ وحياة محمد لهيكل ص ٨٩، وغير ذلك.

(٢) راجع: مختصر تاريخ العرب، للسيد أمير علي ص ٨.

وهـذا الفراغ السيـاسي قد جعلهـا بعيدة عن نفـوذ الأديـان الكبـرى بشكل فعال، ولو بفرض من السلطة الحاكمة، كـالنصرانيـة والزرادشتيـة، وحتى عن التأثر باليهوديـة التي كانت تعيش بينهم ومعهم، فبقيت المنـطقة بعيدة عن الشبهات والافكـار الغريبـة والدخيلة، وإن كـان قد تسـرّب إليها بعض اليهود فراراً من الرومان، ولكن لم يكن لهم أي نشاط ديني، أو لعله كـان، ولكنه لم يثمـر، إذ لم يكن ثمة سلطة تـدعمه سيـاسيـاً واعـلاميـاً، ولذلك فقد اشرنا الىٰ أنهم يذكرون أن نصارىٰ تغلب ما كانوا يتمسكون من النصـرانية إلا بشـرب الخمر[1] بـل إن جميـع نصـارى العـرب كـانـوا كذلك[2].

ومـا ذلك إلا لأن النصـرانيـة بعيـدة عن عقـل وفـطرة الانسـان، ولا تستطيع أن تتّصل بروحه ووجدانه لتفرض هيمنتها علىٰ أفعاله، وسلوكه.

أما الاسلام دين الفـطرة الذي استـطاع بفترة وجيـزة أن يصنع أمثـال أبي ذر، وعمـار، وسلمان، فـانه يتصـل أولا بعقـل الانسـان، ثم بـروحـه ووجدانه، حتى يحوله إلى انسان إلهي بكل ما لهذهِ الكلمة من معنىٰ، وقد استـطاع أن يجعل من هؤلاء المتـوحشين إلى الامس القـريب، والـذين لا يلتـزمون بنـظام، ولا يحكمهم قانـون، اكثر الامم اتّبـاعاً للنُّـظم، واشدهـا إيماناً واخلاصاً للقانون الالهي.

كما ويلاحظ أن من رباهم النبي والائمة في فترات وجيزة جـداً. مع محـدودية إمكـاناتهم لم تستـطع الحكـومـات الاخـرى، حتى التي تنسب نفسها إلىٰ الاسلام أن تأتي بأمثالهم، رغم توفر كل الامكـانات لهـا، الأمر الذي يشير بوضوح إلى الدور الكبير الذي يضطلع به القائد والحاكم الحق

---

(١) المصنف للصنعاني ج٦ ص ٧٢ وج٧ ص ١٨٦ والسنن الكبرىٰ ج٩ ص ٢٨٤.

(٢) المصنف للصنعاني ج٦ ص ٧٢ و٧٣ وج٧ ص ١٨٦ والسنن الكبرىٰ ج٩ ص ٢١٧.

في تربية المجتمع، وفي تزكيته.

قال المعتزلي: «والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعجرفية، وخشونة الطبع. ومن سكن المدن منهم، كأهل مكة، والمدينة، والطائف؛ فطباعهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة.

ولم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف، ولا صاحب نظر وجدل، ولا موقع شبهة، ولا مبتدع نحلة الخ»[1].

وخلاصة الأمر: إن صفاء نفوس عرب الحجاز وعدم تلوثها بالافكار، والانحرافات والشبهات الغريبة عن الفطرة، بالاضافة إلى الفراغ العقائدي، وعدم معقولية شركهم، وعبادتهم للاوثان، ثم الحالة الاجتماعية السيئة التي كانوا يعانون منها ـ كل ذلك قد اسهم اسهاماً كبيراً في نشر الدعوة الاسلامية، وقبولها.

ولذلك ترى أن كثيراً منهم كانوا يسلمون بمجرد سماعهم كلامه «صلى الله عليه وآله وسلم»، واطلاعهم على أصول دعوته واهدافها، أو بمجرد ان يتلو عليهم القرآن.

وإذا ما رأينا ساداتهم وكبراءهم ـ عموماً ـ كانوا يجحدون بهذه الدعوة الحقة، فليس ذلك لأنهم لم يجدوا فيها ما يقنعهم، بل لأنهم وجدوها تضر بمصالحهم الدنيوية، وتصدهم عن مطامعهم اللاانسانية؛ فهم مصداق لقوله تعالى: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم[2]».

ولذلك نلاحظ: أن الناس ما كانوا يتطلبون الاستدلال على التعاليم والافكار الدينية كثيرا، في أول الأمر؛ لأن صفاء نفوسهم، وسلامة فطرتهم، وعدم ارباكها وارهاقها بالأفكار، والفلسفات، والشبهات كان

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج٧ ص ٥١.

(٢) النمل/١٤.

كافياً لادراك حقانية الدعوة، وسلامة افكارها. وكانت الآيات انما تحاول إرجاعهم إلى الفطرة وتدعوهم إلى التفكير، والتعقل.

ولكن بعد أن دخلت الفلسفات والافكار الغريبة، والشبهات المغرضة، إلى فكر وعقل هذا الانسان، وحجبت فطرته، وأربكت تفكيره وأرهقت عقله، صار الناس يحتاجون اكثر فأكثر إلى الادلة، ويتطلبونها من الائمة، بحسب نسبة تلوث فطرتهم بالشبهات والافكار الغريبة.

٧ ـ الحياة الصعبة، والتضحية بالنفس:

وكانت بدائية العرب، وحياتهم الصعبة، التي يعانون منها، قد جعلتهم اكثر اقداماً على التضحية في سبيل الدعوة التي يؤمنون بها عن قناعة وجدانية راسخة، ويتفاعلون معها تفاعلاً روحياً خالصاً.

وذلك لأنهم لم ينعموا بحياة النعيم والرفاهية، التي لا تعب فيها ولا نصب، ولا آلام؛ ليصبح لهم تعلق شديد بالحياة، وحب، بل وعشق لها، فان من الملاحظ: أنه كلما كانت الحياة رخية ناعمة مرفهة، كلما ازداد تعلق الانسان بها، وحبه لها. وكلما كان العكس، سهل عليه تركها، والتخلي عنها.

كما أن الدعوة التي سوف يتعرض أفرادها لمختلف أنواع الضغوط النفسية، والاقتصادية، والاجتماعية واقساها، بحاجة ماسة إلى جماعة قادرين على مواجهة تلك الضغوط، وتحمل تلك الآلام، والصبر على التعذيب، والجوع والاضطهاد، بمختلف انواعه.

وقد كان العرب ـ عموماً ـ كذلك؛ لأنهم قد عانوا من مشاق الحياة والطبيعة ما عانوا. وأصبحت الآلام والمتاعب والمصاعب هي الصفة المميزة لحياتهم بل هي خبزهم اليومي وغير ذلك هو الاستثناء. فهم أقدر من غيرهم على تحمل ما ينتظر أتباع هذه الدعوة؛ لأن المنعمين لا

يستطيعون عادة تحمل المشاق، ومواجهة الصعوبات فان الشجرة البرية اصلب عوداً، وأبطأ خموداً؛ ولذلك نجد: أن بعض المسلمين كانوا يودّون لو يجعلون امتيازاً لأحدهم، وهو ابن عمير لأنه كان منعماً قبل أن يسلم، وحينما أسلم تعرض للمشاق والآلام، فذلك جعلهم يشعرون بأنه قد تحمل من المصاعب والآلام ما يوجب الرثاء والرحمة له؛ وما ذلك إلا إنطلاقاً من الناحية التي اشرنا اليها آنفاً.

٨ ـ بقايا الحنيفية في العرب:

وبعد، فان مما ساعد على ذلك أيضاً، وجود بقايا الحنيفية ـ دين ابراهيم كالحج وآدابه ـ في الجزيرة العربية، وفي مكة بالذات؛ لأن العرب، وهم أولاد اسماعيل، قد توارثوا عنه الدين الحق وكانوا يعتزون بذلك، وقد قال الله تعالى لهم: ملة أبيكم إبراهيم.. ولكنهم على مر السنين بدؤا يخلطون هذا الحق بكثير من الباطل، شأن سائر الأمم، عندما يغشاها الجهل، وتستبد بها الاهواء، والانحرافات.

ثم تسرب إليهم الشرك، وعبادة الاوثان، حسبما قدمنا، ثم الكثير من الامور الباطلة، والاخلاق الذميمة، والفواحش، حتى اصبحوا في الجاهلية العمياء، وحتى أدى بهم الامر الى الحالة التي وصفها لنا أمير المؤمنين «عليه السلام» فيما تقدم، غير أن بقية منهم ـ وان كانت قليلة جدا ـ قد بقيت متمسكة بعقيدة التوحيد، وترفض عبادة الاوثان. وتعبد الله على حسب ما تراه مناسباً، وقريباً إلى تعاليم دين ابراهيم. ومن هؤلاء عبد المطلب، وأضرابه، من رجالات بني هاشم الأبرار.

وكان من بقايا الحنيفية تعظيم البيت، والطواف به، والوقوف بعرفة، والتلبية[١] وهدي البدن، وإن كانوا يطبقون ذلك مشوهاً وممسوخاً،

(١) ذكر اليعقوبي في تاريخه ج١ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٧ ط صادر تلبيات كل قبيلة، وأعطى نبذة عن شعائرهم في مكة، فمن أراد فليراجع.

ويقحمون فيه ما ليس منه. وكانت هذه المعالم تضعف رويداً رويداً، مع الزمن، حتى لم يبق منها إلا الاسماء، والرسوم الشوهاء.

وقد روي عن الامام الصادق «عليه السلام» ما مفاده: إن العرب كانوا أقرب الى الدين الحنيفي من المجوس؛ فان العرب يغتسلون من الجنابة، والإغتسال من خالص شرايع الحنيفية. وهم أيضاً يختتنون، وهو من سنن الانبياء، كما أنهم يغسلون موتاهم، ويكفنونهم، ويوارونهم في القبور، ويلحدونهم، ويحرمون نكاح البنات والأخوات، وكانوا يحجون إلى البيت ويعظمونه، ويقولون: بيت ربنا، ويقرون بالتوراة والانجيل، ويسألون أهل الكتب، ويأخذون منهم. وكانت العرب في كل الاسباب اقرب إلى الدين الحنيفي من المجوس[1].

إذن، فقد كان ثمة ذكريات بعيدة في ضمير ووجدان الانسان العربي، تربطه بالحنيفية السهلة السمحاء، دين آبائه وأجداده ـ وهو الذي يعتز بالانساب وصفائها، بحكم ما يتعرض له من الغزو والسبي الموجب للتهمة أحياناً ـ وإذا كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد بعث ليتمّها؛ فمن الطبيعي أن يكون لهذه الذكريات أثر في نظرة كثير من الناس إليه، وإلى ما جاء به بإيجابية وواقعية.

٩ ـ الخصائص والعادات العربية:

ولقد كان لبعض الخصائص، والاخلاق، والعادات العربية، اثر كبير في نشر دعوة الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم»، التي هي دعوة الحق والخير وشمولها. وإن كان الاسلام الذي استفاد من تلك الخصائص والعادات والأخلاق، قد حاول إلى جانب ذلك تركيزها من حيث المنطلقات والأهداف على أسس صحيحة ومقبولة. وأما إن كانت مرفوضة

(١) راجع: الاحتجاج، للطبرسي ج٢ ص ٩١/٩٢ والبحار ط مؤسسة الوفاء ج٧٨ ص ٨.

إسلامياً، فانه ـ وإن كانت قد أفادته تلقائياً، ومن دون أن يتطلب هو ذلـك ـ كان يحاول القضاء عليها، واستئصالها، بالحكمة والموعظة الحسنة، كلما سنحت له الفرصة، وواتاه الظرف.

فمثـلاً: لقد استفـاد الاسلام كثيـراً من شجاعـة العربي، واستهـانته بالصعاب، في الدفاع عن الاسلام.

وأيضـاً، فقـد كـان للتعصب القبلي بعض الفـوائـد الهـامـة، حتىٰ ليذكرون أنه بعد الهجرة الى المدينـة؛ كان الأوس والخـزرج: «يتصاولان مـع رسـول الله «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» تصـاول الفحلين، لا تصنـع الأوس شيئاً فيه عن رسـول الله «صلى الله عليه وآلـه وسلم» غناء الا قـالـت الخـزرج: والله، لا يذهبـون بهذه فضـلاً علينا عنـد رسـول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» في الاسلام؛ فلا ينتهـون حتى يوقعـوا مثلها. قـال: وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الاوس مثل ذلك»(١).

وأما قبل الهجرة في مكة، فقد كان للقبليـة أثر كبيـر في منع قـريش وغيـرها مـدة طويلة من المضـايقات لكثيـر ممن اعتنقـوا الاسـلام، ثـم من محاولة الاعتداء على حياته «صلى الله عليه وآله وسلم»، أو على حياة اكثر المسلمين آنـذاك، وإن كانت تـواجههم بالمضـايقـات أحيـانـاً، واحيـانـاً بـالتعذيب القـاسي، إن لم يكن لهـم عشيرة يـرهـب جانبهـا، حتى أذن الله تعالى لهم بالهجرة إلى المدينة.

ولذلك نلاحظ: أن أبا طالب (رحمه الله) قد استفاد كثيراً من العامل القبلي، حتى إن بني هاشم مسلمهم وكافـرهـم قد قبلوا بمحـاصرة قـريش لهم. وكـانوا معـه في شعب ابي طالـب كمـا سيأتي. وتجـد في شعـر أبي طـالب الكثير من التـأكيد على عـامل القـرابة بين بني هـاشـم وطوائف من

(١) تاريخ الطبري ط الاستقامة ج٢ ص ١٨٤د وراجع الكامل لابن الأثير ط صادر ج٢ ص ١٤٦.

قريش. الأمر الذي كان لـه أثر كبيـر في حفظ حياتـه «صلى الله عليه وآلـه وسلم» من كيد أعدائه كما قلنا.

بـل إننا نجـد المشركين حتى في عـدائهم له «صلى الله عليـه وآلـه وسلم»!، وحتى حينمـا تـآمـروا عليـه ليقتلوه ـ وكـان ذلـك هـو سبب هجـرته «صلى الله عليـه وآله وسلم» ـ قـد أخذوا بعين الاعتبـار العلاقـات القبلية، وردّات الفعل التي سوف تنجم عنها فاختاروا عشرة اشخاص، من كل قبيلة رجلاً، ليضربوا رسـول الله «صلى الله عليه وآلـه وسلم» بسيوفهم في آن واحد وسيأتي ذلك إنشاء الله تعالى.

وفي المدينة ايضاً كان ثمـة أثر كبيـر لكرم ضيـافة العـربي، ولوفـائه بـالعهد والـذمار، ولحسن الجـوار، ولحريتـه، وحميته، وانفتـه وعـزتـه، واعتداده بنفسه، وقوة إرادته، وللشجاعة، والاقـدام، وحتى لصفات القـوة والغلظة، التي ولـدتها فيهم حيـاة الغزو والحـرب، وجعلتهم قـادرين على التخلي عن العـواطف في سبيل دينهم وعقيـدتهم، حتى لقد كـانوا يقتلون ابناءهم، وآباءهم، واخوانهم.

١٠ ـ دور أبي طالب، وعلي (ع) وأموال خديجة «عليها السلام»:

ثم إننا يجب أن لا ننسى الدور الذي اضطلع به الرجل العظيم، أبـو طالب شيخ الابطح «عليه السلام»، الذي وفّـر للنبي «صلى الله عليه وآلـه وسلم» حمايته المطلقة من كل أعدائه ومناوئيه.

ثم هنـالك العـامل الاقتصـادي الذي وفـرته لـه زوجتـه أم المؤمنين خـديجة صلوات الله وسـلامه عليهـا، والتي كـانت تمتلك ـ حسبمـا يـرى البعض ـ عصب الاقتصاد في الجزيرة العربية كلها.

وقد أنفقت كل تلك الأموال على المسلمين، في الظروف الحـرجة

التي واجهوها، إبّان اضطهاد قريش وحصارها الاقتصادي لهم.

ومما يدل على أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كان يتولى الانفاق على المسلمين، من أموال خديجة وأبي طالب[1] قول أسماء بنت عميس لعمر[2] حين عيّرها بأنه سبقها بالهجرة، وإنها حبشية حجرية ـ على ما نقل عن صحيح مسلم وغيره ـ قالت له: «كنتم مع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم[3]».

وأخيراً، فيجب أن لا ننسى دور وصي وأخي النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، أمير المؤمنين «عليه السلام»، حسبما سيظهر ان شاء الله ـ ولو بنحو محدود ـ في مطاوي هذه السيرة العطرة.

نعم لقد كان لكل ذلك دور هام في حفظ الدعوة، وانتصارها، وانتشارها، كما لا يخفى على الناقد البصير، والمتتبع الخبير.

وثمة أسباب أخرى قد ساعدت على ظهور الاسلام، وانتشاره، وانتصاره، يمكن استجلاء بعضها من مطاوي التاريخ الاسلامي.

ونحن نكتفي هنا بهذا القدر؛ لنوفر الفرصة لعرض حياة النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» بعد البعثة، وبشكل موجز وواضح قدر الامكان.

---

(١) البحار ج١٩ ص ١٦ وأموال خديجة أمرها أشهر من أن يذكر فراجع أمالي الشيخ الطوسي ج٢ ص ٨٢/٨١ والبحار ج١٩ ص ٦١ و٦٢.

(٢) ستأتي مصادر ذلك في فصل: هجرة الرسول الأعظم(ص)، حين الكلام حول ثروة أبي بكر.

(٣) قاموس الرجال ج١٠ ص ٣٨٠ وحياة الصحابة ج١ ص ٣٦١ والبداية والنهاية ج٤ ص ٢٠٥ وصحيح مسلم ج٧ ص ١٧٢ وفتح الباري ج٧ ص ٣٧٢ وصحيح البخاري ج٣ ص ٣٥ ط سنة ١٣٠٩ هـ، وكنز العمال ج٢٢ ص ٢٠٦ عن أبي نعيم، والطيالسي، ومسند أحمد ج٤ ص ٣٩٥ والأوائل ج١ ص ٣١٤.

تنبيه هام وضروري:

إن كل ما ذكرناه آنفاً لا يعني: أن ظهور الاسلام، وانتشاره في الجزيرة العربية قد كان أمراً طبيعياً، بحيث إنه لو توفرت هذه العوامل لأي دعوة أخرى، فانها تستطيع أن تحقق نفس النتائج التي حققها الاسلام.

بل الامر على العكس من ذلك تماماً، فان ظهور الاسلام، وانتصاره في هذه المنطقة هو بذاته معجزة له، ودليل على حقانية الاسلام؛ وذلك لأن اليهودية قد كانت موجودة، وكانت هذه الظروف أيضاً موجودة، ولكنها لم تستطع أن تؤثر أثراً يذكر في عقلية العربي، ولا في سلوكه، وتصرفاته[1].

وكذلك الحال بالنسبة للنصرانية، التي كانت تهتم في تنصير كل من تقدر على تنصيره. ثم هناك الزرادشتية وغيرها من الاديان.

وهذا معناه: أن لنفس المبدأ، والرسالة، والقائد دوراً هاماً جداً، بل والدور الأول والاساس في عملية التغيير وفي النجاح وفي استمراره. وبدون ذلك، فان كل نجاح ـ لو كان ـ فلسوف يكون محدوداً جداً، ولظروف معينة، ولسوف ينتهي بمجرد انتهاء تلك الظروف.

وقد رأينا الاسلام رغم ما عاناه من مصائب وبلايا حتى على أيدي أبنائه ـ كان ولا يزال يزداد قوة وفعالية على مر الزمن، وفي مختلف الظروف والأحوال، ولم يؤثر فقدان تلك الظروف والعوامل، ولا تحولها وتقلبها لا في الاسلام، ولا في فعاليته، إن لم نقل: إنه قد زاد في ذلك بشكل ظاهر.

والذي يفسر لنا هذه الظاهرة، هو ما ذكرناه آنفاً من أن الاسلام يستطيع أن يستوعب طاقات الانسان، ويحولها ويطورها في مصلحة

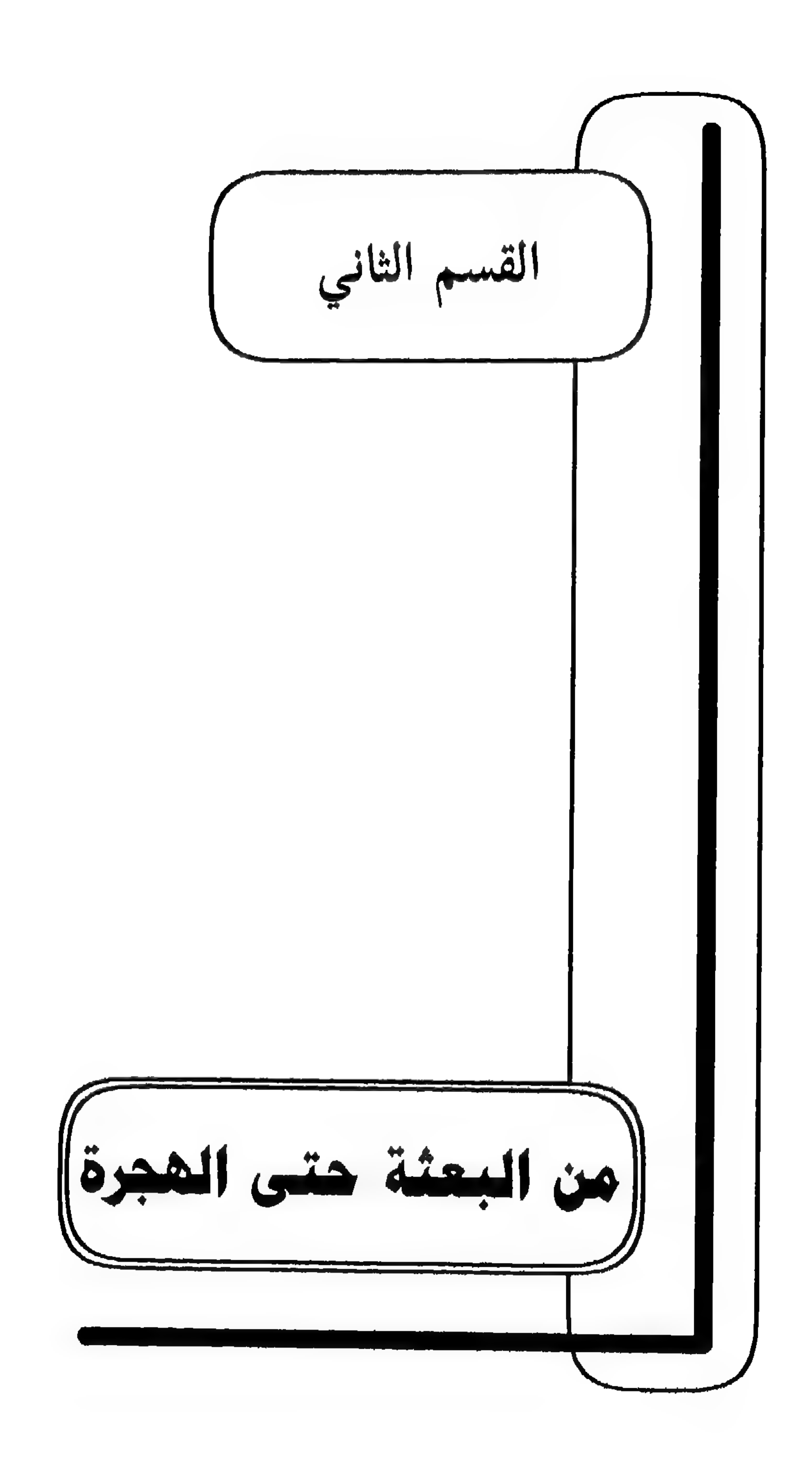
---

(١) وإن كان دين اليهود مقصوراً عليهم ولا يتعداهم إلى غيرهم من الأمميين.

الرسالة والحق. كما أنه يستطيع أن يتلائم مع الظروف المختلفة، فهو يملك لكل داء دواء، ولكل مشكلة حلاً، ولكل ظرف ما يناسبه، على عكس غيره من الدعوات الجامدة، والمحدودة.

ولذلك، فان الاسلام عند ما نجح في الجزيرة العربية، وإن كان قد استفاد من بعض الظروف، وحوّل وطوّر الاوضاع السائدة في صالحه، إلا أنه كان في نفس الوقت لا يجد في المنطقة التي ظهر فيها الكثير من المميزات الهامة التي من شأنها أن تساعده في مهمته. ولولاها فان أي دعوة أخرى لا تستطيع أن تنجح. ولكن فقْدها لم يؤثر على الاسلام، كما أن امتلاك اعدائه لها لم يؤثر عليه أيضاً.

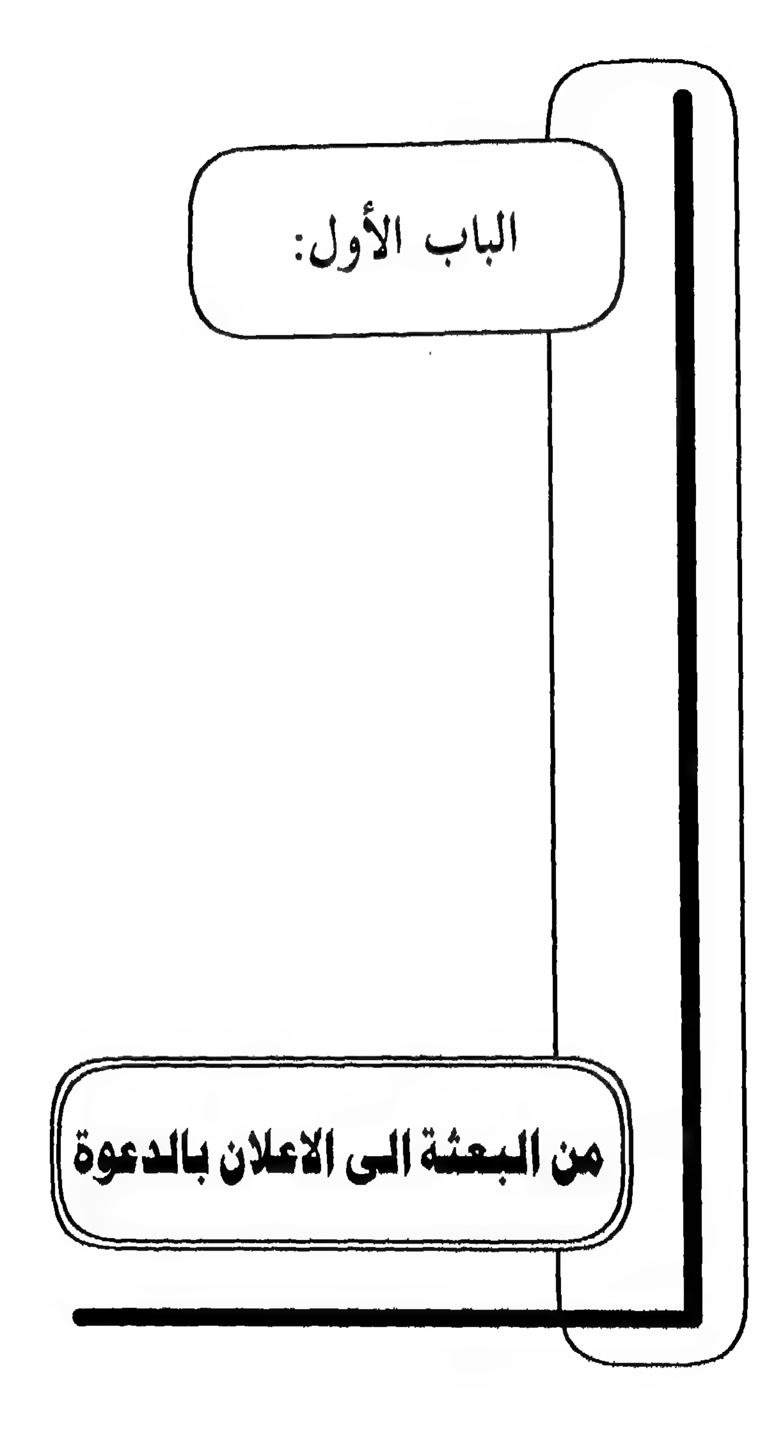
وهذا أحد أسرار عظمة الاسلام وسموّه. وفقنا الله للعمل في سبيله، والاهتداء بهديه، إنه ولي قدير.



القسم الثاني

من البعثة حتى الهجرة

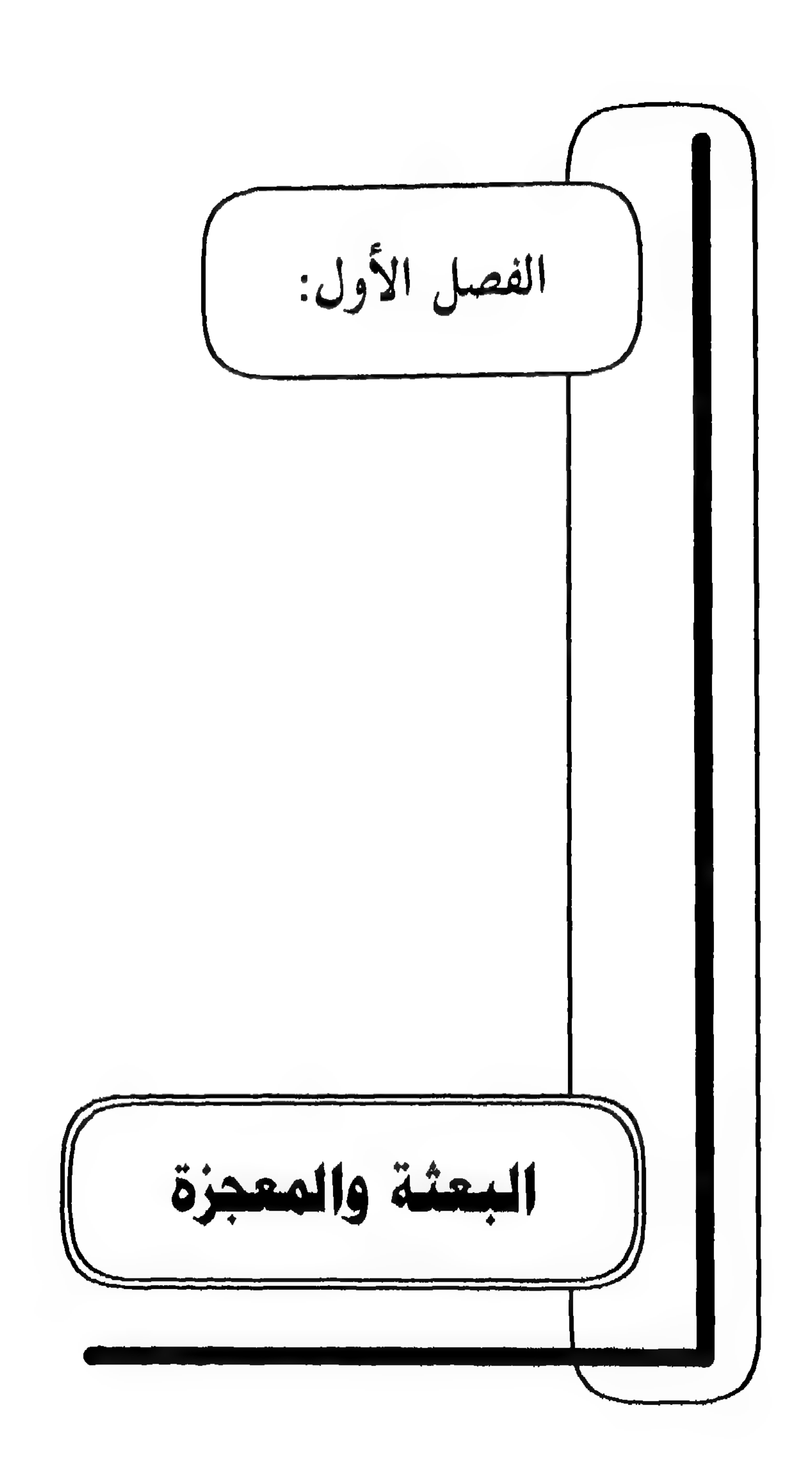




الباب الأول:

من البعثة الى الاعلان بالدعوة





الفصل الأول:

البعثة والمعجزة



عمر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» حين البعثة:

لقد بعث «صلى الله عليه وآله وسلم» بعد عام الفيل بأربعين عاماً، أي حينما بلغ الاربعين من عمره الشريف، على قول أكثر أهل السير، والعلم بالأثر. وكان قبل ذلك يسمع الصوت ولا يرى الشخص حتى تراءى له جبرائيل وهو في سن الاربعين.

وقيل: بل كان عمره «صلى الله عليه وآله وسلم» حين بعثته إثنين، وقيل: ثلاثاً. وقيل خمساً وأربعين سنة[1].

وربما لا يكون بين هذه الأقوال منافاة إذا كان القائلون بها يأخذ بعضهم، وبعضهم الآخر لا يأخذ السنوات الأولى، وهي فترة الدعوة الإختيارية، أو فقل: السرية بنظر الإعتبار والتي قد اختلف في مقدارها من ثلاث إلى خمس سنوات[2].

---

(١) راجع في ذلك كلا أو بعضاً سيرة مغلطاي ص ١٤، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٢٤، وتاريخ الطبري ج٢ ص ٤٢ و٤٣، والبداية والنهاية ج٣ ص ٤، وفي الطبري ج٢ ص ٤٢ رواية تفيد: ان عمره(ص) كان حينئذٍ عشرين سنة، وهي رواية لا يرتاب أحد في بطلانها. وراجع مشاهير علماء الأمصار ص ٣.

(٢) البحار ج١٨ ص ١٧٧ و١٩٤ عن إكمال الدين ص ١٩٧ والتمهيد في علوم القرآن ج١ ص ٨١/٨٢ وراجع: تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٩ وسيرة ابن هشام ج١ ص ٢٨٠، والمناقب لابن شهرآشوب ج١ ص ٤٣.

أو لعل بعضهم لم يكن يرى أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» مرسل في تلك الفترة إلى الناس كافة، أو أنه كان مكلفاً بدعوة الاقربين فقط.

كما أن ذلك لعله هو سبب الإختلاف الظاهري في مدة بقاء النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في مكة داعياً إلى الله فيها قبل الهجرة، حيث قال بعضهم إنه: «صلى الله عليه وآله وسلم» بقي عشر سنين. وقال آخرون: ثلاث عشرة سنة.

تاريخ البعثة، وكيفية نزول القرآن:

والمروي عن أهل البيت «عليهم السلام» ـ وأهل البيت أدرى بما فيه وأقرب إلى معرفة شؤون النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» الخاصة ـ: أن بعثة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كانت في السابع والعشرين من شهر رجب. وهذا هو المشهور بل ادعى المجلسي الإجماع عليه عند الشيعة، وروي عن غيرهم أيضاً[١].

وقيل: إنه «صلى الله عليه وآله وسلم» بعث في شهر رمضان المبارك، واختلفوا في أي يوم منه[٢] وقيل في شهر ربيع الأول، واختلف أيضاً في أي يوم منه[٣].

---

(١) راجع السيرة الحلبية ج١ ص ٢٣٨ عن أبي هريرة، وسيرة مغلطاي ص ١٤ عن كتاب العتقي عن الحسين، ومنتخب كنز العمال هامش مسند أحمد ج٣ ص ٣٦٢، ومناقب ابن شهرآشوب ج١ ص ١٧٣ والبحار ج١٨ ص ٢٠٤ و١٩٠.

(٢) راجع: تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٤ وسيرة ابن هشام ج١ ص ٢٥٦، وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٢/٢٣ ط صادر والبداية والنهاية ج٣ ص ٦.

(٣) المواهب اللدنية ج١ ص ٣٩، وسيرة مغلطاي ص ١٤، وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٢ والتنبيه والإشراف ص ١٩٨، ومروج الذهب ج٢ ص ٢٨٧، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٣٨.

واستدل القائلون بأنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد بعث في شهر رمضان المبارك، وليس في رجب بأن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» إنما بعث بالقرآن، والقرآن قد أنزل في شهر رمضان، قال تعالى: إنا أنزلناه في ليلة القدر[1]، وقال: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن[2].

ثم ان هنا اشكالاً آخر لا بد من الاشارة اليه؛ وحاصله: أن الآيتين المتقدمتين، وإن كانتا تدلان على نزول القرآن دفعة واحدة على أحد الاحتمالين في معنى الآيتين، إلا أن قوله تعالى: **﴿وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلا﴾**[3] يدل على نزول القرآن متفرقاً؛ لأنه عبر فيها ب «نزّل»، الدال على النزول التدريجي، وفيما تقدم عبر بأنزل، الدال على النزول الدفعي بالاضافة إلى انه يقول فيها: **﴿فرقناه لتقرأه على الناس على مكث﴾**. وبالاضافة إلى قوله تعالى: **﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾**[4] حيث دلت الآية على نزول القرأن تدريجاً.

وأيضاً، يجب ان لا ننسى هنا: ان بعض الآيات مرتبط بحوادث أنية، مقيدة بالزمان، كقوله تعالى: **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾**[5] وكاعتراض الكفار الآنف وغير ذلك.

هذا كله عدا عن أن التاريخ المتواتر يشهد بأن نزول القرآن كان تدريجاً، في مدة ثلاث وعشرين سنة، هي مدة الدعوة.

وقد اجيب عن إشكال التنافي بين ما دل على النزول الدفعي والنزول التدريجي؛ بأن النزول الدفعي كان إلى البيت المعمور؛ حسبما نطقت به الروايات الكثيرة، ثم صار ينزل تدريجاً على الرسول الأعظم «صلى

---

(١) سورة القدر: ١.

(٢) سورة البقرة: ١٨٥.

(٣) الإسراء: ١٠٦.

(٤) الفرقان: ٣٢.

(٥) المجادلة: ١.

الله عليه وآله وسلم»[1].

وإذن، فليكن نـزوله الدفعي كان ليلة القدر ونزوله التدريجي قد بدأ في السابع والعشرين من شهر رجب، ولا يبقى ثمة منافاة.

وجواب آخر، يعتمد على القول بأن القرآن قد نزل أولاً دفعة واحدة على قلب النبي الأعـظم «صلى الله عليـه وآلـه وسلم»، لكنـه لم يؤمـر بتبليغه، ثم صار ينزل تدريجاً بحسب المناسبات.

وربما يستأنس لهذا الرأي ببعض الشواهد التي لا مجال لها[2].

ورأي ثـالث يقول: إن بـدء نـزول القـرآن كـان بعـد البعثـة بثلاث سنـوات، أي بعد انتهـاء الفتـرة السـريـة للدعـوة، كمـا ورد في عـدد من الـروايـات، ونص عليـه بعضهم[3] وعلى هـذا فـلا يبقى تنـاف بـين بعثته «صلى الله عليه وآله وسلم» وسلم في شهر رجب، وبين نزول القرآن في شهر رمضان المبارك[4].

أما نحن فنقول:

أولاً: قال الله تعالى: ﴿وقـال الذين كفـروا لولا نـزل عليه القـرآن جملة واحدة﴾[5] فاستعمل التنزيل وأريد به النزول جملة واحدة؛ فقولهم: «تستعمل نزل في خصوص التدريجي» لا يصح.

---

(١) راجع: تفسير الميزان ج٢ ص ١٥.

(٢) راجع: تفسير الميزان ج٢ ص ١٨ وتفسير الصافي ج١ المقدمة التاسعة، وتاريخ القرآن للزنجاني ص ١٠.

(٣) راجع: التمهيد في علوم القرآن ج١ ص ٨٢/٨٣ عن الكافي ج٢ ص ٤٦٠، وتفسير العياشي ج١ ص ٨٠ والاعتقادات للصدوق ص ١٠١، والبحار ج١٨ ص ٢٥٣، ومستدرك الحاكم ج٢ ص ٦١٠ والاتقان ج١ ص ٣٩ وتفسير شبر ص ٣٥٠، والبداية والنهاية ج٣ ص ٤ وتاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٣٤.

(٤) التمهيد ج١ ص ٨١ و٨٣.

(٥) الفرقان: ٣٢.

ثانياً: إن تتبع الآيات القرآنية يعطي عدم ثبوت الفرق المذكور بين: «الانـزال» و «التنزيـل» مثلاً قـد ورد في القرآن قـوله تعـالى: ﴿**ولن نـؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه**﴾[1] مع أن الكتاب المقروء إنمـا ينزل دفعة واحدة.

كما ويلاحظ: أنه يستعمل كلمـة «نزل» تـارة، وكلمة «أنـزل» ﴿**من السماء ماء طهوراً**﴾.

ومثـل ذلك كثيـر، لا مجال لنـا لتتبعه فعـلا. وكل ذلـك يدل على عـدم صحة هذا الفـرق بين هاتين الصيغتين وقـد أشار إلى هـذا الجواب بعض المحققين أيضاً[2].

وثـالثـاً: قـولهم: إن النبي «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» قـد بعث بـالقرآن، غيـر مسلم. ولتكن الروايات الـواردة عن أهـل البيت، والقـائلة بـأنه «صلى الله عليـه وآله وسلم» قـد بعث في شهر رجب مـوجبـة لـوهن قولهم هذا.

ورابعاً: روايات نـزول القرآن إلى البيت المعمـور لا مجال لإثبـاتها من طريق أهل البيت «عليهم السلام» ولا إلى الاطمينان إلى صحتها، كما ذكره الشيخ المفيد[1]

وأمـا نزول القـرآن أولاً دفعة واحـدة على قلبه «صلى الله عليـه وآله وسلم»؛ فإن إثباته مشكل، ولا يمكن المصير إليه إلا بحجة.

وخامساً: حـديث نزول القـرآن بعد البعثـة بثلاث سنـوات، إستناداً إلى ما ورد من أن القرآن قد نزل خـلال عشرين سنـة، لا يمكن الإطمينان إليه، إذ يمكن أن يكون ذلك قد جاء على نحو التقريب والتسامح، ولم يرد

---

(١) الإسراء: ٩٣.

(٢) هو العلامة السيد مهدي الروحاني حفظه الله.

(٣) تصحيح الاعتقاد ص ٥٨.

في مقام التحديد الدقيق ـ ومن عادة الناس: أن يلقوا الزائد القليل، أو أن يضيفوه في إخباراتهم، وليس في ذلك اخبار بخلاف الواقع؛ لأن المقصود هو الاخبار بما هو قريب من الحد، لا بالحد نفسه، مع إدراك السامع لذلك، والتفاته إليه.

نعم يمكن أن تكون معاني القرآن وحقائقه قد نزلت على قلبه الشريف ليكون «صلى الله عليه وآله وسلم» إنساناً كاملاً، يربى نفسه على تلك المعاني.

ولكن هذا ايضاً يبقى مجرد احتمال، ويحتاج إلى إثبات.

والنتيجة هي: أنه لا مانع من أن يكون «صلى الله عليه وآله وسلم» قد بعث وصار نبياً في شهر رجب، كما أخبر به أهل البيت «عليهم السلام» وهيىء ليتلقى الوحي القرآني. ﴿**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**﴾[1]، ثم بدأ نزول القرآن عليه تدريجاً في شهر رمضان المبارك.

كما أنه لا مانع من ان تكون حقائق القرآن ومعانيه قد نزلت عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» دفعة واحدة، ثم صار ينزل عليه تدريجاً.

ويؤيد هذا الإحتمال الأخير رواية رواها المفضل عن الإمام الصادق «عليه السلام» تفيد ذلك فلتراجع[2] ويؤيده أيضاً: ما ورد من أنه كان له ملك يسدده، ويأمره بمحاسن الأخلاق. وأن الملك كان يترائى له، قبل ان ينزل عليه القرآن[3] وأن جبرئيل قد لقيه الخ..

ويرى بعض المحققين[4]: أنه يمكن الجمع بين الآيات، بأن يقال:

---

(١) المزمل: ٥. (٢) البحار ج٩٢ ص ٣٨ وج١ ص ٥٣.

(٣) التمهيد في علوم القرآن ج١ ص ٨٣ ويحتمل أيضاً: أن يكون القرآن قد نزل في شهر رمضان في ليلة القدر دفعة، لكنه لم يؤمر بتبليغه، ثم صار ينزل عليه تدريجاً لأجل التبليغ في المناسبات المقتضية لذلك.

(٤) هو العلامة السيد مهدي الروحاني حفظه الله.

إن شروع نزول القرآن كان في ليلة مباركة، هي ليلة القدر من شهر رمضان، ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن». وكان أول ما نزل حسب روايات أهل البيت «عليهم السلام»، ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إقرأ بسم ربك الذي خلق﴾.

والاستدلال بهذه الآيات: على أن القرآن نزل أولاً دفعة إلى البيت المعمور أو على قلب النبي، ثم صار ينزل تدريجاً في مدة عشرين، أو ثلاث وعشرين سنة وذلك إعتماداً على قرينة الحال، حيث إن المسلمين يرون نزوله تدريجاً.

هذا الإستدلال غير صحيح، لأن من الممكن أن يكون المراد بالإنزال والتنزيل واحد وهو بدء النزول، فإنه إذا شرع نزول المطر في اليوم الفلاني، واستمر لعدة أيام، فيصح أن يقال مثلاً: سافرت يوم أمطرت السماء، أي في اليوم الأول من بدء نزوله. وكذلك الحال بالنسبة للقرآن؛ فإنه إذا بدأ نزوله في شهر رمضان، في ليلة القدر، فيصح أن يقال مجازاً مع وجود القرينة، وهي النزول التدريجي: نزل القرآن في شهر رمضان، ويكون المراد أنه قد بدأ نزوله التدريجي فيه.

وقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ محتف بقرينة حالية؛ يعلمها كل أحد وهو نزول خصوص أول سورة «إقرأ» واستمر ينزل تدريجاً بعد ذلك. وهذا كما صح أن يقال: ﴿كماء أنزلناه من السماء﴾، مع أن المطر ينزل تدريجاً. وما ذلك إلا لأهمية ذلك اليوم وخطره، وكل حادث خطير له امتداد زمني، إنما يسجل يوم شروعه، فإذا قيل مثلاً: متى كانت دولة العباسيين، فسيكون الجواب بذكر سنة التأسيس قطعاً.

وأما حديث البخاري في بدء الوحي والدال على اقتران نزول القرآن بالنبوة فسيأتي أنه باطل لا يصح.

ثم إنه يمكن تقريب كلام هذا المحقق بنحو آخر وهو أن قوله تعالى: ﴿أنزل فيه القرآن﴾ إنما هو حكاية عن أمر سابق، ولا يشمل هذا الكلام الحاكي له إلا بضرب من العناية والتجوز، ولا الذي يأتي بعده، وإلا لجاء التعبير بصيغة المضارع، أو الوصف فإنه يكون حينئذ هو الاوفق[1].

ولعل ابن شهرآشوب كان ينظر إلى هذا حين قال في متشابهات القرآن: «والصحيح: أن القرآن في هذا الوضع لا يفيد العموم، وإنما يفيد الجنس، فأي شيء نزل فيه؛ فقد طابق الظاهر»[2].

هذا ولكن قد ورد ما يؤيد نزول القرآن دفعة واحدة أولاً، ثم صار ينزل تدريجاً بعد ذلك؛ فقد روي عن الإمام الصادق «عليه السلام» قوله: يا مفضل، إن القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة، والله يقول: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾. وقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين﴾ وقال: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك﴾

قال المفضل: يا مولاي فهذا تنزيله الذي ذكره الله في كتابه، وكيف ظهر الوحي في ثلاث وعشرين سنة؟

قال نعم يا مفضل، أعطاه الله القرآن في شهر رمضان وكان لا يبلغه إلا في وقت استحقاق الخطاب، ولا يؤديه إلا في وقت أمر ونهي فهبط جبرائيل بالوحي، فبلغ ما يؤمر به وقوله: لا تحرك به لسانك لتعجل به[3].

ولكن ما سبق يضعف درجة الإعتماد على هذه الرواية.

---

(١) قد أشار إلى ذلك في: التمهيد في علوم القرآن ج١ ص ٨٤.

(٢) التمهيد في علوم القرآن ج١ ص ٨٥.

(٣) البحار ج٨٩ ص ٣٨.

بدء الوحي و أول ما أنزل:

لقد كان بدء الوحي في غار حراء، وهو جبل على ثلاثة اميال من مكة ويقال: هو جبل فاران، الذي ورد ذكره في التوراة إلا إن الظاهر هو أن فاران إسم لجبال مكة، كما صرح به ياقوت الحموي، حسبما تقدم، لا لخصوص حراء.

وكان «صلى الله عليه وآله وسلم» يتعبد في حراء هذا، على النحو الذي ثبتت له مشروعيته، وكان قبل ذلك يتعبد فيه عبد المطلب.

وأول ما نزل عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» هو قوله تعالى: **﴿بسم الله الرحمان الرحيم إقرأ بسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق﴾**[١].

وهذا هو المروي عن أهل البيت «عليهم السلام»[٢]، وروي أيضاً عن غيرهم بكثرة. ويدل عليه أيضاً سياق الآيات المذكورة.[٣]

وربما يقال: إن أول ما نزل عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» هو فاتحة الكتاب[٤]، ولا سيما بملاحظة: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قد صلى في اليوم الثاني هو «صلى الله عليه وآله وسلم» وعلي «عليه السلام»، وخديجة «عليها السلام»، حسبما ورد في الروايات.

ولكن من الواضح: أن ذلك لا يثبت شيئاً؛ إذ يمكن أن تنزل الفاتحة بعد سورة إقرأ، بلا فصل، ثم يصلي ويقرؤها في صلاته. كما أن

---

(١) سورة العلق: ١و٢ وراجع تفسير البرهان.

(٢) تفسير البرهان ج١ ص ٢٩.

(٣) الدر المنثور ج٦ ص ٣٦٨ والاتقان ج١ ص ٢٣.

(٤) الدر المنثور ج١ ص ٢٤.

من الممكن أن تكون صلاتهم آنئذٍ غير مشتملة على فاتحة الكتاب، ثم وجبت بعد ذلك وإن كان لم يذكر أحد ذلك.

أما قوله: عن الذي لا يقرأ بفاتحة الكتاب: لا صلاة له[1] وقوله «صلى الله عليه وآله وسلم» : كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج[2].

فهو لا ينافي ذلك إذ يمكن أن يكون ذلك تشريعاً حادثاً بعد ذلك.

هذا كله عدا عن أنهم يروون: أن سورة الفاتحة قد نزلت بعد المدثر[3] أي بعد عدة سنوات من البعثة.

هذا، وثمة قول آخر، وهو أن أول ما نزل عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» هو سورة المدثر[4]! وستأتي الإشارة إلى أنها قد نزلت بعد المرحلة الإختيارية أو فقل: السرية، كما أنهم يروون روايات عديدة تنافي قولهم هذا[5].

وعلى كل حال، فإن تحقيق هذا الأمر لا يهمنا كثيراً، فلا بد من توفير الفرصة للحديث عن الأهم فالأهم.

ولا بأس بأن نعطف الكلام هنا إلى الحديث عن معجزته «صلى الله عليه وآله وسلم»، وهي القرآن، وسر إعجازه، فان ذلك ربما تكون له أهميته البالغة، لمن يريد أن يقرأ سيرة النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، ويستفيد منها: عقيدة، وشريعة، وأدبا، وسلوكاً.

---

(١) الوسائل ج٤ ص ٧٣٢.

(٢) الوسائل ج٤ ص ٧٣٣.

(٣) الاتقان ج١ ص ٢٤.

(٤) الاتقان ج١ ص ٢٣، والبخاري، وغيره والأوائل للطبراني ص ٤٣ وستأتي الرواية.

(٥) راجع تفسير الميزان ج٢ ص ٢٢.

مع العلم بأن كثيراً من الأحداث قد جاءت مرتبطة بالقرآن، وكانت سبباً في نزول طائفة من آياته ولا بد من الإستدلال به عليها، فنقول:

إعجاز القرآن:

لقد تحدى الله أعداء الإسلام بأن يأتوا بمثل القرآن، فلما عجزوا تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن، فعجزوا عن ذلك أيضاً، ثم صعد تحديه لهم، وطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فلو أنهم استطاعوا أن يأتوا ولو بقدر سورة الكوثر، التي هي سطر واحد، لثبت بطلان هذا الدين الجديد من أساسه، ما دام أنه هو قد قبل بهذا التحدي مسبقاً، ولكانوا قد وفروا على أنفسهم الكثير من الويلات، التي أقدموا عليها بإعلانهم الحرب على النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، والتي أدت إلى إزهاق النفوس الكثيرة، وهدر الطاقات العظيمة، وغير ذلك من مصائب وكوارث، انتهت بهزيمتهم، وانتصار الإسلام وقائده الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم».

فما هي تلك الخصيصة التي في القرآن، والتي جعلتهم يعجزون عن مجاراته، وحتى عن أن يأتوا بـ «سورة من مثله»؟!.

بل ما هي تلك الخصيصة التي سوغت التحدي بالقرآن للإنس والجن معاً دون اختصاص بزمان دون زمان، قال تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾**[1].

ربما يقال: إنها اخباراته الغيبية الصادقة، سواء بالنسبة إلى الماضين كقوله تعالى: **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت**

---

(١) الإسراء: ٨٨.

تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ [١]. أو بالنسبة لتنبؤاته المستقبلية، كقوله تعالى: ﴿ألم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾[٢]. وكاخباره بنتائج حرب بدر العظمى، وغير ذلك[٣].

وربما يقال: إنه لتضمن القرآن للمعارف العلمية، التي تنسجم مع العقل والبرهان. واخباراته عن سنن الكون وأسرار الخليقة، وأحوال النظام الكوني، وغير ذلك من أمور لا يمكن الوصول إليها إلا بالعلم والمعرفة الشاملة والواسعة، ألأمر الذي لم يكن متوفراً في البيئة التي عاش فيها النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كقوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى دقائق وحقائق علمية، في مختلف العلوم والفنون.

وربما يقال: إن إعجازه إنما هو في نظامه التشريعي الذي جاء به، والذي لا يمكن لرجل عاش في بيئة كالبيئة التي عاش فيها الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» وعانى من الظروف والأحوال الإجتماعية، ومستوى الثقافة في ذلك العصر، أن يأتي بمثل ذلك مهما كان عظيماً في فكره، وذكائه، وسعة أفقه.

ولربما نجد الإشارة إلى هذين الرأيين في قوله تعالى: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾[٤].

---

(١) هود ٤٩ وليراجع أيضا سورة يوسف ١٠٢ وسورة ال عمران ٤٤ وغير ذلك.

(٢) أول سورة الروم.

(٣) راجع: البيان للخوئي ص ٨١ ـ ٨٤.

(٤) يونس: ١٦.

وأخيراً، فلربما يقال: إن إعجاز القرآن هو في عدم وجود الإختلاف فيه، ولذلك ترى أنه قد تحداهم بذلك فقال: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ [١].

وثمة إشارات أخرى لجزئيات ربما يدخل أكثرها فما قدمناه... ولعل فيما ذكرناه كفاية.

وثمة قول آخر، أكثر شيوعاً ومعروفيه ولا سيما بين القدماء. وهو إعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة. وقد كتبوا في هذا الموضوع الشيء الكثير قديماً وحديثاً.

اما نحن فنقول: إن هذا الأخير هو السر الأعظم في اعجاز القرآن الكريم حقاً. وهو يستبطن سائر الجوانب الإعجازية المذكورة آنفاً وغيرها مما لم نذكره [٢].

لماذا الأخير فقط:

وأما لماذا هذا الأخير فقط دون سواه فإن ذلك واضح، حيث إننا نقصد بـ «البلاغة» معنى أوسع مما يقصده علماء المعاني والبيان، وهذا المعنى يستبطن جميع وجوه الإعجاز وينطبق عليها، وبيان ذلك يحتاج إلى شيء من البسط في البيان فنقول:

إنه إذا كان الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» قد أرسل للناس

---

(١) النساء: ٨١.

(٢) حيث يجد كل فريق في هذا القرآن ما يناسب فكره وعقليته ويراه معجزاً حقاً؛ فالإخبارات الغيبية والنظام الكامل الذي أتى به وغير ذلك من أمور لا تخفى مما يمكن لأهل كل لغة أن يدركوها هي من مصاديق البلاغة لهم. وحتى الفصاحة والبلاغة فإن بالإمكان لغير العربي أن يدركها أيضاً بتعلم اللغة العربية ومعرفة سر القرآن أو الاعتماد على النقل القطعي ممن قد اطلع على بعض جوانب إعجاز القرآن.

كافة فلا بد أن تكون معجزته بحيث يستطيع كل من واجهها: أن يدرك إعجازها، وأنها أمر خارق للعادة وأنها صادرة عن قدرة عليا، وقوة قاهرة، تهيمن على النواميس الطبيعية، وتقهرها. وإلا فإنه إذا جاء شخص مثلا إلى بلد، وادعى أنه يعرف اللغة الفلانية، ولم يكن أحد في البلد يعرف شيئاً من تلك اللغة، ولا سمع بها، فإنهم لا يستطيعون أن يحكموا بصدقه ولا بكذبه، إذ ليس لهم طريق لاثبات هذا الصدق أو الكذب.

وأما إذا ادعى أمراً لهم خبرة فيه، واستطاعوا ان يتلمسوا فيه مواقع خرقه للنواميس الطبيعية فلا بد لهم من التسليم له والقبول بدعوته، لأن ذلك يكون قاطعاً لعذرهم، وموجباً لخضوع عقولهم لما يأتي به.

وبكلمة. . لا بد أن تكون معجزة النبي في كل عصر متناسبة مع خبرات ذلك العصر، ولكل من أرسل إليهم؛ ليمكن إثبات إعجازها لهم، وإقامة الحجة عليهم. وإذا كان القرآن قد تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فلا بد أن يكون وجه الإعجاز فيه سارياً ليصل حتى إلى أصغر سورة فيه.

وإذا نظرنا إلى ما ذكروه آنفاً، فإننا نجد أن بعض السور لا تشتمل على شيء مما ذكروه. مع ان التحدي به وارد.

اضف الى ذلك: أن الاخبار بالغيب مثلا لا يمكن ان يكون قاطعاً لعذر من ألقي إليهم إلا بعد تحقق المخبر عنه. وقد يطول ذلك إلى سنوات عديدة. أما من يأتون بعد ذلك فلربما يصعب عليهم الجزم بتحقق ما أخبر به.

أما القضايا العلمية ـ فلربما لا يكون من بينهم من له الخبرات اللازمة في تلك العلوم؛ ليمكن إدراك الإعجاز فيها؛ فإن ذلك رهن بتقدم العلم، وتمكن العلماء من استجلاء تلك الحقائق من القرآن.

وحتى لو أدرك ذلك بعضهم، فلربما يحمله اللجاج، أو غير ذلك

من مصالحه الشخصية(بنظره) على إنكار ذلك وإخفائه ـ كما كان الحال بالنسبة الى أهل الكتاب، الذين كانوا يعرفون النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» كما يعرفون أبنائهم، ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. ولكن الاحبار والرهبان أخفوا ذلك وأنكروه، لمصالح شخصية، أو لغير ذلك، مما وجدوا فيه مبرراً للاقدام على خداع أنفسهم، وخداع غيرهم.

وهكذا يقال بالنسبة للإعجاز التشريعي، وغير ذلك من أمور.

ويبقى سؤال.

ما هو وجه الإعجاز في القرآن إذن؟

وفي مقام الإجابة على هذا السؤال نقول:

بلاغة القرآن:

قبل كل شيء ينبغي التذكير بأن ما ذكرناه آنفاً.

لا يعني أن الإخبار بالغيب، وغير ذلك مما ذكرناه، ومما لم نذكره، غير موجود في القرآن. بل هو موجود فيه بأجلى مظاهره وأعظمها، وهي معجزات أيضاً لكل أحد ولكننا نقول: إن ذلك ليس هو الملاك الأول والأخير لإعجاز القرآن، وإنما ملاك الإعجاز فيه هو أمر يستطيع كل أحد أن يدركه، وأن يفهمه ـ وهو أمر تشتمل عليه حتى السورة التي لا تزيد على السطر الواحد، كسورة الكوثر مثلاً. وهو أيضاً أمر يجده كل أحد، مهما كان تخصصه، ومهما كان مستواه الفكري، وأياً كان نوع ثقافته، وفي أي عصر، وفي أي ظرف. وهو كذلك أمر يشمل كل ما تقدم، وسواه مما لم نذكره، ويضمه تحت جناحيه؛ وذلك الأمر هو:

البلاغة:

فأما أن ما تقدم يرجع: إلى البلاغة؛ فلأن حقيقة البلاغة ـ كما

عرفوها ـ هي: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أو للاعتبار المناسب. والقرآن مطابق لمقتضى الحال دائماً وفي كل زمان، والى الابد ومع كل شخص؛ لأنه خطاب لهم جميعاً، ومعجز له جميعاً؛ فحين يخبر عن الغيب، فإنما اقتضى الحال ذلك. وكذلك حين يكشف عن أسرار الكون، وخفايا الطبيعة، ويشير الى بعض الحقائق العلمية، وكذلك أيضاً حين يضع أعظم تشريع، وأروع نظام عرفته الإنسانية، إلى غير ذلك مما تقدم ذكره وما لم نذكره.

بل أن تكون ظروف نشأة الرسول الاعظم هي تلك، فإن ذلك له أهمية كبرى في قبول الدعوة، والإذعان لها. وكذلك فان الكلام الذي يختلف صدره وذيله، أو يختلف من وقت لآخر. مع كون الهدف واحدا، والمخاطب والمتكلم واحدا. لا يمكن أن يكون بليغاً، ولا مطابقاً لمقتضى الحال، كما يقولون.

الإعجاز بالبلاغة كيف ؟ ولماذا؟!

وأما كيف عجزت الإنس والجن، عن مجاراة هذا القرآن. وكيف أمكن اعتبار البلاغة القرآنية هي سر الإعجاز فيه؛ فان ذلك يحتاج إلى توسع في القول، وبسط في البيان، فنقول:

إن لدلالة الكلام على المعنى في مقام التفهم والتفهيم شروطاً:

منها: أن يكون اللفظ الذي يلقيه المتكلم قادراً على تحمل المعنى المطلوب، بأي نحو من أنحاء التحمل، سواء من حيث مفردات الجملة، أو من حيث نوعية تركيبها، أو من جهة المقايسة بينها وبين غيرها.

ومنها: أن يكون المستوى الفكري والثقافي للمتكلم بحيث يستطيع أن يقصد تلك المعاني التي يقدر اللفظ على تحملها.

ومنها: أن يكون ذلك المعنى منسجماً أيضا مع نوعية اختصاص

ذلك المتكلم، ومع مراميه وأهدافه.

ومنها: قدرة المخاطب او المخاطبين على استيعاب مقصود المتكلم، ولو على امتداد الزمن.

هذه هي الشروط التي لابد أن تتوفر في عملية التفهم والتفهيم بين كل متكلم ومخاطب.

ولكن ذلك يحتاج إلى توضيح وتطبيق بالنسبة لما نحن بصدده، فنقول:

التوضيح والتطبيق:

وفي مجال التوضيح والتطبيق نقول:

إن اللغة العربية بما لها من خصائص ومميزات أقدر اللغات إطلاقاً على تحمل المعاني، فنجد أنهم يذكرون للجملة المؤلفة من كلمتين فقط عشرات الخصائص والمميزات التي تشير كل منها إلى العديد من الآثار المحتملة، التي يمكن للفظ أن يتحملها بالنسبة للمعنى المدلول، فالمسندإليه مثلاً تارة يكون إسماً جامداً، وأخرى مشتقاً. وتارة يكون ظاهراً، وأخرى مضمراً، مقدماً أو مؤخراً، محذوفاً أو مذكوراً، منكراً أو معرفاً، والتعريف لكل واحد منها له أنحاء، لكل منها آثار وإشارات لخصوصيات في المعنى.

وكذا الحال في جانب المسند، الذي تارة يكون فعلاً ـ بأقسامه الثلاثة ـ وأخرى إسما، جامداً، أو مشتقاً، معرفاً أو منكراً، مقدماً أو مؤخراً، مذكوراً أو محذوفاً، إلى آخر ما هنالك. وكل واحدة من هذه لها آثار مختلفة ومتعددة يحتمل إرادتها أيضاً.

فمثلاً قد يكون ذكره للتحقير أو عكسه، أو للتبرك به، أو إيهام

استلذاذه، أو للتنبيه على غباوة السامع، أو للتقرير، أو للايضاح إلى غير ذلك.

وقد يحذف للتعظيم، أو للتحقير، أو للاستغناء عنه، او لإيقاع السامع في حيرة، إلى غير ذلك مما هو مذكور في محله.

وكذا سائر الخصوصيات التي ذكرناها، ومالم نذكره أكثر بكثير.

هذا بالاضافة الى الاستعارات، والكنايات، والتعريضات، والإشارات، وغير ذلك مما تكفل لبيانه علم المعاني والبيان والبديع.

حتى إنهم ليذكرون العديد من الإمتيازات لقوله تعالى: ﴿في القصاص حياة﴾ على ما كان أبلغ كلام عند العرب. وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل».

ويكفي أن نشير الى أن جملة زيد قائم، إذا لوحظ المسند اليه فيها فإنه ظاهر، ومقدم، ومعرف بالعلمية. وكل من هذا الثلاثة يقع على حالات كثيرة. وكذا الحال بالنسبة للمسند وهو كلمة ـ قائم. ثم لا بد من ملاحظة الهيئة التركيبية، وموقعها من غيرها، ومع مالها من متعلقات.

وهكذا يتضح أن الجملة الواحدة ربما تفيد معنى له العديد من الخصوصيات الهامة، فكيف إذا لوحظت تلك الجملة مع غيرها من الهيئات التركيبية الأخرى، ثم أريد استخلاص المعاني من المجموع.

هذا كله، بالإضافة الى لزوم معرفة أساليب العرب، وطرائق استعمالاتهم للكلام ومقاماتها، فإن ذلك يفيد كثيراً في الوقوف على معاني القرآن، وفهم مراميه.

وقد روي أن بعضهم كان في مجلس الإمام السجاد «عليه السلام»؛ فقال له: يا ابن رسول الله، كيف يعاتب الله، ويوبخ هؤلاء الاخلاف على قبائح اتاها أسلافهم، وهو يقول: ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾؟!

فقال زين العابدين «عليه السلام»:

«إن القرآن نزل بلغة العرب، فهو يخاطب فيه أهل اللسان بلغتهم؛ يقول الرجل التميمي، قد أغار قومه على بلد، وقتلوا من فيه: أغرتم على بلد كذا، وفعلتم كذا؟!

ويقول العربي: نحن فعلنا ببني فلان، ونحن سبينا آل فلان، ونحن خربنا بلد كذا، لا يريد أنهم باشروا ذلك، ولكن يريد هؤلاء بالعذل، وأولئك بالافتخار: أن قومهم فعلوا كذا.

وقول الله عز وجل هذه الآيات انما هو توبيخ لأسلافهم، وتوبيخ العذل على هؤلاء الموجودين؛ لأن ذلك هو اللغة التي نزل بها القرآن؛ ولأن هؤلاء الأخلاف أيضاً راضون بما فعل أسلافهم، مصوّبون لهم؛ فجاز أن يقال: أنتم فعلتم؛ إذ رضيتم قبح فعلهم[1].

ولا بد أيضاً من معرفة خصوصيات الألفاظ وأسرار إختياراتها لمواقعها. وقد روي: انه لما نزل قوله تعالى: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال إبن الزبعري: فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى «عليه السلام» فأخبر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فقال: يا ويل أمه، أما علم إن ما لما لا يعقل ومن لمن يعقل الخ[2].

هذا، ولقدرة اللغة العربية على تحمل المعاني الدقيقة والعميقة، نجد أن الله تعالى قد اختارها لتكون لغة القرآن، وقد نوه بذلك، ووجه إليه الأنظار والافكار، ودعا الى استخلاص المعاني الدقيقة من كتابه الكريم

---

(١) الاحتجاج ج٢ ص ٤١ والبحار ج٤٥ ص ٢٩٦.

(٢) راجع: الكنى والألقاب ج١ ص ٢٩٤.

فقال: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[١] وقال: ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾[٢] وقال: ﴿نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات؛ فلننظر بدقة إلى قوله: ﴿لعلكم تعقلون﴾وإلى قوله: ﴿لقوم يعلمون﴾وإلى قوله: ﴿مبين﴾فإنه كله يشير الى ما ذكرنا.

وبالنسبة للمستوى الفكري، وهو الشرط الثاني نقول: لو قال شخص عادي لا اطلاع له على شيء من العلوم: «كل شيء يحتاج الى علة». فإننا لا نفكر في مقصوده كثيراً، بل ينتقل ذهننا مباشرة إلى أن مراده هو المؤثر الظاهري في وجود الشيء؛ فإذا أراد شخص أن يقول: لعله أراد العلة الغائية أو المادية، أو الصورية، أو قصد بالعلة السبب، أو العلة التامة ونحو ذلك. فإننا نقول له فوراً: لا، إن كلامه لا يدل على ذلك ولا ينظر إليه.

ولكن ـ لو قال نفس هذه الكلمة إبن سينا مثلاً؛ فإننا لا بُدَّ أن نفكر لنعرف: هل أراد بالعلة واحداً مما تقدم أم لا؟. وهل أراد بالشيء البسيط أم المركب؟! وهل؟ وهل؟، إلى آخر ما هنالك من احتمالات، يمكن لابن سينا أن يقصدها من كلمة كهذه.

وإذا كان القائل طبيباً مثلاً فإننا لا بد أن نفتش عن معان تتناسب مع اختصاصه ونوع ثقافته. وحتى أهدافه، فان كل ذلك يؤثر تأثيراً كبيراً في تفهيم المعنى، ومعرفة نوعه ومستواه، حيث لا بد وان ينسجم مع تلك الاهداف، ويتلائم مع المستوى الثقافي والفكري للمتكلم.

وأما إذا كان القائل يمتاز بسعة الافق والشمولية، كأمير المؤمنين

---

(١) يوسف: ٢.

(٢) فصلت: ٣.

(٣) الشعراء: ١٩٩.

«عليه السلام»؛ فإننا لا بد وأن نُعِد أنفسنا لطرح أي احتمال، يتناسب مع شخصية ومستوى وثقافة واهداف أمير المؤمنين «عليه السلام». ولا بُد أن نبحث الأعوام والسنين لنتمكن من التقرب ـ ولو بشكل محدود ـ إلى مراميه وأهدافه؛ لأن فهم جميع الخصوصيات التي يرمي إليها المتكلم لا يمكن إلا من قبل من يداني ذلك المتكلم في سعة الافق، والشمولية، وعمق الفكر، والغوص في لجج الحقائق. وأين يمكن أن يوجد من هو مثل علي في مستواه العلمي الشامخ، سوى معلمه وأستاذه، النبي الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، ثم الائمة من ولده؟

ولعل إلى هذا يشير ما روي عنه «صلى الله عليه وآله وسلم»: يا علي، ما عرف الله إلا أنا وانت، ولا عرفني إلا الله وأنت، ولا عرفك إلا الله وأنا[1].

وبعد هذا فقد أصبح من الواضح: أن الله سبحانه وتعالى، وهو محيط بالكائنات، ومهيمن على كل الموجودات. وليس لعلمه حد محدود، ولا لصفته نعت موجود، إذا اختار اللغة العربية ليحملها بعض مراميه وأهدافه ـ وهي اللغة القادرة على التحمل بشكل مذهل وهائل، ولا تضارعها في ذلك أية لغة أخرى ـ فإن هذا الإنسان المحدود في ملكاته، وقدراته، وطاقاته النفسية، والفكرية، وغيرها، لا يمكنه حتى ولو بقي أبد الدهر، وحتى لو استعان بكل مخلوق وموجود، وسخر كل ما لديه من طاقات وإمكانات ـ لا يمكنه ـ أن يكتشف إلا القليل القليل من المعارف القرآنية، ولن يكون بإمكانه أن يأتي هو وكل من معه بمثل هذا القرآن، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

إذن، فلا بد أن نبقى ننتظر ـ باستمرار ـ أن يكتشف الإنسان كل

---

(١) مدينة المعاجز ص ١١٦ عن تأويل الآيات الباهرة في الأئمة الطاهرة ومستدرك البحار ج٧ ص ١٨١ و١٨٠ والبحار ج٣٩ ص ٨٤.

جديد في هذا القرآن، تبعاً لتقدم معارفه، ونمو قدراته الفكرية والثقافية.

وهذا تاريخ القرآن عبر القرون والأجيال، خير شاهد ودليل على ما نقول؛ حيث إننا نلاحظ: أن كل عصر يمتاز بتقدم علم أو علوم، ويتألق فيه نجمها، ويقوى سلطانها، ثم تعود تدريجاً لتتراجع أمام زحف علم أو علوم أخرى لتحتل هي بدورها أيضاً مكان الصدارة في البحث والعمق والتحقيق وهكذا ولكن هذا القرآن العظيم يبقى هو المهيمن في العصور كلها على العلوم والعلماء جميعاً، ويدرك الكل أنه فوق مستواهم، ولا تبلغه عقولهم، ولا تناله قدراتهم، ويجدون فيه ما يوجب خضوعهم لعظمته، ويدركون انه لا يزال فيه ما يعجزون عن إداركه، والإحاطة به، فضلاً عن مجاراته.

كما أنه مع اختلاف الثقافات، والإتجاهات، والمستويات على مرّ العصور؛ فإن الكل يجدون هذا القرآن مطابقاً لمقتضى الحال دائماً ومنسجماً معه، وهذا هو الإعجاز حقاً!!

وخلاصة الأمر: هذه المئات من السنين تمر، والاجيال تأتي وتذهب، والإنسان لا يزال يكتشف المزيد من معارف القرآن، وأسراره، ومراميه. وكلما توصل إلى شيء، فإنه يجد أن هذا القرآن ـ ليس فقط قد جاء بمعارف ومرام لا تتناسب مع عقلية وثقافة عصر نزوله، الأمر الذي يؤكد على أنه من عند الله تعالى ـ وإنما يتجاوز ذلك كله، ليثبت لكل أحد: أن أغواره لا تزال تحتضن المزيد من المعاني والاسرار، التي يرى هذا الإنسان نفسه عاجزاً عن الوصول إليها والحصول عليها.

وأكثر من ذلك، فلقد أصبح معروفاً: أن الإنسان كلما أعاد قراءة هذا القرآن؛ فإنه يجده جديداً عليه في معانيه ومراميه، وذلك بسبب اختلاف حالات وتوجهات الإنسان، ونوعية الصور الحاضرة آنياً لديه، والاجواء والحالات النفسية المهيمنة عليه. وهذه خصوصية ثابتة في

القرآن لا تتغير ولا تتبدل على مر الدهور والعصور، وسيأتي انه كلما ذهب قرن يأتي قرن آخر؛ فيطلعون على معنى جديد للآيات القرآنية ولا يزال الناس على ذلك الى يوم القيامة، على اعتبار أنه كلما ترقت البشرية في مداركها ومعارفها، كلما كانت أقدر على اكتشاف معارف القرآن، واستكناه أسراره. وعن أمير المؤمنين «عليه السلام» حول القرآن: ﴿**فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة. وحكم ما بينكم. وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون**﴾[1]

وعنه«عليه السلام»: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب»[2].

وعنهم «عليهم السلام»: «ظاهره أنيق، وباطنه عميق».

وعنهم «عليهم السلام»: «ظاهره حكم، وباطنه علم»[3] وما يشير إلى هذا المعنى كثير جداً لا مجال لاستقصائه.

ولعل إلى جميع ذلك يشير ما ورد عن الإمام الصادق «عليه السلام» وعن الإمام الحسين «عليه السلام»: كتاب الله على أربعة أشياء، على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق؛ فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء[4].

---

(١) البحار ج٩٢ ص ٨٢ عن تفسير القمي ج١ ص ٤.

(٢) البحار ج٩٢ ص ١٠٣ عن أسرار الصلاة وص ١٠٤ عن الغزالي: أنه(ع) لو أذن له الله ورسوله لشرح معاني ألف الفاتحة حتى يبلغ أربعين وقراً أو جملاً.

(٣) أصول الكافي ج٢ ص ٤٣٨.

(٤) البحار ج٩٢ ص ١٠٣ و٢٠ وج٧٨ ص ٢٧٨ عن كتاب الأربعين، وعن الدرة الباهرة، وجامع الاخبار ص ٤٨/٤٩.

ترجمة القرآن وتفسيره:

ومما تقدم نعرف: أن ترجمة القرآن وتفسيره غير ممكنين لهذا الإنسان المحدود بحدود الزمان والمكان، وغير المحيط بكل العلاقات الكونية، ولا المطلع على النواميس الطبيعية، في مختلف المجالات.

نعم، يمكن لمن يتصدى لترجمة القرآن أو لتفسيره أن يقول: هذا ما فهمته من القرآن، بحسب ما توفر لدي من أدوات تساعد على اكتشاف المعاني، من المفردات والهيئات التركيبية، وبحسب مستوى ثقافتي ومعارفي وقدراتي المحدودة بالنسبة الى الله الذي ليس لعلمه حد.

للقرآن ظهر وبطن:

قد تقدم آنفاً عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: لو أردت أن أوقر على الفاتحة سبعين بعيراً لفعلت او بما معناه . ويظهر صدق قوله هذا مما ذكرناه.

ويمكن بعد هذا: أن نفهم معنى قولهم «عليهم السلام»: إن للقرآن ظهراً وبطناً، أو أكثر، وقد روي هذا المعنى من طرق غير الشيعة أيضاً. وفسربما يشير إلى ما ذكرناه.

ففي خطبة منسوبة له «صلى الله عليه وآله وسلم»: «له ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، لا تحصى عجائبه، ولا يشبع منه علماؤه»[١].

وعنه«صلى الله عليه وآله وسلم»: «ما في كتاب الله آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حد مطلع»[٢].

---

(١) كنز العمال ج٢ ص ١٨٦، وليراجع ج١ ص ٣٣٧، وحياة الصحابة ج٣ ص ٤٥٦ عنه وعن العسكري، وراجع: نور القبس ص ٢٦٨/٢٦٩.

(٢) الزهد والرقائق، قسم ما رواه نعيم بن حماد ص ٢٣ وفي الهامش عن المشكاة ص

قال ابن المبارك: «سمعت غير واحدٍ في هذا الحديث: ما في كتاب الله آية إلا ولها ظهر وبطن، يقول: لها تفسير ظاهر، وتفسير خفي، ولكل حد مطلع، يقول: يطلع عليه قوم فيستعملونه على تلك المعاني، ثم يذهب ذلك القرن، فيجيء قرن آخر، فيطلعون منها على معنى آخر، فيذهب عليه ما كان عليه من كان قبلهم؛ فلا يزال الناس على ذلك إلى يوم القيامة»[1].

وعن إبن عباس قال: «إن القرآن ذو شجون، وفنون، وبطون، ومحكم، ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل»[2].

وعن الحسن البصري: ما أنزل الله عزوجل آية الاّ ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، وكل حد مطلع[3].

وعن إبن مسعود: «إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف وله ظهر وبطن وإن علي بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن[4].

= ٢٧، وراجع: الاتقان ج٢ ص ١٨٤ و١٢٨، والموافقات للشاطبي ج٣ ص ٣٨٢ وفي الهامش عن روح المعاني وعن المصابيح. وراجع غرائب القرآن (مطبوع بهامش جامع البيان) ج١ ص ٢٣و ٢١ ولباب التأويل للخازن ج١ ص ١٠ والفائق ج٢ ص ٣٨١ وراجع التراتيب الإدارية ج٢ ص ١٧٦.

(١) الزهد والرقائق، قسم ما رواه نعيم بن حماد ص ٢٣.

(٢) الاتقان ج٢ ص ١٨٥ عن ابن أبي حاتم.

(٣) كنز العمال ج١ ص ٤٨٨ عن أبي عبيد في فضائله، وعن أبي نصر السجزي في الإبانة.

(٤) حلية الأولياء ج١ ص ٦٥ والاتقان ج٢ ص ١٨٧، وهامش الموافقات ج٣ ص ٣٨٢ عن كتاب المصابيح، ومصابيح السنة ج١ ص ١٧٦ وفي هامشه عن موارد الظمآن ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ وعن غيره، وجامع البيان ج١ ص ٩ وكشف الأستار ج٣ ص ٩٠ ونزل الأبرار ص ٧٣ وأسمى المناقب ص ٨٢، ومجمع الزوائد ج٧ ص

وأوضح من ذلك في الدلالة على ما ذكرناه، ما نقل عن أبي الدرداء: «لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة»(١).

وقال علي «عليه السلام» لابن عباس، حينما أرسله لحجاج الخوارج: «القرآن حمال ذو وجوه»(٢).

وراجع ما يروى عن الإمام ابي جعفر «عليه السلام» حول أن للقرآن ظهراً و بطناً في المصادر المعدّة لذلك(٣).

بل قال بعضهم: إن الاخبار تدل على أن «للقرآن بطونا سبعة أو سبعين»(٤)

---

١٥٢ عن البزار، وأبي يعلى، والطبراني في الأوسط ولم يذكر الهيثمي قول ابن مسعود في علي (ع) وراجع: الغدير ج٧ ص ١٠٨ عن الحلية ومشكل الأثار ج٤ ص ١٧٢ و١٨٢، وترجمة الإمام علي(ع) من تاريخ ابن عساكر بتحقيق المحمودي ج٣ ص ٢٥ وفي الهامش عن الحلية وفرائد السمطين، والغدير ج٧ ص ١٠٧/١٠٨ وج٢ ص ٤٥ عن الحلية وج٣ ص ٩٩ و٢٢٤ عن مفتاح السعادة ج١ ص ٤٠٠.

(١) المصنف للصنعاني ج١١ ص ٢٥٥، والاتقان ج٢ ص ١٨٥ عن ابن سبع في شفاء الصدور، وحلية الأولياء ج١ ص ٢١١ والطبقات الكبرى ج٢ قسم ٢ ص ١١٤ والغدير ج٣ ص ٩٩ وج٢ ص ٤٥ عن أبي نعيم وعن مفتاح السعادة ج١ ص١٠٠.

(٢) نهج البلاغة ج٢ ص ١٥٠ بشرح عبده قسم الكتب والوصايا رقم ٧٧.

(٣) المحاسن للبرقي ص ٢٧٠ والبحار ج٩٢ ص ٧٨ - ١٠٦ وتفسير العياشي ج١ ص ١١ وتفسير البرهان ج١ ص ١٩ - ٢١ وتفسير الصافي ج١ ص ٢٩ و٣١. ومعاني الأخبار ص ٢٥٩ والغدير ج٧ ص ١٠٨ عن ابن مسعود، وميزان الحكمة ج١ ص ٩٥.

(٤) كفاية الأصول آخر مبحث استعمال اللفظ في أكثر من معنىً ووسائل الشيعة للكاظمي ص ١٣.

وقد ألفوا كتباً فيما تضمنه القرآن من علم الباطن[١].

وإذن فلماذا ينسب القول بأن للقرآن بطناً وظهراً إلى الشيعة فقط؟!

ولماذا أيضاً يشنعون على الشيعة إذا تفوهوا بهذا الأمر، أو كتبوه، إذا كانت الروايات الدالة عليه موجودة عند غيرهم، كما هي موجودة عندهم؟!

وإذا كان معنى الظهر والبطن: هو أن يكون ذلك المعنى الذي يزاح عنه الستار مما يمكن للفظ أن يتحمله، وللمتكلم أن يقصده ليكون بالنسبة للبعض بمنزلة البطن لهذا المعنى المكشوف؛ فأي محذور عقلي أو شرعي يحصل من الإلتزام بهذا؟!

وليكن للقرآن بطون سبعة أو سبعون، أو أكثر، يكتشفها هذا الإنسان كلما ترقى في مدراج المعرفة، أو يكشفها له الأئمة الراسخون في العلم، الذين أشار إليهم القرآن الكريم.

التقوى تعين على فهم القرآن:

وبعد، **فإن من الواضح**: أن الطهارة من الذنوب تعين على فهم القرآن، ففي دعاء ختم القرآن عن زين العابدين «عليه السلام» قال: «واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنساً، ومن نزغات الشيطان، وخطرات الوساوس حارساً، ولأقدامنا عن نقلها إلى المعاصي حابساً، ولألسنتنا عن الخوض في الباطل من غير ما آفة مخرساً، ولجوارحنا عن اقتراف الآثام زاجراً، ولما طوت الغفلة عنا من تصفح الإعتبار ناشراً، حتى توصل الى قلوبنا فهم عجائبه، وزواجر أمثاله الخ»[٢].

---

(١) التراتيب الإدارية ج٢ ص ١٧٩.

(٢) الصحيفة السجادية ص ١٣٦ الدعاء عند ختم القرآن.

المحكم والمتشابه:

هـذا وقد أشير الى وجود المحكم والمتشـابه في القـرآن في قـولـه تعـالى: «منه آيـات محكمات، هن أم الكتـاب، وأخر متشـابهات؛ فـأمـا الـذين في قلوبهم زيغ؛ فيتبعـون ما تشـابـه منـه، ابتغـاء الفتنـة، وابتغـاء تأويله»[1].

هذا، مع العلم بأن الله تعالى لا يريد أن ينزل لعباده كتاباً فيه الألغاز والاحاجي، بل هو كما قال تعالى: ﴿كتـاب أنزلنـاه إليك مبـارك ليدبـروا آيـاته، وليتـذكر أولـو الألباب﴾[2]. وقـال: ﴿أنزلنـاه قرآنـاً عربيـاً لعلكم تعقلون﴾[3].

إذن، فـلا بُـدَّ أن يـراد بـالمتشـابـه معنى ينسجم مـع واقـع القـرآن وأهدافه، ولعل التأمـل فيما قـدمناه يسهـل علينا فهم المـراد منه؛ ولأجـل إيضاح ذلك نقول:

إن المتشابه هو الكلام الذي لا ينبىء ظاهره عن المراد، بـل يحتمل من لم يكن راسخاً في العلم فيه وجوهاً من المعاني، التي لا يكون بعضها منسجمـاً مـع أهـداف ومبـادىء المتكلم، ولكن لـو دقق في اللفظ وفي خصوصياته، وجمع بين بعضها البعض لأمكنه إدراك عـدم إمكان تحملهـا لذلك المعنى الفاسد.

ولأجل ذلك، نجـد الذين في قلوبهم زيـغ يحاولـون انتهاز الفـرصة للتشبث بهذا النوع من الآيات ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وعطف اتجاهه؛ ليـلائم أهواءهم، ومن أجـل الطعن في القـرآن والإسـلام، ولـو ردوه إلى

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) سورة يوسف: ٢.

الرسول، والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه[1]؛ لأنهم يردون المتشابه الى المحكم الذي يبين أهداف ومرامي الله تعالى، ويوجه التعبير في المتشابهات ليفيد المعنى المقصود، ويبين بعض ما خفي من وجوهه وخصوصياته.

لا بد من وجود المتشابه في القرآن:

وينقل الرزاي: أن من الملاحدة من طعن في القرآن لاشتماله على المتشابه، إذ كيف يكون مرجعاً للناس في كل عصر، مع وفرة دواعي الإختلاف فيه؛ حيث يجد كل صاحب مذهب فيه مأربه؛ فان هذا لا يصدر عن الحكيم[2].

ولعل ما ذكرناه فيما تقدم يكفي في الإجابة عن هذه الترهات. ونزيد هنا ما ذكره العلامة الطباطبائي، فإنه قال ما حاصله:

إنه كان لا محيص عن وقوع التشابه في القرآن، لأنه كان يجري في تعابيره الرقيقة مع اساليب القوم، مع سمو معناه، وعمق مغزاه، في مقابل انحطاطهم في المستوى الفكري والثقافي.

وقد جاء القرآن بمفاهيم جديدة، كانت غريبة عن نوعية أفكار ومفاهيم المجتمع البشري آنذاك، ولا سيما في جزيرة العرب، البعيدة عن الثقافة والمعرفة، في حين التزامه في التعبيرعن تلك المقاصد العالية بنفس الأساليب التي كانت معروفة في ذلك العهد، الأمر الذي ضاق بتلك الألفاظ التي كانت موضوعة للتعبير عن معان محسوسة، أو قريبة من الحس، ومحدودة في نطاق ضيق، تتناسب مع ذهنية العربي وثقافته والتعبيرعن معان مبتذلة ـ لقد ضاق الأمر بتلك الألفاظ ـ عن أن تحيط بتلك

---

(١) النساء: ٨٣.

(٢) تفسير الرازي ج٧ ص ١٧١.

المفاهيم الرحبة الآفاق، البعيدة الاغوار، وجاء استعمال تلك الألفاظ للتعبير عن هذه المقاصد العالية غريباً عن المألوف العام، وعن ذهنية الإنسان العادي.

ومن ثم، فقد قصرت أفهامهم عن إدراك حقائقها ودقائقها، ولا سيما حين رأوا: أن القرآن يستعمل في التعبير عن مقاصده صنوف المجاز، والإستعارات، والتشبيهات، والكنايات، ودقائق الإشارات، واستعمل مختلف خصائص اللغة العربية، سواء منها ما يتعلق بالمفردات، أو بالهيئات التركيبية؛ ليمكن إخضاع تلك المعاني السامية للقوالب اللفظية المحدودة والمألوفة.

وكان ذلك سبباً في تقريب تلك المعاني الى أفهام العامة، من حيث أنه أخضعها للقوالب اللفظية، المأنوسة والمألوفة لديهم، وسبباً في بعدها، من حيث عدم قدرة تلك القوالب اللفظية على استيعاب معان لم تكن هي مستعدة للتعبير عن مثلها[1]. إلا بالتوسل بلطائف الاشارات والكنايات، ودقائق الخصائص اللفظية للتعبير عنها، حسبما أشرنا اليه من قبل؛ فصعب على الإنسان العادي إدراك تلك المقاصد العالية، واشتبه عليه الأمر؛ فكان لابد له من الأستعانة بالراسخين في العلم، الذين اختصهم الله بفضله وكرمه لإيضاح مقاصده وأهدافه ومراميه، ممن كانوا على مستوى رفيع من عمق الفهم، وسلامة التفكير، ونفذت بصيرتهم الى الحقائق الراهنة، فنالوها، وهم أئمة أهل البيت الأطهار «عليهم السلام».

التأويل:

لقد أشير الى التأويل في القرآن الكريم، وأن ثمة من يعرف هذا

---

(١) راجع: التمهيد في علوم القرآن ج٣ ص ١٩ ـ ٢٢ والميزان للعلامة الطباطبائي ج٣ ص ٥٨ ـ ٦٢ وعن تفسير المنار ج٣ ص ١٧٠. وقد نقلنا كلامهم بتصرف، فليلاحظ ذلك.

التأويل، وهم الراسخون في العلم، وان كانوا يعترفون بعجزهم عن إدراك كل الملابسات التي يمكن ان تكتنف هذا المعنى المقصود، إلا إذا أوقفهم الله تعالى على ذلك. قال تعالى: **﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾**[1].

وقد رأينا: أن بعض الفئات الضالة تحاول الإستفادة من موضوع التأويل بما يخدم أهدافها الهدامة، ومذاهبها الضالة؛ فجاؤا بالتأويلات التي تضحك الثكلى، حتى إنك لتجد بعض الأحزاب المنحرفة من الذين يعتنقون الماركسية، ويتظاهرون بالاسلام، يحاولون تفسير الاسلام والقرآن بحيث ينسجم مع الماركسية التي تناقضه أساساً، فيقولون ـ مثلاً ـ في قوله تعالى: **﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾**[2] ـ يقولون ـ: إن المراد بهذا اليوم ليس هو يوم القيامة، وإنما المراد به اليوم الذي تتحقق فيه الاشتراكية، ويزول النظام الطبقي، وتنتفي فيه الملكية الشخصية[3].

بل قالوا: إن المقصود بالمعاد في الإسلام والقرآن، هو القضاء على النظام الطبقي في المجتمع ليس إلا.

الى غير ذلك من ترهات بعيدة عن روح الإسلام والقرآن، جاء بها هؤلاء وغيرهم من الفئات الضالة.

والحقيقة هي: أن هذا ليس هو التأويل الذي أشار إليه القرآن، وإنما هو التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه بشدة من قبل المعصومين

---

(١) آل عمران: ٧.

(٢) ابراهيم: ٣١.

(٣) راجع كتاب: توحيد عاشوري (فارسي).

«عليهم السلام». وهذا بعينه هو اتباع ما تشابه من القرآن، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله.

وأما التأويل الذي لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، الذين هم أهل البيت «عليهم السلام»، حسب نص الروايات[1] فهو معرفة ما يؤول إليه الأمر، بحسب ما تضمنه الكلام من إشارات ودلالات؛ كقوله: هذا تأويل رؤياي.

وبعبارة أخرى: التأويل هو الكشف عن المرامي والمعاني التي يشير اليها اللفظ، بما له من خصوصيات، في مفرداته، وهيئاته التركيبية، وبعد مقايسته بغيره وملاحظة مدى انسجام ذلك المعنى مع مبادىء وأهداف المتكلم نفسه.

وإذا ما أريد الوصول إلى واقع المعنى، من الآيات القرآنية بما له من خصوصيات وأحوال؛ فلا بد من الرجوع إلى من يتمكن بما أوتي من معارف وعلوم، حتى أصبح من الراسخين في العلم، للكشف عن المعاني القرآنية الدقيقة، التي يخفى على غير الراسخين كيفية تحمل اللفظ لها. وإن كان بالنسبة إليهم ربما يكون من البديهات. فيرجعون ذلك المتشابه الى ذلك المحكم.

ومن هنا تبرز الحاجة المستمرة الى هؤلاء الراسخين في العلم، الذين ورد في الروايات أنهم ـ بالذات ـ أئمة أهل البيت صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين.

فالتأويل هو الكشف عما تؤول إليه المعاني، بواسطة معرفة سائر خصوصياتها ومراميها.

---

(١) راجع تفسير نور الثقلين: ج١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٢، وتفسير البرهان: ج١ ص ٢٧٠.

الحروف المقطعة في القرآن

وقد كثر الحديث عن الحروف المقطعة الواردة في فواتح السور القرآنية، وتعددت وتشعبت الأقوال في ذلك، حتى عدّ المفسرون ما يقرب من عشرين قولاً حول المراد منها، نذكر منها ما يلي:

١ ـ هي من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله سبحانه.

١ ـ هي أسماء للسور التي وقعت في أوائلها.

٣ ـ إنها أسماء لمجموع القرآن.

٤ ـ إنها أسماء لله سبحانه فـ«ألم» معناها: أنا الله العالم و«ألمر» معناها: أنا الله أعلم وأرى. وهكذا.

٥ ـ إنها أسماء لله مقطعة لو أحسن تأليفها لعلم إسم الله الأعظم، فـ«ألر، وحم، ون». تصير: الرحمان. وهكذا.

٦ ـ إن هذه الحروف شريفة لكونها مباني كتبه المنزلة وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وأصول لغات الأمم.. وقد أقسم الله تعالى بهذه الحروف.

٧ ـ إنها إشارات إلى آلائه سبحانه، وبلائه، ومدة الأقوام وأعمارهم وآجالهم[1]!

٨ ـ إنها إشارة إلى بقاء هذه الأمة بحسب حساب الجمل.

٩ ـ إنها تسكيت للكفار الذين تواصوا فيما بينهم أن: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيها»؛ فكانوا إذا سمعوا هذه الحروف استغربوها، وتفكروا فيها، فيقرع القرآن مسامعهم.

---

(١) هناك رواية تشير إلى شيء من ذلك أيضاً، فراجع: المحاسن للبرقي ص ٢٧٠ والبحار ج٩٢ ص ٩٠.

١٠ ـ إنها للإشارة الى معان في السورة؛ فكلمة (ن) إشارة الى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود وكلمة (ق) إشارة الى القرآن، أو الى القهر [١].

إلى غير ذلك من أقوال لا مجال لتتبعها.

ولعل آخر ما يمكن أن يعتبر رأياً في هذا المجال.. هو ما ذكره بعض المتاخرين، واعتبر بمثابة «إعجاز مدهش جديد للقرآن الكريم يكتشفه عالم مصري». وهو: أن هذه الحروف المقطعة تدخل كعنصر هام وحاسم في موضوع الإعجاز العددي للقرآن..

ونحن لا نريد أن نسيء الظن فيما يتعلق بهذا الرأي، على اعتبار أنه يعتمد الرقم(١٩)، ويتخذه محوراً في مجمل استنتاجاته، وهو الرقم المقدس عند طائفة البهائية الضالة..

كما أننا لا نريد المبالغة في التشاؤم إلى حد أن نعتبر أن ذلك يهدف إلى صرف الأنظار عن دقائق المعاني القرآنية الباهرة الى الإهتمام بالظواهر والقوالب اللفظية.

لا.. لا نريد ذلك.. فإننا نأمل أن يكون ثمة قدر كبير من حسن النية، وسمو الهدف. وإنما نريد أن نؤكد على أن بعض الباحثين[٢] قد تتبع هذه النظرية بالبحث والتمحيص، حتى خرج بنتيجة حاسمة، مفادها: الجزم بخطأ هذه النظرية، وذلك لعدم صحة الأرقام التي قدمتها، واعتبرتها أساساً صالحاً للتدليل على قيمتها العلمية.

فقد قال هذا المحقق الذي رمز لنفسه بـ «أبو محمد»:

قولهم: كلمة «اسم» تتكرر ١٩ مرة بالضبط.

---

(١) تفسير الميزان ج١٨ ص ٦، ٧.

(٢) هو العلامة المحقق السيد مهدي الروحاني.

أقول: ذكر في المعجم المفهرس عدد ١٩ تحت كلمة إسم وذكر أن كلمة «بسم» تكررت ثلاث مرات في قوله تعالى: بسم الله مجراها، وبسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله. وإنه من سليمان وإنه بسم الله.

وذكر كلمة «إسمه».

وقال: إنها تكررت خمس مرات.

وقولهم: إن كلمة الرحيم تتكرر ١١٤ مرة نقول: بل تتكرر ١١٥ مرة با لضبط.

وقالوا: إن حرف (ن) قد تكرر في سورة القلم ١٣٣ أي ١٩× ٧

ونقول: بل يتكرر ١٢٩ مرة فقط. ولو كررنا المشددات مثل أن فإن المجموع يصير أكثر من ذلك بكثير.

وقالوا: إن حرف (ص) يتكرر في كل من: سورة الاعراف التي أولها (المص) وسورة ص، وسورة مريم التي أولها (كهيعص) ١٥٣ أي ١٩× ٨

ونقول: إن عدد الصادات في سورة الأعراف هو ٩٠ صاداً، ولعله قد اشتبه علي واحد أو إثنان، وفي سورة مريم ٢٤ (كذلك) وفي سورة ص ٢٧ مرة فليس المجموع ١٥٣ ولا في كل واحدة منها ١٥٣ أيضاً[١]

أما العلامة الطباطبائي قدس سره، فقد أورد على الاقوال التي سلفت باستثناء هذا الاخير، حيث لم يذكره قدس سره .. بأن:

دعوى كون الحروف المقطعة من المتشابهات لا يصح، وذلك لأن التشابه من صفات الآيات التي لها دلالة لفظية على مداليلها، وليست الحروف المقطعة من هذا القبيل.

---

(١) راجع مجلة المنطلق اللبنانية سنة ١٣٩٩ هـ العدد الخامس ص ٨٢.

وأما سائر الأقوال، فإنما هي تصويرات لا تتعدى الاحتمال، ولا دليل يدل على شيء منها، وأما الروايات التي ربما يستظهر منها بعض التأييد لبعض تلك الأقوال، فقد ردها رحمه الله تعالى بضعف السند تارة ولضعف الدلالة أخرى، حيث لا يوجد فيها تقرير من النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لما فهمه الآخرون منها أو لأن مفاد الرواية أن هذه الحروف من قبيل الرمز لمعان تكرر بيانها، ولا حاجة لاستعمال الرمز في التعبير عنها.

ثم استظهر رحمه الله: أن هذه الحروف هي رمز بين الله سبحانه وبين رسوله، خفي عنا، لا سبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودعة في السور ارتباطاً خاصاً، حيث وجد رحمه الله تشابهاً في سياق وفي مضامين السور التي اشتركت حروف معينة في فواتحها، كالطواسين والحواميم، والميمات والراءات ونحو ذلك.

ونقول:

إننا لا نستطيع الموافقة على ما ذكره رحمه الله تعالى، فإن القرآن ليس كتاب الغاز، أو أحاجي، وإنما أنزله الله تعالى: ﴿هدى للناس﴾[1]، ﴿ليدبروا آياته﴾[2]، ﴿بلسان عربي مبين﴾[3]، ﴿قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[4]، ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون﴾[5].

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) ص ٣٨.

(٣) سورة الشعراء، ١٩٩.

(٤) سورة يوسف: ٢.

(٥) فصلت: ٣.

وقد لاحظ بعض المحققين: أن تعقيب هذه الأحرف بأن هذا الكتاب مبين وواضح، وأنه قرآن عربي لقوم يعملون، أو لعلكم تعقلون، لا يناسب كون تلك الألفاظ رموزاً، أو من قبيل الألغاز والأحاجي، قال تعالى في سورة يوسف: ألم، تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون.

ومهما يكن من أمر، فإن لدينا من الشواهد والدلائل ما يكفي لإعطاء فكرة عن المراد من هذه الحروف. ونستطيع بيان ذلك في ضمن النقاط التالية:

١ ـ إننا في نفس الوقت الذي نعتبر فيه أن ما سنذهب إليه ليس هو المقصود النهائي من هذه الأحرف، فإننا نؤكد على أننا لا نستعبد إرادة سائر المعاني، مما ذكر أو لم يذكر منها، إذ دل الدليل على إرادتها أيضاً، فإن للقرآن ظهراً وبطناً، ولعل لإختلاف الأزمنة، وتقدم الفكر والعلم، تأثيراً في فهم الكثير من المعاني الأخرى، التي يمكن أن تكون هذه الأحرف مشيرة إليها، أو دالة عليها كبير، بنحو من أنحاء الإشارة والدلالة.

٢ ـ إننا نلاحظ: أننا لم نجد في التاريخ ما يشير إلى أن أيا من الصحابة أو من غيرهم من المشركين أو من أعداء الإسلام قد تصدى للسؤال أو الإستفهام عن معاني هذه الأحرف، وعما ترمي إليه..

ولو سلمنا جدلاً أن سكوت الصحابة يمكن أن يكون ناشئاً عن إيمانهم العميق. وعن وصولهم الى درجة التسليم والخضوع لكل ما يأتي به النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نتيجة لما رأوه من الآيات الباهرة، والمعجزات القاهرة ـ رغم أن ذلك لا ينطبق على كثيرين غيرهم.. ورغم عدم منافاة ذلك للسؤال الاستفهامي عن أمر كهذا ـ فإننا لا نستطيع أن نفسر سكوت المشركين وغيرهم من أعداء الإسلام عن أمر كهذا. وهم في موقع التحدي والمجابهة، ويحاولون التشبث ولو بالطحلب للطعن في

الإسلام والنبوة والقرآن.

فسكوتهم هذا ـ والحالة هذه ـ لا يعني إلا أنهم قد فهموا منها معنى قريباً إلى أذهانهم، وأن ذلك المعنى الذي فهموه كان يكفي للإجابة عما يمكن أن يراود أذهانهم من تساؤلات . .

٣ ـ **إننا نجد**: أن هذه الحروف قد وردت في تسع وعشرين سورة. ستة وعشرون منها نزلت في مكة، وثلاث منها نزلت في المدينة. وحتى هذه السور التي نزلت في المدينة يلاحظ: أن إثنتين منها قد نزلتا في أوائل الهجرة، حيث كان الوضع الديني والإيماني فيها لا يختلف كثيراً عنه في مكة، ولا سيما مع وجود اليهود وشبهاتهم ومؤامراتهم إلى جانب المشركين فيها.

وواحدة منها وهي سورة الرعد قد نزلت بعد ان كثر الداخلون في الإسلام رغباً أو رهباً، وكثر المنافقون حتى ليرجع إبن أبي بثلث الجيش في غزوة أحد. . وأصبح اليهود وغيرهم ممن وترهم الإسلام يهتمون بالكيد للإسلام من الداخل، بعد أن عجزوا عن مقاومته عسكرياً وفكرياً، وعقائدياً بشكل سافر. . فجاءت سورة الرعد لتكرر التحدي بهذه المعجزة: القرآن، كأسلوب أ مثل لبعث عمق عقيدي وإيماني جديد في المسلمين، ومواجهة غيرهم بالواقع الذي لا يجدون لمواجهته سبيلا إلا بالتسليم والبخوع والإنقياد له.

وهذا ما يفسر لنا السر في أننا نجد أسلوب وأجواء سورة الرعد لا تختلف كثيراً عن أجواء وأسلوب غيرها من السور المكية، وأن هنالك توافقاً فيما بينها في إدانة وضرب كل أساليب التضليل أو التزوير، والصدود عن الحق . .

ونستطيع بعد كل ما تقدم أن نصل إلى النتيجة التالية، وهي:

أن ورود هذه الحروف في خصوص السور المكية، وفي ثلاث سور نزلت في أجواء لا تخلتف كثيراً عن أجواء مكة ليدل دلالة قاطعة على أنها إنما جاءت في مقام التحدي للمشركين، ولأعداء الإسلام.. وأن عدم اعتراض هؤلاء، أو حتى عدم سؤالهم، وكذلك عدم سؤال أي من الصحابة المؤمنين عن معاني هذه الحروف إنما يشير الى انهم إنما فهموا منها معان قريبة إلى أذهانهم، كافية للإجابة على ما ربما يختلج في نفوسهم من أسئلة حولها. وليس ذلك إلا ما ذكرنا من التحدي بهذا القرآن، المركب من أمثال هذه الحروف التي هي تحت اختيار الجميع، مع أنه يعجز عن مجاراته والإتيان بمثله وحتى بسورة من مثله، الجميع.

٤ - إننا إذا راجعنا الآيات التي وقعت بعد هذه الحروف، فإننا نجد:

ألف: أن جميع السور التي وقعت الحروف المقطعة في فواتحها باستثناء سورتين أو ثلاث نجد الأيات التي وقعت بعد هذه الحروف تتحدث عن الكتاب وآياته، أو القلم أو القرآن، ونحو ذلك كقوله تعالى:

﴿المص * كتاب أنزل إليك﴾(الاعراف).

﴿المر * كتاب أنزل إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور﴾(إبراهيم).

﴿حم * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾(الزخرف).

﴿الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾(هود).

﴿حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾(الدخان)

﴿ص * والقرآن ذي الذكر﴾

﴿ن * والقلم وما يسطرون﴾.

وحتى تلك السور الاثنتان أو الثلاث يمكن أن يكون في تلك القصة، أو التنبؤات، أو الحِكم التي تذكر بعد هذه الحروف من الاعجاز ما يكفي لأن يجعل تركيبها من أمثال تلك الحروف المذكورة، وعجز الغير عن الإتيان بمثلها كافياً عن التصريح في ذلك. .

ب: إننا نجد أن الآيات التي وقعت بعد الأحرف المقطعة قد صُدِّرت باسم الإشارة ليكون خبراً عن الحروف المقطعة، لأنه إشارة لما قبله. ولا يصح أن يكون إشارة لما بعده لأن ما بعده ليس الالف ليكون بدلاً أو عطف بيان له. . وذلك مثل قوله تعالى:

﴿الر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾(يوسف).

﴿الر * تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾(الحجر)

﴿الر * تلك آيات الكتاب الحكيم﴾(يونس).

وكذلك الحال بالنسبة لسورة الرعد، والحجر وغيرها من السور.

أما مثل قوله تعالى: **﴿الم * ذلك الكتاب﴾** فالكتاب بدل أو عطف بيان.

ج: ما هو من قبيل قوله تعالى:

﴿حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾(فصلت). فإن قوله تنزيل خبر لقوله: **﴿حم *﴾** كما قاله الفراء، وكما هو الظاهر . .

وجعل كتاب خبراً لتنزيل، لا يستسيغه الذوق السليم، ولا ينسجم مع المعنى المقصود، ولا سيما مع تنوين كلمة تنزيل وتنكيرها. وكذلك

الحال في قوله تعالى:

﴿الم * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾(السجدة).

﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾(المؤمن).

وكذا الحال فيما ورد في أول سورة الجاثية والاحقاف..

وقد أعرب المفسرون، وغيرهم هذه الموارد على ان كلمة (تنزيل) خبر لمبتدأ محذوف، أو نحو ذلك مع إن إعرابها على النحو الذي ذكرناه هو الأنسب والأظهر، وإن كان إعرابهم لا ينافي ما ذكرناه أيضاً، فإن تقدير كلمة (هو)، أو كلمة: (هذا) المقدرة مبتدأ ظاهرها الإشارة إلى ما قبلها أيضاً..

د: قوله تعالى:

﴿حم عسق * كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾(الشورى).

فإن قوله(كذلك) يشار بها في القرآن عادة إلى ما قبلها. أي كتلك الحروف التي سبقت يوحي إليك الله تعالى، أي أن آيات الله هي من جنس هذه الأحرف.

هـ: وبعد، فلقد جاء في رواية عن الإمام العسكري صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال: كذبت قريش واليهود بالقرآن، وقالوا: سحر مبين تقوله.

فقال الله: ﴿ألم * ذلك الكتاب﴾ أي يا محمد هذا الكتاب الذي انزلناه عليك هو الحروف المقطعة التي منها (ألف، لام، ميم) وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم.

ثم بين أنهم لا يقدرون عليه بقوله: قل: ﴿لئن اجتمعت الإنس

والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً..﴾[1].

وضعف هذه الرواية لا يضر ما دامت مؤيدة بما قدمناه من الشواهد والدلائل.. هذا على الرغم من أننا نجد في كلام المجلسي ما يشير إلى إمكان الاعتماد على روايات تفسير العسكري.. مع أننا لا نجد ما يبرر الوضع والجعل في أمر كهذا..

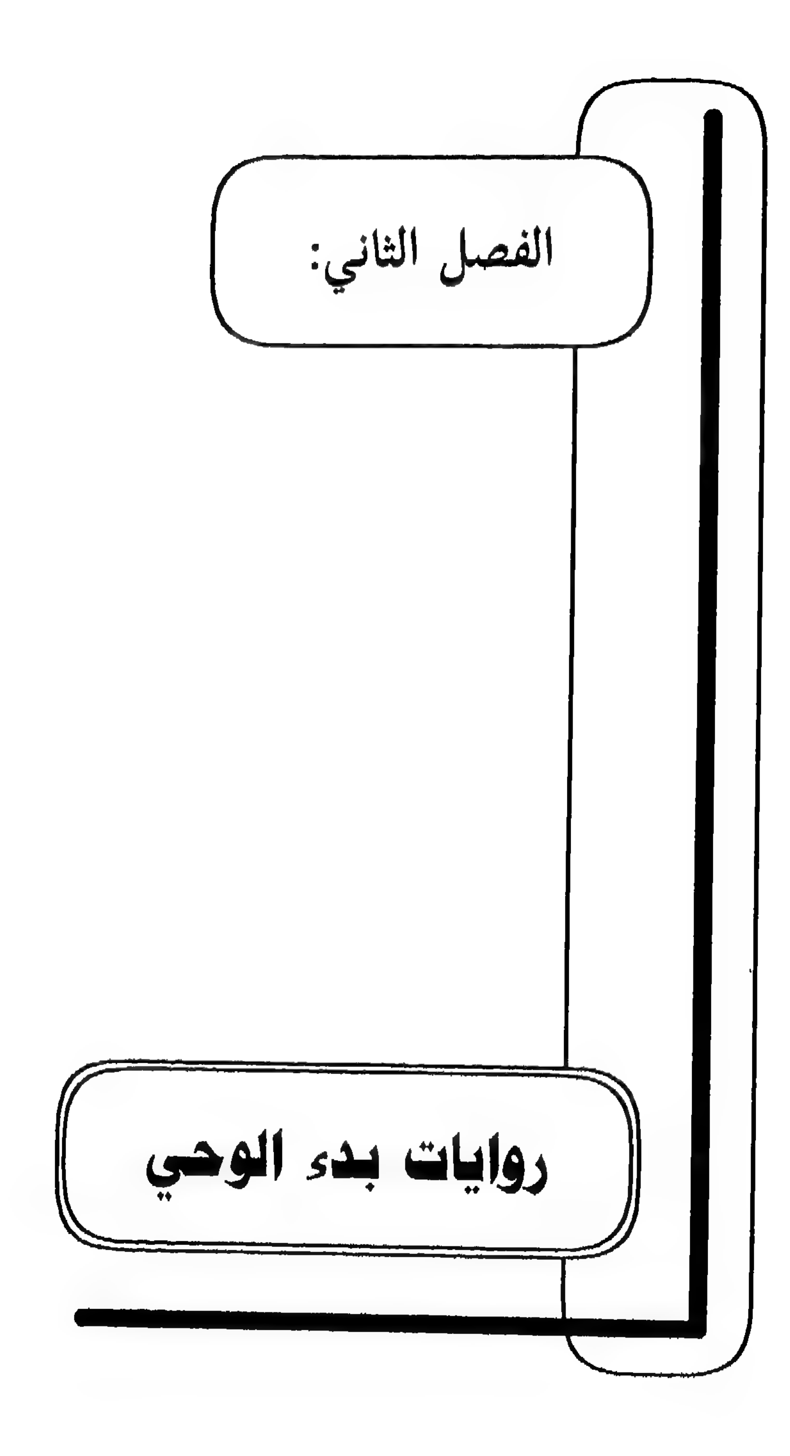
آخر ما نقوله حول الحروف المقطعة:

وأخيراً فإنه يمكن أن تكون في القصة التي تذكر بعد هذه الحروف المقطعة، أو في الحِكَم، أو التنبؤات من الإعجاز ما يكفي لأن يجعل تركبها من الحروف المذكورة في بداية السورة، وعجز الغير عن الاتيان بمثلها كافياً في ذلك.

ومع كل ما قدمناه، فإننا نعود ونؤكد على أن ما ذكرناه ليس هو كل المراد من هذه الحروف، فقد يكون لها إشارا ت ومرامي أخرى تضاف الى ما ذكرناه، ولا مانع مع صحة كثير من الإحتمالات التي ذكرت في معانيها. ولربما يكون لاختلاف الأزمنة تأثير في فهم هذه المعاني، كما أشرنا إليه حين الكلام حول أن للقرآن ظهراً وبطناً.

---

(١) معاني الأخبار ص ٢٢، وتفسير البرهان ج١ ص ٥٤ وتفسير نور الثقلين ج١ ص ٤٣ والبحار ج٩٢ ص ٣٧٧ وتفسير الميزان ج١٨ ص ١٦.


الفصل الثاني:
روايات بدء الوحي



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما روي في بدء الوحي:

روى البخاري ومسلم وغيرهما، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة في بدء الوحي، ما ملخصه: أن الملك جاء للنبي، (ص) وهو في غار حراء، فقال: إقرأ. قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: إقرأ: فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم ارسلني، فقال: إقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني؛ فقال: **﴿إقرأ بسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم﴾**.

فرجع بها رسول الله (ص) يرجف فؤاده؛ فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال زمّلوني، زمّلوني، حتى ذهب عنه الروع؛ فقال لخديجة ـ وقد أخبرها الخبر ـ : لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل، بن أسد، بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد

عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم إسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله (ص) خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله (ص): أو مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي. وفتر الوحي[1].

وثمة روايات كثيرة أخرى متناقضة ومتعارضة، ونذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ هناك رواية تقول: إن خديجة أرسلته مع أبي بكر الى ورقة بن نوفل فأخبره (ص) أنه يسمع نداءً خلفه: يا محمد، يا محمد، فينطلق هارباً في الارض، فأمره ورقة أن يثبت؛ ليسمع ما يقول ثم يخبره، ففعل فناداه: يا محمد، قل: ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ حتى بلغ، ﴿ولا الضالين﴾ قل لا إله إلا الله. فأخبر ورقة؛ فبشره بأنه هو الذي بشر به إبن مريم؛ فلما توفي ورقة قال (ص): لقد رأيت القس في الجنة، عليه ثياب الحرير؛ لأنه آمن بي وصدقني[2].

٢ ـ ورواية أخرى تقول: بعد أن ذكرت: أن خديجة أخبرت ورقة

---

(١) صحيح البخاري ط مشكول ج١ ص ٥ ـ ٦ وج٩ ص ٣٨، وصحيح مسلم ج١ ص ٩٧، وليراجع تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٧، والمصنف لعبد الرزاق ج٥ ص ٣٢٣/٣٢٢، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٨٢، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٢ والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٤٣/٢٤٢ وراجع: الأوائل ج١ ص ١٤٦/١٤٥.

(٢) البداية والنهاية ج٣ ص ١٠/٩ والروض الأنف ج١ ص ٢٧٥/٢٧٤ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٤/٨٣ والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٠، وسيرة مغلطاي ص ١٥.

بالأمر، فأخبرها أنه نبي هذه الأمة ـ إنه بعد مدة التقى بالنبي (ص)وهما يطوفان، فسأله ورقة عما رأى وسمع؛ فأخبره. فأخبره ورقة انه نبي هذه الأمة[1]

٣ ـ انه لما أخبر النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» خديجة بما رأى، بشرته بأنه نبي هذه الأمة، وأن الذي أخبرها بذلك هو غلامها ناصح، وبحيرا الراهب. وأمرها أن تتزوجه منذ أكثر من عشرين سنة، ولم تزل برسول الله حتى طعم، وشرب، وضحك، ثم خرجت إلى الراهب، وكان قريباً من مكة فأخبرته، فأخبرها: أن جبرئيل هو أمين الله، ورسوله إلى الأنبياء. ثم أتت عداساً، فسألته، فأخبرها بمثل ذلك.

ثم أتت ورقة، فأخبرها بمثل ذلك. ولكنها حلفته أن يكتم الأمر، فطلب منها أن ترسل إبن عبد الله اليه؛ ليسأله، ويسمع منه؛ مخافة أن يكون الذي جاءه هو غير جبرئيل، فإن بعض الشياطين يتشبه ليضل ويفسد، حتى يصير الرجل بعد العقل الرضي مدلّها مجنوناً، فرجعت الى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأخبرته بمقالة ورقة، فنزل قوله تعالى: ﴿ن * والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾. ولكنها أصرت عليه أن يذهب إلى ورقة، ففعل، وصدقه ورقة، فذاع قول ورقة وتصديقه لرسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، فشق ذلك على الملأ من قومه[2].

٤ ـ إن خديجة طلبت منه أن يخبرها حين يأتيه الملك ففعل، فأمرته أن يجلس إلى شقها الأيمن؛ ففعل، فلم يذهب الملك، فأجلسته في حجرها، فلم يذهب. فتحسرت فشالت خمارها، ورسول الله «صلى الله

---

(١) البداية والنهاية ج٣ ص ١٣/١٢ وسيرة ابن هشام ج١ ص ٢٥٤، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٤٠/٢٣٩، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٢/٨١.

(٢) البداية والنهاية ج٣ ص ١٥/١٤ وراجع: الأوائل لابي هلال العسكري ج١ ص ١٤٦.

عليه وآله وسلم» في حجرها، فذهب الملك، فقالت: ما هذا بشيطان، إن هذا لملك يابن عم، فاثبت وابشر.

وفي رواية: أنها أدخلت رسول الله بين جلدها ودرعها، وأخرجت رأسه من جيبها؛ فذهب جبرئيل (ع) عند ذلك[١].

وفي رواية: أن ذلك كان بإشارة ورقة[٢].

٥ ـ وفي رواية: إن ورقة قال لخديجة: إسأليه من هذا الذي يأتيه، فإن كان ميكائيل، فقد أتاه بالخفض والدعة واللين وإن كان جبرئيل، فقد أتاه بالقتل والسبي؛ فسألته، فقال: فقال جبرئيل. فضربت خديجة جبهتها[٣].

٦ ـ وفي رواية: أنه لما أتاه الوحي قال: (. . . ان الأبعد ـ يعني نفسه ـ لشاعر أو مجنون، لاتَحَدّث بها قريش عني أبدا، لأعمدن إلى حالق من الجبل؛ فلأطرحن نفسي منه، فلأقتلنها، ولأستريحن. قال: فخرجت أريد ذلك) حتى إذا كان في وسط جبل سمع صوتاً من السماء يقول يا محمد أنت رسول الله.

ثم تستمر الرواية حتى تذكر: أنه ذكر لخديجة: أن الأبعد لشاعر أو مجنون. فقالت: أعيذك بالله من ذلك، ثم التقت بورقة؛ فأرسل إليه بالثبات، ثم التقى به في الطواف، فجرى له معه ما جرى[٤].

وعند السهيلي وغيره: أن خديجة سألت ورقة، وعداساً، ونسطوراً،

---

(١) البداية والنهاية ج٣ ص ١٥/١٦، وسيرة ابن هشام ج١ ص ٢٥٥، والطبري ج٢ ص ٥٠ وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٨٣، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٥١، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٤.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي ط صادر ج٢ ص ٢٣.

(٤) تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٩/٥٠.

عن أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»[١].

٧ ـ وفي رواية: أن عداساً أعطاها كتاباً لتضعه على النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ فان كان مجنوناً شفي، وإلّا لم يضره شيئاً، فلما عادت إليه بالكتاب وجدت معه جبرئيل يقرئه الآيات من سورة القلم، ففرحت، وأخذته إلى عداس، فكشف عداس عن ظهره؛ فوجد خاتم النبوة بين كتفيه إلخ..[٢].

ويروي البعض: أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لما أخبرها بجبرئيل كتبت إلى بحيرا الراهب، وقيل: سافرت بنفسها إليه لتسأله عن الأمر[٣].

٨ ـ وفي رواية: أنه حين ذهب ليتردّى من شواهق الجبال، كان إذا ارتقى بذروة جبل، تبدّى له جبرئيل، ويخاطبه بالرسالة، فيسكن جأشه، وتطمئن نفسه[٤].

٩ ـ ويروون أيضاً: أنه كان قبل النبوة يتعرض للرعدة، وتغميض العينين، وتربُّد الوجه، ولما يشبه الاغماء، ويغط كغطيط البكر.[٥]

١٠ ـ وفي رواية: انه (ص) عاد إلى أهله مسروراً موقناً: أنه قد رأى أمراً عظيماً، فلما دخل على خديجة قال: أريتك الذي كنت حدثتك: أني رأيته في المنام؛ فإن جبرئيل استعلن إلي، أرسله إلي ربي عز وجل، وأخبرها بالذي جاءه من الله، وما يسمع منه، فقالت له: أبشر، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيراً، واقبل الذي جاءك من أمر الله، فإنه حق، وأبشر؛

---

(١) الروض الأنف ج١ ص ٢٧٣، والأوائل لأبي هلال العسكري ج١ ص ١٤٦.

(٢) تاريخ الخميس ج١ ص ٢٨٤، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٣، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٤٣/٢٤٤.

(٣) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٣ والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٤٤.

(٤) المصنف ج٥ ص ٣٢٣.

(٥) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٤، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٢.

فإنك رسول الله حقاً.

ثم انطلقت إلى عداس النصراني، غلام عتبة بن ربيعة من أهل نينوى، فسألته عن جبرائيل؛ فتعجب من ذكر جبرائيل بتلك الارض، ثم أخبرها بأنه أمين الله بينه وبين الأنبياء. ثم جاءت إلى ورقة إلخ . .[١].

هذا غيض من فيض، مما قيل ويقال حول ما جرى حين بدء الوحي، وكيفيته وملابساته، من روايات، وأقاويل متضاربه ومتناقضة.

ولننتقل الآن إلى الإشارة الى بعض ما لنا من مناقشات في تلك الأراجيف المتقدمة، متوخين الإيجار والإختصار مهما أمكن فنقول:

مناقشة روايات بدء الوحي:

إننا في مجال بيان ما في تلك الروايات من خلل وخطل، لا نستطيع أن نستوعب كل ما فيها من نقاط ضعف؛ لأن استيعاب ذلك ـ كما يبدو ـ يحتاج إلى وقت طويل، بل إلى مؤلف مستقل. . ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، لأننا نريد أن نسهم بدورنا في الذب عن مقام النبوة الأقدس، ولو بشكل محدود ومقتضب، وما نريد أن نشير إليه هنا هو:

أولاً: من حيث السند. وحيث إن العمدة في ذلك هو ما ورد في الصحيحين وغيرهما، عن الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة، فنحن نكتفي بالإشارة الاجمالية إلى حال هؤلاء، فنقول:

١ ـ الزهري: كان من أعوان الظالمين، ومن الذين يركنون لهم[١]، وكان عاملاً لبني أمية [١] ويقول المحقق التستري: إنه كان كاتباً لهشام بن

---

(١) البداية والنهاية ٣ ص ١٣.

(٢) راجع: سفينة البحار ج١ ص ٥٧٢ و٥٧٣ ومعجم رجال الحديث ج١٦ ص ١٨٢ عن ابن شهراشوب.

(٣) كشف الغمة ج٢ ص ٣١٧.

عبد الملك، ومعلماً لأولاده[1].

وعده الثقفي من فقهاء الكوفة الذين خرجوا عن طاعة علي «عليه السلام»، وكانوا أهل عداوة له وبغض، وخذلوا عنه[2].

وجلس هو وعروة في مسجد المدينة فنالا من على «عليه السلام»، فبلغ ذلك السجاد «عليه السلام»، فجاء حتى وقف عليهما؛ فقال: أما أنت يا عروة، فإن أبي حاكم أباك، فحكم لأبي على أبيك وأما أنت يا زهري؛ فلو كنت أنا وأنت بمكة لأريتك كنّ[3] أبيك[4].

ونحن لا نستطيع أن نثق بأعوان الظلمة، وبمبغضي علي «عليه السلام»، كيف وقد قال (ص): «من سب علياً فقد سبني[5]»؟.

٢ ـ عروة بن الزبير. عن عروة قال: أتيت عبدالله بن عمر بن الخطاب(رض)؛ فقلت له: يا أبا عبد الرحمان، إنا نجلس إلى ائمتنا هؤلاء، فيتكلمون بالكلام، نعلم أن الحق غيره؛ فنصدقهم، ويقضون بالجور، فنقويهم، ونحسنه لهم؛ فكيف ترى في ذلك؟ فقال: ياابن أخي، كنا مع رسول الله (ص) نعد هذا النفاق؛ فلا أدري كيف هو عندكم[6].

---

(١) راجع ترجمة الزهري في قاموس الرجال ج٦.

(٢) الغارات للثقفي ج٢ ص ٥٥٨ ـ ٥٦٠ وراجع: سفينة البحار ج١ ص ٥٧٢.

(٣) الكن: البيت.

(٤) شرح النهج للمعتزلي ج٤ ص ١٠٢، والغارات للثقفي ج٢ ص ٥٧٨، والبحار ج٤٦ ص ١٤٣ وراجع: سفينة البحار ج١ ص ٥٧٢.

(٥) مستدرك الحاكم ج٣ ص ١٢١ وصححه الذهبي في تلخيص المستدرك هامش نفس الصفحة.

(٦) سنن البيهقي ج٨ ص ١٦٥، وقريب منه ما في ص ١٦٤ من دون ذكر اسم «عروة» ومثله الترغيب والترهيب ج٤ ص ٣٨٢ عن البخاري وإحياء علوم الدين ج٣ ص =

فعروة يعتبر أئمة الجور أئمته، وابن عمر يحكم عليه بالنفاق.

وعده الأسكافي من التابعين، الذين كانوا يضعون أخباراً قبيحة في علي «عليه السلام»[1]. وكان يتألف الناس على روايته[2].

وروى عبد الرزاق، عن معمر، قال: كان عند الزهري حديثان عن عروة، عن عائشة في علي «عليه السلام»، فسألته عنهما يوماً، فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما؟ إني لأتهمهما في بني هاشم[3].

وكان عروة إذا ذكر علياً نال منه[4]، ويصيبه الزمع؛ فيسبه، ويضرب إحدى يديه على الأخرى إلخ[5].

وبعد ذلك كله؛ فإنه لم يثبت سماع الزهري عنه. ولكن أهل الحديث اتفقوا على ذلك[6]،

٣ ـ أما عائشة: التي حاربت علياً وعادته، والتي يتهمها الزهري بأنها لا تؤمن في بني هاشم؛ فقد أرسلت هذه الرواية، ولم تبين لنا عمن روتها، فإنهم يقولون: إنها قد ولدت بعد البعثة، وإن كنا نحن نناقش في ذلك[7].

وأخيراً، فإن لنا كلاماً طويلاً في بقية الاسانيد في الصحاح وغيرها

= ١٥٩ وفي هامشه عن الطبراني وحياة الصحابة ج٢ ص ٧٦.

(١) شرح النهج للمعتزلي ج٤ ص ٦٣.

(٢) صفة الصفوة ج٢ ص ٨٥، وتهذيب التهذيب ج٧ ص ١٨٢.

(٣) شرح النهج للمعتزلي ج٤ ص ٦٤، وقاموس الرجال ج٦ ص ٢٩٩.

(٤) الغارات ج٢ ص ٥٧٦، وشرح النهج ج٤ ص ١٠٢.

(٥) قاموس الرجال ج٦ ص ٣٠٠.

(٦) تهذيب التهذيب ج٩ ص ٤٥٠.

(٧) سيأتي ذلك إن شاء الله في فصل: حتى بيعة العقبة.

لا مجال له هنا. ونكتفي بهذا القدر، لنشير الى بقية ما في الرواية من هنات.

وثانياً: تناقض الروايات الظاهر لدى كل أحد، ويظهر ذلك بالملاحظة والمقارنة، ونكل ذلك الى القارىء نفسه. ولو أن الاختلاف كان بالزيادة والنقيصة لامكن قبوله؛ على اعتبار أن أحدهما حفظ دون الآخر، أو تعلق غرضه بهذا النحو من النقل، وذاك بنحو آخر. وكذا لو كان التناقض في مورد واحد مثلاً، فلربما يمكن الاعتذار عن ذلك بأن من الممكن وقوع الإشتباه غير العمدي من أحد النقلة.

ولكن الأمر هنا أبعد من ذلك؛ فإن التناقض والإختلاف إن لم يكن في كل ما تضمنته تلك الروايات من نقاط، ففي جلها مما يعني أن ثمة تعمداً للوضع والجعل. وقديماً قيل: «لاحافظة لكذوب».

هذا كله، مع غض النظر عن المناقضة بين هذه الروايات وبين الرواية التي يذكرها البخاري نفسه في أول كتابه بعد هذه الرواية مباشرة من أن أول ما نزل عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» هو سورة المدثر. ويلاحظ انه ليس في تلك الرواية ذكر لأي شيء من تلك الأمور الغريبة والعجيبة التي تضمنتها رواية عائشة السابقة عليها؛ فإن عدم ذكرها لشيء من ذلك يورث الشك والريب، ويثير أكثر من سؤال عن السبب في إهمال التعرض لذلك.

وثالثاً: إن رواية الصحاح، بل وسائر الروايات تذكر: أن جبرئيل قد أخذ النبي (ص) فغطه، أي عصره وحبس نفسه او خنقه حتى بلغ منه الجهد، أو حتى ظن أنه الموت، ثم أرسله، وأمره بالقراءة؛ فأخبره النبي (ص): أنه لا يعرفها، فلم يقنع منه، بل عاد فغطه، ثم أرسله، وهكذا ثلاث مرات.

ولنا على هذا الكلام العديد من الأسئلة.

فإننا لا نعرف ما هو المبرر لذلك كله؟ وكيف جاز لجبرئيل أن يروع النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، وأن يؤذيه بالعصر والخنق، إلى حد أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» يظن أنه الموت، يفعل به ذلك، وهو يراه عاجزاً عن القيام بما يأمره به ولا يرحمه، ولا يلين له!!

ولماذا يفعل به ذلك ثلاث مرات، لا أكثر ولا أقل؟!.

ولماذا صدقه في الثالثة، ولا يصدقه في المرة الأولى؟ أو الثانية؟! وإذا كان النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قد كذب عليه أولاً، فكيف بقي أهلاً للنبوة؟! وإذا كان قد صدقه فلماذا لم يقتنع جبرئيل بكلامه، وعاد فخنقه حتى ليظن أنه الموت؟!.

وأيضاً، هل جاء جبرئيل اليه بكتاب ليقرأه؛ إذ أن قوله «صلى الله عليه وآله وسلم»: «ما أنا بقارىء» إنما يصح لو كان «صلى الله عليه وآله وسلم» قد فهم أن جبرئيل يأمره بالقراءة نفسها ـ لا بتعلم القراءة ـ كما ذكره السندي[1].

وإذا كان المراد: القراءة بمعنى التلاوة؛ فلماذا يطلب منه جبرائيل ذلك، قبل أن يتلو عليه شيئاً؟. ثم لماذا يعاند هو ويرفض ذلك؟!

وبعد هذا كله، لماذا يستسلم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لجبرائيل ليعذبه على هذا النحو الذي لا مبرر له؟

ثم لماذا يرجع مرعوباً خائفاً؟! ألم يكن باستطاعته أن يلطمه لطمة يقلع بها عينه؟ كما فعل موسى بملك الموت من قبل؟! حيث إنه لما جاء ليقبض روحه، لطمه على عينه فقلعها، كما نص عليه البخاري، وكثير من المصادر الأخرى[2]!!

---

(١) حاشية السندي على البخاري بهامشه ج١ ص ٣ ط سنة ١٣٠٩.

(٢) البخاري ط سنة ١٣٠٩ ج١ ص ١٥٢، أبواب الجنائز، وج٢ ص ١٥٩ باب وفاة ...

أم يعقل: أنه كان ـ والعياذ بالله ـ جباناً إلى هذا الحد؟! وكانت الشجاعة من مختصات نبي الله موسى وحده؟!

وأخيراً، كيف يخاف نبينا هنا، والله تعالى يقول: ﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾[1].

قد ورد ان زرارة بن أعين سأل الإمام الصادق «عليه السلام»: كيف لم يخف رسول الله (ص) فيما يأتيه من قبل الله أن يكون مما ينزغ به الشيطان؟ فقال: ان الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه[2].

إشارة:

هذا، ومن المضحك المبكي هنا: أن نجد البعض يحاول أن يستدل بهذه الرواية على رأي يكذبه العقل والنقل، وبالذات يكذبه نص القرآن الكريم؛ فنراه يجعل ذلك دليلاً على جواز التكليف بما لا يطاق[3] ـ كما هو مذهبهم ـ الأمر الذي يصادم العقل والفطرة، ويخالف القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[4]، وقوله: ﴿ما جعل

= موسى عليه السلام، وصحيح مسلم ج٧ ص ١٠٠ باب فضائل موسى، ومسند أحمد ج٢ ص ٣١٥، ومصنف الحافظ عبد الرزاق ج١١ ص ٢٧٤، وسنن النسائي ج٤ ص ١١٨، وتاريخ الطبري ج١ ص ٣٠٥، والبداية والنهاية ج١ ص ٣١٧، والغدير ج١١ ص ١٤٠ و١٤١ عن بعض من تقدم، وعن: مختصر تذكرة القرطبي للشعراني ص ٢٩، والعرائس للثعلبي ص ١٣٩. وكشف الأستار عن مسند البزار ج١ ص ٤٠٤ ومجمع الزوائد ج٨ ص ٢٠٤.

(١) النمل/١٠.

(٢) تفسير العياشي ج٢ ص ٢٠١ والبحار ج١٨ ص ٢٦٢.

(٣) فتح الباري ج٨ ص ٥٥١، وإرشاد الساري ج١ ص ٦٣.

(٤) البقرة: ٢٨٦.

الله عليكم في الدين من حـــرج﴾[1]، وقوله: ﴿يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العســر﴾[2] وغير ذلك كثير.

رابعاً: حول مـا يذكـر من خوفـه«صلى الله عليه وآلـه وسلم»، ودور زوجته وورقة وغيرهما في بعث الطمأنينة في نفسه نذكر:

ألف: كيف يجوز إرسال نبي يجهل نبوة نفسه، ويحتاج في تحقيقها الى الاستعانة بإمرأة، أو نصـراني؟ ألم تكن هي فضلاً عن ذلـك النصراني اجدر بمقام النبوة من ذلك الخائف المرعوب الشاك؟

وحتى لو قبلنا ذلك، فمن أين علم: أن تلك المرأة وذلك الرجل قد صَدّقاه، وقالا الحقيقة؟

ولمـاذا لم يستـطع هـو أن يـدرك مـا ادركتـه تلك المـــرأة ، وذلـك النصراني؟! أم يعقل أن يكون كلاهما أكبر عقلاً وأكثر معرفة بالله وتفضلاته منه؟! ـ نعوذ بالله من الزلل في القول والعمل.

وإذا جاز أن يرتاب هو مع معاينته لما يأتيه من ربه، فكيف ينكر على من ارتاب من سائر الناس، مع عدم معاينتهم لشيء من ذلك؟!.

قال السندي: «مقتضى جـواب خديجـة ، والذهـاب الى ورقة: أن هذا كان منه على وجه الشك. وهو مشكل بأنه لما تم الوحي صار نبياً، فلا يمكن أن يكون شاكاً بعد في نبوته، وفي كون الجائي عنـده ملكاً من الله، وكون المنزل عليه كلام رب العالمين»!!

ثم حاول السندي توجيه ذلـك بأنـه (ص) أراد اختبار خـديجة، وأن يمهد لاعلامها بالامر[3].

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) البقرة: ١٨٥.

(٣) حاشية السندي بهامش البخاري ط سنة ١٣٠٩ هـ ج١ ص ٣.

وهو توجيه عجيب، فإننا لم نعهد منه (ص) إتباع مثل هذه الأساليب الملتوية في الوصول الى مقاصده ونحن نجله (ص) عن نسبة الكذب اليه على خديجة ـ معاذ الله، ثم معاذالله!!. ثم.. كيف يتناسب ذلك مع كونه أراد أن يلقي نفسه من شواهق الجبال، وغير ذلك مما تقدم مما ذكرته روايات الوحي؟!

وأيضاً، كيف يبعث الله رجلاً، قبل أن يربيه تربية صالحة ويعده إعداداً تاماً، بحيث يستطيع أن يكون في مستوى الحدث العظيم الذي ينتظره؟! نعم، كيف أهمله هكذا، حتى إنه حين بعثته ليبدو مذعوراً خائفاً، ظانا بنفسه الجنون، يريد أن يلقي بنفسه من شواهق الجبال، حتى كأنه طفل تائه، يملأ قلبه الهم، يحتاج إلى من يطمئنه، ويهديه، ويأخذ بيده، ولو امرأة أو أي انسان عادي آخر؟! هذا كله عدا عن أن ذلك يدل والعياذ بالله على ضعف إرادته، وضآلة شخصيته.

وأين ذهبت عن ذاكرته تلك الكرامات التي كان يواجهها، دون كل أحد، كتسليم الشجر والحجارة عليه[1]. والرؤيا الصادقة، وغير ذلك مما ذكره المؤلفون والمؤرخون؟!.

ب: قال تعالى: «وقال الذين كفروا: لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك»[2].

وقال تعالى: «قل: نزله روح القدس من ربك بالحق؛ ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين»[3].

وقال: «إني على بينة من ربي»[4] وقال تعالى: «قل: هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني»[5].

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٣٤/٢٣٥.
(٢) الفرقان: ٣٢.
(٣) النحل: ١٠٢.
(٤) الأنعام: ٥٧.
(٥) يوسف: ١٠٨.

إذن، فالنبوة، وتنزيل القرآن، ليس إلا لتثبيت المؤمنين، ولتثبيت فؤاد النبي (ص)، وهذا يتنافى مع قولهم: إن نفسه الشريفة قد سكنت اعتماداً على قول نصراني، أو امرأة.

كما أن من الواضح: أنه لا حجة بينة في قول ورقة، أو خديجة، فكيف صح أن يقول: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني.

وخامساً: لابد من الاشارة إلى بعض الكلام حول ورقة، ونسطور، وعداس، وبحيرا وغيرهم، ممن ذكرت اسماؤهم فيما تقدم، وعمدة الروايات تتجه نحو ورقة، وتركز عليه. لا سيما وأنه هو الذي نص عليه البخاري، وغيره من المصادر الموثوقة لدى غير الشيعة.

١ ـ أما نسطور، وبحيرا، فهما الراهبان اللذان تنسب اليهما القضية التي جرت للنبي (ص) في صغره، حينما سافر مع أبي طالب إلى الشام، وبصرى حيث بشر نسطور أو بحيرا بنبوة النبي (ص)، وأمر بإعادته (ص) إلى مكة كما تقدم.

وإذا كان بحيرا أو نسطور في بصرى ـ وهي قصبة كورة حوران في الشام من اعمال دمشق ـ فيرد السؤال: كيف سافرت خديجة من مكة إلى الشام هذه السفرة الطويلة؟، أو متى كتبت إليه فاجابها. مع أنهم يقولون: إنه (ص) بعث في أول يوم، فأسلم علي وخديجة«عليها السلام» في اليوم الثاني، وصليا معه مسلمين مؤمنين بنبوته[1].

---

(١) مستدرك الحاكم ج٣ ص ١١٢ وتلخيصه للذهبي بهامش نفس الصفحة وفرائد السمطين ج١ ص ٢٤٣. والاستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٣ ص ٣٢ والمناقب للخوارزمي ص ٢١ والجامع الصحيح ج٥ ص ٦٤٠ وتفسير الوصول ج٢ ص ١٤٧.

وهل كان في ذلك الزمان طائرات؟ ، أو أنها سافرت على بساط الريح ، أو طويت لها الأرض؟! ولا ندري ، فلعلهم قد انتقلوا ليسكنوا قرب مكة ، لتتمكن خديجة من استشارتهم في الوقت المناسب ، ثم لا يعود يسمع لهما ذكر أصلاً ، لأن مهمتهما قد انتهت (!!!) .

٢ ـ وعداس ، اليس هو الذي اسلم على يد النبي (ص) في الطائف بعد عشر سنين من البعثة أي بعد وفاة أبي طالب «عليه السلام» . وتروى القصة بنحو يدل أن عداساً لم يكن يعرف النبي (ص) قبل ذلك[1] ولا سمع به .

كما أن الروايات تنص على أن جوابه هو نفس جواب ورقة ، وعلى أنه كان ـ كورقة ـ راهباً ، كبير السن ، قد وقع حاجباه على عينيه ، وقد ثقل سمعه إلخ . . . وهذه الأوصاف يشاركه فيها غيره ممن سألتهم خديجة ما عدا ثقل السمع ، الذي عوض عنه ورقة المسكين بالعمى . . .

واحتمال أن يكون عدّاس هذا غير ذاك ، ليس له ما يؤيده ، أو يشير اليه .

ويبقى هنا سؤال أخير ، وهو : أنه كيف لم يسمع باسلام هؤلاء : بحيرا ، وعداس ، ونسطور ، من حين بعثته (ص) ، مع معرفتهم بان النبي (ص) قد بعث ، ومع أن سند نبوته قد تلقاه (ص) منهم ، حسب نص الروايات المتقدمة؟ . . .

كما أن رواية عداس تقول : إنه لما عادت خديجة من عند عداس ، اذا بجبرئيل يقرىء النبي (ص) سورة القلم . وهذا مخالف لما يذكره المفسرون : من أن هذه السورة إنما نزلت حينما وصف المشركون النبي (ص) بأنه مجنون[2] ، وواضح : أن هذا لم يحصل إلا بعد انتهاء

---

(١) سيأتي ذلك في الجزء الثالث من هذا الكتاب في فصل : الهجرة إلى الطائف .

(٢) الدر المنثور ج٦ ص ٢٥٠ ، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٤٤ .

فترة الدعوة السرية، وحينما صدع بما يؤمر به، كما هو معلوم.

٣ ـ أما ورقة: فانهم بالاضافة إلى ما ينسبونه اليه من دور هام في تثبيت نبوة نبينا الأعظم (ص)، نجدهم يذكرون: أنه (ص) قد قال عن ورقة كلاما يدل على أنه في الجنة، ولكنهم اختلفوا في نص ذلك الكلام.

ففي رواية انه (ص) قال: «لا تسبوا ورقة فاني رأيت له جنة، أو جنتين. . .» أو «رأيته في ثياب بيض» وفي أخرى: «لقد رأيت القس ـ يعني ورقة ـ في الجنة عليه ثياب الحرير.» وفي ثالثة: «أبصرته في بطنان الجنة وعليه ثياب السندس». وفي رابعة: «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً، وأحسبه لو كان من أهل النار لم تكن عليه ثياب بيض»[١].

وعده ابن مندة في الصحابة، وعدّه الزين العراقي على: أنه أول من أسلم، ومال إليه البلقيني[٢].

وتقدم في الروايات حول بدء الوحي، التي هي موضع المناقشة: أنه صدق النبي (ص)، وعرَّفه أنه نبي، ووعده النصر، ثم لم ينشب أن توفي.

هذا ما قيل عنه، ولكننا نجد في مقابل ذلك:

١ ـ ان ابن عساكر يقول: «لا أعرف أحداً قال: إنه اسلم»[٣].

٢ ـ وابن الجوزي يقول انه: «آخر من مات في الفترة، ودفن في

---

(١) راجع تلكم النصوص في مستدرك الحاكم ج٢ ص ٦٠٩ وتلخيصه للذهبي هامش نفسه الصفحة، وصححاه على شرط الشيخين، وسيرة مغلطاي ص ١٥ عن الحاكم، والمصنف ج٥ ص ٣٢٤، ونسب قريش لمصعب الزبيري ص ٢٠٧، والبداية والنهاية ج٣ ص ٩، والروض الأنف ج١ ص ٢٧٥، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٠، وأسد الغابة ج٥ ص ٨٩، والإصابة ج٣ ص ٦٣٥، وغير ذلك.

(٢) شرح بهجة المحافل ج١ ص ٧٤، وإرشاد الساري ج١ ص ٦٧.

(٣) الإصابة ج٣ ص ٦٣٣.

الحجون، فلم يكن مسلماً.» وكذا قال غيره[١].

٣ ـ وابن عباس يقول: «مات على نصرانيته»[٢].

٤ ـ لقد مات على نصرانيته، مع أنه عاش بعد البعثة عدة سنوات، فكيف يدخل الجنة إذن. ويدل على أنه عاش بعد البعثة عدة سنوات، ما رواه غير واحد، من أنه كان يمر ببلال وهو يعذب، ونهاهم عنه فلم ينتهوا؛ فقال: والله، لئن قتلتموه لأتخذن قبره حناناً[٣] وتعذيب بلال إنما كان بعد الاعلان بالدعوة كما هو معروف.

وكيف يصح قول البعض: إنه مات بعد النبوة وقبل الرسالة[٤]؟!.

وقد اسلم علي وخديجة، وصليا ثاني يوم البعثة، بدعوة منه (ص)، فلماذا بقي ورقة على نصرانيته هذه السنين المتعددة.

هذا، عدا عن أن البعض قد استنتج مما رواه البخاري وغيره، من أن سورة المدثر كانت أول ما نزل عليه (ص)، وبالذات من قوله: «قم فأنذر» ـ استنتج ـ: أن البعثة كانت مقترنة بالنبوة[٥].

٥ ـ قال في الامتاع وغيره: إن ورقة قد توفي في السنة الرابعة

---

(١) الإصابة ج٣ ص ٦٣٤، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٤/٨٣ والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٠.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٠، والإصابة ج٣ ص ٦٣٤.

(٣) حلية الأولياء ج١ ص ١٤٨، ونسب قريش لمصعب ص ٢٠٨، وإرشاد الساري ج١ ص ٦٧، وفتح الباري ج١ ص ٢٦، عن ابن إسحاق، وج٨ ص ٥٥٤، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٤ و١٢٥، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٢، والإصابة ج٣ ص ٦٣٤، وليراجع نهاية ابن الأثير ج١ ص ٢٦٦، والسيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ٤٩٢.

(٤) السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٤ وغيره.

(٥) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٥١.

للمبعث أو بعد تتابع الوحي[١].

٦ ـ نقل عن الواقدي: أنه توفي بعد الأمر بالقتال[٢] ـ وكان ذلك بعد الهجرة.

وعليه فكيف يكون ورقة في الجنة عليه ثياب السندس أو الحرير؟! ـ وكيف يكون هو في الجنة، وأبو طالب حامي الاسلام والدين في ضحضاح من نار؟!.

وبعد ذلك كله، فاننا لم نفهم سبب تردد النبي (ص) في أن يكون له جنة او جنتان، ولا نفهم أيضاً، لماذا قال: وأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض. أم لعله نسي أنه قد قال: إنه رآه في الجنة عليه ثياب السندس أو الحرير؟! أو أن النبي نفسه (ص) قد ترقى وتدرج في التعرف على مالورقة من مقام؟! أم أن ورقة نفسه قد ترقى في مدارج القرب والزلفى؟!.

وأخيراً، فاننا لا ندري بعد ورود تلك الأقوال فيه لماذا لم يحكم المسلمون جميعاً بأنه أول من أسلم، لا علي ولا خديجة، ولا غيرها؟! ولماذا لا يعدونه من جملة الصحابة؟!.

وكيف يقولون: إنه توفي وهو على نصرانيته، ثم كيف يدخل هذا النصراني الجنة؟!.

كانت تلك بعض الاسئلة التي تحتاج إلى جواب. وأنى؟!.

وثمة أسئلة أخرى:

هذا غيض من فيض مما يرد على تلك الروايات، وبقي فيها الكثير

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٠ و٢٥٢ عن كتاب الخميس عن الصحيحين، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٤.

(٢) إرشاد الساري ج١ ص ٦٧.

من الاسئلة، التي تحتاج إلى جواب:

فمثلاً: حول ذهاب الملك حينما كشفت خديجة قناعها، وأدخلته (ص) بين درعها وجلدها.

يرد سؤال: إنه هل كان الحجاب في ذلك الوقت مفروضاً تلتزم به النساء؟، وكيف؟ وهم يقولون: إن الحجاب قد فرض في المدينة بعد الهجرة؟ وبعد وفاة خديجة (عليها السلام)؟! فكيف إذن أدركت خديجة أن الملك يذهب إذا كانت بلا قناع؟!.

وأيضاً هل الملك مكلف بعدم النظر إلى نساء البشر؟! وهل للملك شهوة كشهوة الانسان لابد من الاحتراس منها؟ ومن أين عرفت خديجة كل ذلك.

إلى غير ذلك من الاسئلة الكثيرة التي لن تجد لها عند هؤلاء الجواب المقنع والمفيد.

ومن الطعن في النبوة أيضاً:

وبالمناسبة، فان كل ما تقدم لم يكفهم، بل زادوا عليه قولهم: إنه قد كان للنبي (ص) عدو من شياطين الجن يسمى الابيض، كان يأتيه في صورة جبرئيل، ولعله هو الشيطان الذي أعانه الله عليه فاسلم ـ كما يقولون[1].

وشيطانه هذا الذي اسلم كان يجري منه مجرى الدم[2].

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٥٣، وراجع: إحياء علوم الدين ج٣ ص ١٧١ وفي هامشه عن مسلم، والغدير ج١١ ص ٩١ عنه، والمواهب اللدنية ج١ ص ٢٠٢، ومشكل الآثار ج١ ص ٣٠، وراجع حياة الصحابة ج٢ ص ٧١٢ عن مسلم وعن المشكاة ص ٢٨٠ وراجع: المحجة البيضاء ج٥ ص ٣٠٢/٣٠٣.

(٢) مشكل الآثار ج١ ص ٣٠.

وكان يدعو الله بأن يخسأ شيطانه؛ فلما اسلم ذلك الشيطان ترك ذلك[١].

ورووا انه عرض للنبي (ص) في صلاته قال: فأخذت بحلقه فخنقته فاني لأجد برد لسانه على ظهر كفي[٢].

ويروون أيضاً: أنه (ص) قد صلى بهم الفجر، فجعل يهوي بيديه قدامه، وهو في الصلاة؛ وذلك لأن الشيطان كان يلقي عليه النار؛ ليفتنه عن الصلاة[٣].

ونقول:

ونحن لا نشك في أن هذا كله من وضع أعداء الدين؛ بهدف فسح المجال أمام التشكيك في النبوة، وفي الدين الحق. وقد أخذه بعض المسلمين ـ لربما ـ بسلامة نية، وحسن طوية، وبلا تدبر أو تأمل، سامحهم الله، وعفا عنهم.

و الغريب في الأمر: اننا نجدهم في مقابل ذلك يروون عنه (ص) قوله لعمر: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً، إلا سلك فجاً غير فجك[٤]»، وقوله له: «إن الشيطان ليخاف او ليفرق منك يا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مسند أبي يعلى ج١ ص ٥٠٦ و٣٦٠ ومسند أبي عوانة ج٢ ص ١٤٣ والسنن الكبرى ج٢ ص ٢٦٤ ومسند أحمد ج٢ ص ٢٩٨ وأخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، وثمة مصادر كثيرة أخرى وراجع الغدير ج٨ ص ٩٥.

(٣) المصنف ج٢ ص ٢٤، وراجع: البخاري ط سنة ١٣٠٩ هـ ج١ ص ١٣٧، وج٢ ص ١٤٣.

(٤) صحيح مسلم ج٧ ص ١١٥، والبخاري ط سنة ١٣٠٩ ج٢ ص ١٤٤ و١٨٨، ومسند أحمد ج١ ص ١٧١ و١٨٢ و١٨٧. والرياض النضرة ج٢ ص ٢٩٩ وشرح النهج للمعتزلي ج١٢ ص ١٧٨ والغدير ج٨ ص ٩٤.

عمر[١]» وقوله: «إن الشيطان لم يلق عمر منذ اسلم إلا خر لوجهه[٢]» وعن مجاهد: كنا نتحدث، أو نحدث: ان الشياطين كانت مصفدة في امارة عمر، فلما أصيب بُثّت[٣].

وصارع عمر الشيطان مرات، وفي كل مرة يصرعه عمر[٤].

هذا عمر! وهذه حالة الشيطان معه! وذلك هو نبي الاسلام الاعظم (ص)، وتلك هي حالته مع الشيطان، عند هؤلاء، الذين تروق لهم مثل هذه الترهات، ويتقبلونها من اعداء الاسلام، والمتاجرين به بسذاجة هي إلى الغباء أقرب.

ولربما يكون الدافع لدى بعضهم أن يجد لأبي بكر الذي قال حين أصبح خليفة: إن له شيطاناً يعتريه أن يجد له نظيراً، ولكن من مستوى لا يداني ولا يجارى؛ فوقع اختياره على النبي الاعظم (ص)، ليكون هو ذلك النظير؛ فانا لله وإنا إليه راجعون.

ما هو الصحيح في قضية بدء الوحي:

والذي نطمئن إليه هو أنه قد أوحي إلى النبي (ص)، وهو في غار حراء فرجع إلى أهله مستبشراً مسروراً بما اكرمه الله به، مطمئناً إلى

---

(١) صحيح الترمذي كتاب ٤٦ باب ١٧ وفيض القدير عنه وعن أحمد وابن حبان. وراجع تاريخ عمر ص ٣٥. والغدير ج٨ ص ٩٦.

(٢) عن فيض القدير ج٢ ص ٣٥٢ عن الطبراني وابن مندة، وأبي نعيم، والإصابة ج٤ ص ٣٢٦ عنهم.

(٣) منتخب كنز العمال، هامش مسند أحمد ج٤ ص ٣٨٥/٣٨٦، عن ابن عساكر وحياة الصحابة ج٣ ص ٦٤٧ عن المنتخب.

(٤) حياة الصحابة ج٣ ص ٦٤٦ عن مجمع الزوائد ج٧ ص ٧١ عن الطبراني وصحح بعض طرقه، وعن أبي نعيم في الدلائل ص ١٣١.

المهمة التي أوكلت إليه ـ كما يرويه ابن اسحاق، واشارت إليه الرواية الأخيرة التي تقدمت عند ذكر نصوص الروايات ـ وان كان قد زيد فيها مالا يصح ـ فشاركه أهله في السرور، واسلموا، وقد روي هذا المعنى عن أهل البيت «عليهم السلام».

فعن زرارة أنه سال الامام الصادق «عليه السلام»: كيف لم يخف رسول الله (ص) فيما يأتيه من قبل الله: أن يكون مما ينزع به الشيطان؟. فقال: إن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار، فكان الذي يأتيه من قبل الله، مثل الذي يراه بعينه[1].

وسئل «عليه السلام»: كيف علمت الرسل انها رسل؟ قال: كشف عنهم الغطاء[2].

وقال الطبرسي: «إن الله لا يوحي إلى رسوله إلا بالبراهين النيرة، والأيات البينة، الدالة على ان ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى؛ فلا يحتاج إلى شيء سواها، ولا يفزع ولا يفزع، ولا يفرق[3]».

وقال عياض: «لا يصح ان يتصور له الشيطان في صورة الملك، ويلبّس عليه الامر، لا في أول الرسالة ولا بعدها. والاعتماد في ذلك على دليل المعجزة. بل لا يشك النبي ان ما ياتيه من الله هو الملك، ورسوله الحقيقي، إما بعلم ضروري يخلقه الله له، أو ببرهان جلي يظهره الله لديه؛ لتتم كلمة ربك صدقاً وعدلا، لا مبدل لكلمات الله[4]».

---

(١) التمهيد في علوم القرآن ج١ ص ٤٩ عن العياشي ج٢ ص ٢٠١، والبحار ج١٨ ص ٢٦٢.

(٢) التمهيد ج١ ص ٥٠، والبحار ج١١ ص ٥٦.

(٣) مجمع البيان ج١٠ ص ٣٨٤، والتمهيد ج١ ص ٥٠ عنه.

(٤) التمهيد ج١ ص ٥٠ عن رسالة الشفاء ص ١١٢.

لماذا الكذب والافتعال إذن؟!

وبعد كل ما تقدم؛ فإننا نرى أن افتعال تلك الاكاذيب يعود لأسباب، أهمها:

١ ـ إن حديث الوحي هو من أهم الأمور التي يعتمد عليها الاعتقاد بحقائق الدين وتعاليمه. وله أهمية قصوى في اقناع الانسان بضرورة الاعتماد في التشريع، والسلوك، والاعتقاد، والاخبارات الغيبية، وكل المعارف والمفاهيم عن الكون، وعن الحياة، على الرسل والانبياء، والائمة والاوصياء، وله أهمية كبرىٰ في اقناعه بعصمة ذلك الرسول، وصحة كل مواقفه وسلوكه، واقواله وافعاله.

فاذا أمكن أن يتطرق الشك في نفسه الى الوحي، على اعتبار أنه إذا لم يستطع النبي (ص) نفسه أن يفرق بين الملاك والشيطان، والوسوسة، والحقيقة، وهو يعاين ويشاهد؛ فان غيره وهو لا يتيسر له الاطلاع الحسي على شيء من ذلك يكون أولى بالشك، وعدم الاعتماد.

وقد نقل الحجة البلاغي ان بعض أهل الكتاب قد نقض على المسلمين بذلك فقال: «الشيطان قرين محمد، وتشبث بنقله عن بعض المفسرين قولهم: إنه كان لرسول الله عدو من شياطين الجن، كان يأتيه بصورة جبرئيل. وانه يسمى الابيض[1]».

وبعد هذا، فاننا نستطيع أن نعرف سر محاولات أعداء الاسلام الدائبة للتشكيك في اتصال نبينا الاعظم (ص) بالله تعالى، فافتعلوا الكثير مما رأوه مناسباً لذلك، من الوقائع والأحداث التي رافقت الوحي في مراحله الأولى، أو حرفوه وحوروه حسب أهوائهم، وخططهم، ومذاهبهم،

---

(١) الهدى إلى دين المصطفى ج١ ص ١٦٩ عن كتاب الهداية في الرد على إظهار الحق، والسيف الحميدي ج٣ ص ٥.

على اعتبار أنها فترة بعيدة نسبياً عن متناول الايدي عادة، فلما فشلوا في ذلك حاولوا ادعاء أن ما جاء به نبينا (ص) كان نتيجة عبقريته ونبوغه، وعمق تفكيره، ومعرفته بطرق استغلال الظروف، وانتهاز الفرص. وليس لأجل اتصاله بالمبدأ الاعلى تبارك وتعالى.

وهكذا، فاننا نستطيع أن نتهم يد أهل الكتاب في موضوع الاحداث غير المعقولة، التي تنسب زوراً وبهتاناً الى مقام نبينا الاعظم (ص) حين بعثته، ولا أقل من تشجيعهم لمثل هذه الترهات.

٢ ـ كما أنه لابد أن يحتاج نبينا (ص) إليهم لإمضاء صك نبوته، وتصديق وحيه، ويكون مديناً لهم، وعلى كل مسلم أن يعترف بفضلهم، وبعمق وسعة اطلاعهم، ومعرفتهم بأمور لا يمكن أن تعرف إلا من قبلهم؛ فكان اختراع هذا الدور لورقة، وعداس، وبحيرا، وناصح، ونسطور، وكلهم من أهل الكتاب!!.

٣ ـ واما سؤال: لماذا اختص نبينا الاعظم (ص) بكل تلك المصاعب والأهوال، وبهذه المعاملة السيئة من جبرائيل، حتى لقد صرح البعض: بأنه لم يُنْقَل عن أيّ من الانبياء السابقين: أنه تعرض لمثل ذلك عند ابتداء الوحي، حتى عدّ ذلك من خصائص نبينا (ص)[1].

إن هذا السؤال لا يبقىٰ له وقع، إذا لاحظنا: أن بعض الامور والأحوال غير المعقولة، قد تسربت إلى بعض المسلمين من قبل أهل الكتاب، حتى أصبحت جزءاً من التاريخ، والفقه، والعقائد والخ. وذلك من أجل أن يكون لنبي المسلمين نفس الحالات التي تذكر لغيره من الانبياء في كتب اهل الكتاب.

---

(١) بهجة المحافل ج١ ص ٦٢، وفتح الباري ج٨ ص ٥٥٢، وإرشاد الساري ج١ ص ٦٣، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٤٢.

وإذن، فليس غريباً أن نجد ملامح هذه القصة موجودة في العهدين، فقد جاء في الكتابين الذين يطلق عليهما اسما التوراة والانجيل: أن دانيال خاف وخر على وجهه، وزكريا اضطرب، ووقع عليه الخوف، ويوحنا سقط في رؤياه كميت، وعيسى تغيرت هيئة وجهه، وبطرس حصلت له غيبوبة واغماء، وهكذا الحال بالنسبة ليعقوب وابراهيم وغيرهم[1].

ولكن ذلك لا يعني: أننا ننكر ثقل الوحي عليه (ص): فان ذلك بحث آخر[2]. ولكننا ننكر اضطرابه وخوفه (ص)، حتى أراد أن يتردى من شواهق الجبال، وخاف على نفسه الجنون. وننكر ما فعله به جبرئيل، حسب ما ذكرته الروايات المتقدمة، فان الظاهر ان ذلك قد تسرب من قبل أهل الكتاب إلى المحدثين الاتقياء. أو فقل: الاغبياء! الاشقياء، كما هو الحال في كثير من نظائر المقام، حسبما يظهر للناقد البصير، والمتتبع الخبير.

٤ ـ انك تجد في العهدين أن الشيطان يتصرف بالانبياء وغيرهم حتى بابن الاله بزعمهم فيقولون: إن الروح أصعد المسيح إلى البرية أربعين يوماً ليجرب من قبل ابليس، فأصعده الشيطان الى جبل عال، وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان، وقال له: أعطيك هذا السلطان كله واسجد لي إلخ[3].

وقال في موضع آخر: ولما اكمل ابليس كل تجربة (أي مع

---

(١) راجع في ذلك كله: الهدى إلى دين المصطفى، للحجة البلاغي ج١ ص ١٤.

(٢) وقوله تعالى: «إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً» يرى المحقق السيد مهدي الروحاني أن معناه: أن مهمة دعوة الناس إلى الحق، وترك عاداتهم وما هم عليه حتى يزكيهم، من أثقل الأمور وأصعبها.

(٣) إنجيل متى الإصحاح ٤ الفقرة ٣ ـ ١٣ والهدى إلى دين المصطفى ج١ ص ١٧٠ عنه.

المسيح) فارقه إلى حين[١].

ويقول بولس الرسول: ولئلا أرتفع بفرط الاعلانات اعطيت شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليلطمني؛ لئلا أرتفع؛ من جهة هذا تضرعت إلى الرب ثلاث مرات أن يفارقني[٢].

وفي موضع آخر: لذلك أردنا أن نأتي أنا وبولس مرة ومرتين، وإنما عاقنا الشيطان[٣].

كما أن الانجيل يذكر: أن المسيح قد عبر عن بطرس بأنه شيطان[٤].

إلى غير ذلك مما لا مجال لتتبعه[٥].

٥ ـ وعدا عن ذلك كله. فاننا لا نستبعد: أن يكون الهدف من جعل تلك الترهات، هو الحط من كرامة النبي الاعظم (ص)، والطعن في قدسيته ومقامه في نفوس الناس، وتصويره لهم على أنه رجل عادي مبتذل، ولا أدل على ذلك من إحتياجه الى أبسط الناس حتى النساء ليرشده إلى طريق الهدى، ويدله على الحق؛ مما يدل على أنه قاصر محتاج باستمرار الى مساعدة الأخرين؛ الذين هم أحسن تصرفا وأكثر تعقلا منه.

وقد أشرنا في تمهيد الكتاب إلى بعض ما يمكن أن يقال في ذلك،

---

(١) الهدى إلى دين المصطفى ج١ ص ١٧١ عن إنجيل لوقا ١٣.

(٢) كورنثوش الثانية الإصحاح ١٢ فقرة ٧ ـ ٩.

(٣) تسالونيكي الأولى الإصحاح الثاني فقرة ١٨. والهدى إلى دين المصطفى ج١ ص ١٧٢ عنه.

(٤) إنجيل متى الإصحاح ١٦ فقرة ٢٣، والهدى إلى دين المصطفى ج١ ص ١٧١.

(٥) راجع: الهدى إلى دين المصطفى ج١ ص ١٦٩ ـ ١٧٣.

وقلنا: إن الظاهر هو أن تلك خطة السياسيين، الذين يريدون أن يرغموا أنوف بني هاشم، ويُبزّونهم سياسياً، من أمثال: معاوية الذي أقسم على أن يدفن ذكر النبي (ص)، ومع معاوية سائر الامويين واعوانهم.

ومن أمثال عبدالله بن الزبير، الذي قطع الصلاة على النبي (ص) مدة طويلة؛ لأن له أهيل سوء إذا ذكر شمخت آنافهم[1].

٦ ـ لقد كان الزبيريون يواجهون وينافسون الامويين، ويعادون الهاشميين، ويحسدونهم على مالهم من شرف وسؤدد.

واذا لاحظنا نصوص الرواية المتقدمة لقضية ورقة بن نوفل، فإن عمدة رواتها هم من الزبيريين وحزبهم،

كعروة بن الزبير، الذي اصطنعه معاوية ليضع أخباراً قبيحة في علي.

وكإسماعيل بن حكيم ـ مولى آل الزبير.

وكذلك وهب بن كيسان.

ثم أم المؤمنين عائشة خالة عبدالله بن الزبير.

ثم لاحظنا في المقابل: أن خديجة هي بنت خويلد بن أسد، وورقة هو ابن نوفل بن أسد، والزبير هو ابن العوام بن خويلد بن أسد. فتكون النسبة بين الجميع واضحة المعالم[2] ـ إذا لاحظنا ذلك كله ـ فإننا نستطيع أن نعرف: أنه كان لابد وأن يكون لأقارب عبدالله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، ومن ثم للزبيريين بشكل عام، دور حاسم في انبعاث الإسلام، إذ لولاهم لقتل النبي (ص) نفسه، أو على الأقل لم

---

(١) تقدمت مصادر ذلك حين الكلام على حلف الفضول فراجع.

(٢) لكن من الواضح: أن كون ورقة هو ابن عم خديجة؛ يبعد كون ورقة شيخاً كبيراً، قد وقع حاجباه على عينيه، كما تزعم النصوص المتقدمة.

يستطع أن يكتشف نبوة نفسه.

وإذا كان للزبيريّين هذا التاريخ المجيد، فليس للأمويين أن يفخروا عليهم بخلافة عثمان، وليس للهاشميين أن يفخروا بمواقف أبي طالب، وولده علي أمير المؤمنين «عليه السلام».

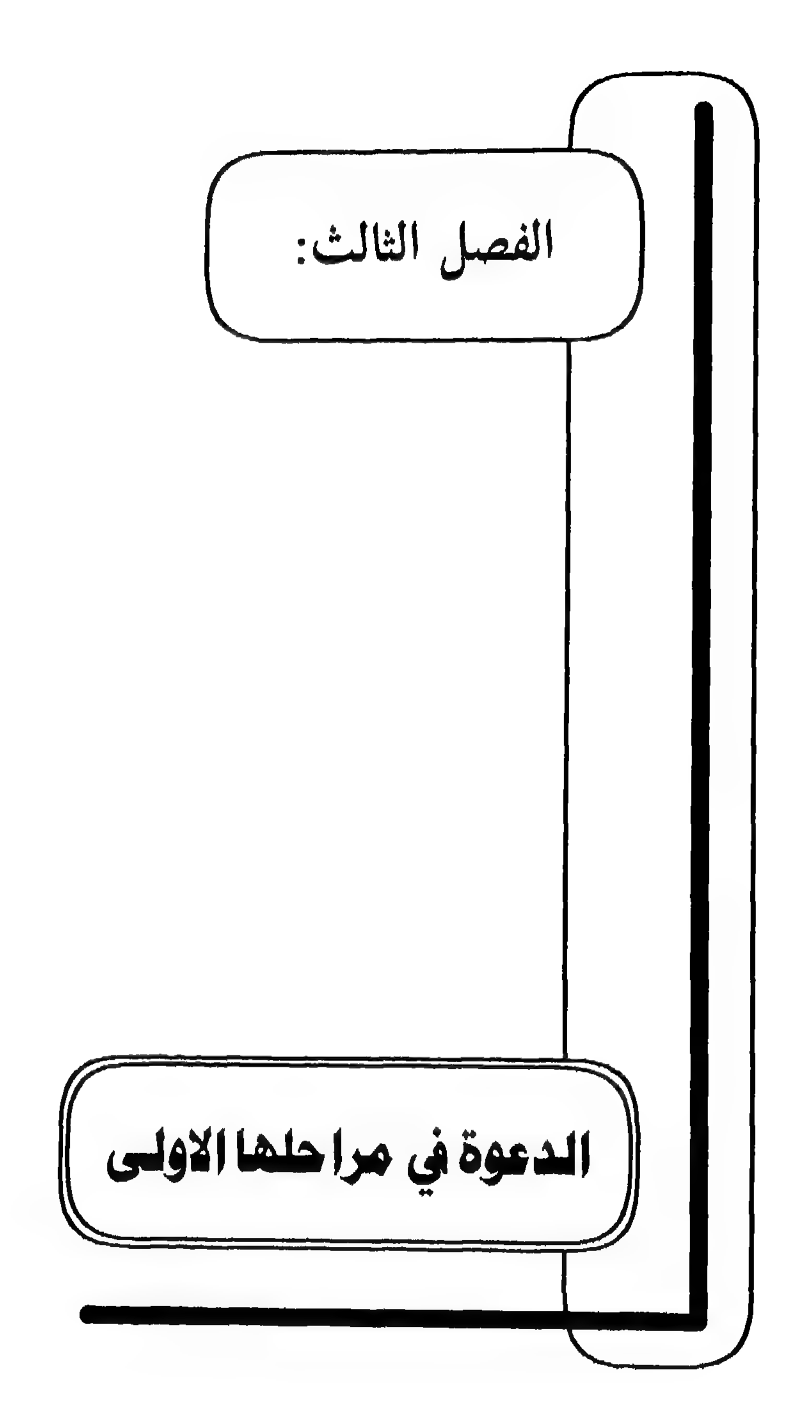
وإذن، فلابد من دعوى: أن ورقة قد تنصر، وأنه كان يكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء، إلى آخر ما قيل ويقال في ذلك.

النتيجة:

وهكذا فإن النتيجة تكون هي: أن الأمويين يستفيدون من افتعال القصة على هذا النحو، ويحققون أعز أهدافهم وأغلاها، كما أن الزبيريين أيضاً يستفيدون منها، أما أهل الكتاب فيكون لهم منها حصة الأسد.

وبذلك ينعقد الإجماع من قبل مسلمة أهل الكتاب، الذين لم يسلموا ولكنهم إستسلموا، إلى جانب منافقي هذه الأمة وطلقائها، وطلاب الدنيا، فأدخلوا في الإسلام من إسرائيليات أولئك، وترهات هؤلاء كل غريبة؛ ونسبوا إلى نبي الإسلام كل عجيبة، بعد أن نجحوا في إبعاد أهل البيت «عليهم السلام» عن موقعهم الذي جعله الله سبحانه لهم، ليحتل القصاصون وأذناب الحكام محلهم، وكانت هذه الجريمة النكراء حينما التقت المصالح والأهواء، واجتمعت على هذا الأمر، فلماذا لا يدلي كل بدلوه؟ أو كيف لا تشجع أمثال هذه الترهات والأباطيل.

عصمنا الله من الزلل، في القول والعمل.



الفصل الثالث:

الدعوة في مراحلها الاولى



أول من أسلم:

إن أول من أسلم، واتبع وصدق، وآزر وناصر، هو أمير المؤمنين، وإمام المتقين، علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه وعلى أبنائه الأئمة الطاهرين.

وأورد العلامة الأميني في كتابه القيم[1]: أقوالاً عن العشرات من كبار الصحابة، والتابعين، وغيرهم من الأعلام، وعن العشرات من المصادر غير الشيعية، تؤيد وتؤكد على ان أمير المؤمنين «عليه السلام» هو أول الأمة اسلاماً.

ومن هؤلاء الأعلام: ١ ـ علي «عليه السلام» نفسه، ٢ ـ الإمام الحسن «عليه السلام»، ٣ ـ الإمام الباقر «عليه السلام»، ٤ ـ عمر بن الخطاب، ٥ ـ سلمان الفارسي، ٦ ـ أنس بن مالك، ٧ ـ إبن عباس، ٨ ـ أبوذر، ٩ ـ المقدادبن عمرو، ١٠ ـ خباب بن الارت، ١١ ـ جابر بن عبد الله الأنصاري، ١٢ ـ أبو سعيد الخدري، ١٣ ـ حذيفة بن اليمان،

---

(١) راجع: الغدير ج٣ ص ٩٥ و٩٦ و٩٩ و٢٢٤ ـ ٢٣٦ وج١٠ ص ١٥٦ و١٥٨ و١٦٤ و١٦٨ و٢٩٠ و٣٢٢ وج٩ ص ١١٥ و١٢٢ وراجع دلائل الصدق، والأوائل للطبراني ص ٧٨/٧٩.

١٤ ـ عبد الله بن مسعود، ١٥ ـ أبو أيوب الأنصاري، ١٦ ـ خزيمة بن ثابت «ذو الشهادتين»، ١٧ ـ عمرو بن العاص، ١٨ ـ سعد بن أبي وقاص، ١٩ ـ زيد بن أرقم، ٢٠ ـ محمد بن أبي بكر، ٢١ ـ جرير بن عبد الله البجلي، ٢٢ ـ بريدة الأسلمي، ٢٣ ـ عفيف الكندي، ٢٤ ـ أبو رافع، ٢٥ ـ أبو مرازم، ٢٦ ـ هاشم المرقال، ٢٧ ـ عبد الله بن حجل، ٢٨ ـ ابو عمرة «بشير بن محصن»، ٢٩ ـ عبد الله بن خباب بن الارت، ٣٠ ـ عبد الله بن بريدة، ٣١ ـ مالك الأشتر، ٣٢ ـ عدي بن حاتم، ٣٣ ـ محمد بن الحنفية، ٣٤ ـ طارق بن شهاب الأحمسي، ٣٥ ـ عبد الله بن هاشم المرقال، ٣٦ ـ عمرو بن الحمق، ٣٧ ـ سعيد بن قيس الهمداني، ٣٨ ـ عبد الله بن أبي سفيان، ٣٩ ـ كعب بن زهير، ٤٠ ـ ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب، ٤١ ـ الفضل بن أبي لهب، ٤٢ ـ أبو الأسود الدؤلي، ٤٣ ـ جندب بن زهير، ٤٤ ـ مالك بن عبادة، ٤٥ ـ زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدي، ٤٦ ـ النجاشي بن الحارث بن كعب، ٤٧ ـ عبد الله بن حكيم، ٤٨ ـ عبد الرحمن بن حنبل، ٤٩ ـ عامر الشعبي، ٥٠ ـ الحسن البصري، ٥١ ـ قتامة، ٥٢ ـ إبن شهاب الزهري، ٥٣ ـ محمد بن المكندر، ٥٤ ـ أبو حازم سلمة بن دينار، ٥٥ ـ ربيعة بن عبد الرحمن، ٥٦ ـ محمد بن السائب الكلبي، ٥٧ ـ جنيد بن عبد الرحمن، ٥٨ ـ محمد بن إسحاق، ٥٩ ـ الوليد بن جابر، وزاد العسقلاني: ٦٠ ـ عبد الله بن فضالة المزني، ٦١ ـ عمر بن مرة الجهني[1].

بعض ما جاء في سبق علي الى الإسلام:

هذا كله، عدا عن الكثير من الروايات الواردة عن النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، وكلمات أمير المؤمنين نفسه، وعدا

(١) الإصابة ج٢ ص ٣٥٧/٣٥٨.

عن كلمات الصحابة والتابعين وأشعارهم، بل لقد ادعى البعض الإجماع عليه[١].

ولعل حصر ذلك متعذر على أي باحث ومتتبع، ولذا فلا محيص لنا عن الإكتفاء بأمثلة قصيرة لتكون عنواناً وإشارة لغيرها من الكثير الطيب الذي لم نذكره. ونحيل القارىء الى ما كتبه العلامة الأميني[٢] فليراجعه إن أراد.

فإنهم يقولون:

لقد بعث النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» يوم الإثنين، وأسلم علي «عليه السلام» يوم الثلاثاء[٣].

ومما ورد عن النبي الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» بسند صحيح قوله: أولكم وروداً علي الحوض، أولكم إسلاماً علي بن أبي طالب[٤].

وعنه «صلى الله عليه وآله وسلم»: إنه لأول أصحابي إسلاماً، أو أقدم أمتي سلماً[٥].

---

(١) راجع: الصواعق المحرقة الفصل الأول، الباب التاسع، ومعرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢٢.

(٢) راجع: الغدير ج٣ ص ٢٢٠ - ٢٤٣ وج١٠ ص ١٥٨ - ١٦٢.

(٣) راجع: الأوائل ج١ ص ١٩٥.

(٤) مستدرك الحاكم ج٣ ص ١٣٦ وصححه، وتاريخ بغداد للخطيب ج٢ ص ٨١، والاستيعاب هامش الإصابة ج٣ ص ٢٨ وشرح النهج للمعتزلي والسيرة الحلبية، والسيرة النبوية لدحلان، ومناقب الخوارزمي، والغدير ج٣ ص ٢٢٠ عنهم فراجعه، والآحاد والمثاني، مخطوط في مكتبة كوپرلي رقم ٢٣٥.

(٥) الغدير ج٣ ص ٩٥/٩٦ عن: مسند أحمد ج٥/٢٦ والاستيعاب ج٣ ص ٣٦، والرياض النضرة، ومجمع الزوائد، والمرقاة، وكنز العمال، والسيرة النبوية لدحلان، =

وعنه أنه أخذ بيد علي «عليه السلام»، فقال: هذا أول من آمن بي، وهذا أول من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر[1].

وعنه «صلى الله عليه وآله وسلم»: هذا أول من آمن بي، وصدقني، وصلى معي[2].

وعنه «صلى الله عليه وآله وسلم»: إن أول من صلى معي علي[3].

تصريحات أمير المؤمنين «عليه السلام» في ذلك:

وعلي[1] نفسه يصرح في كثير من المناسبات بذلك؛ فيقول عن نفسه: إنه لم يسبقه أحد في الصلاة مع رسول الله، وأنه أول من أسلم مع رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» وأنه الصديق الأكبر «عليه السلام»، وأنه لايعرف أحداً في هذه الأمة عبد الله قبله غير النبي «صلى الله عليه وآله وسلم». وأنه صلى قبل أن يصلي الناس سبع سنين[4].

ولعل المراد التعبد مع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل البعثة بسنتين، أو خمس سنين؛ حيث بدأت إرهاصات النبوة، ثم يضم إليهما

.. والسيرة الحلبية، وليراجع: مستدرك الحاكم ج٣، والمنمق، وجمع الجوامع ومجمع الزوائد ج٩ ص ١٠٢ عن الطبراني عن ابن إسحاق، وقال: هو مرسل صحيح: الإسناد، وأخرجه الطبراني وأحمد قال الهيثمي ج٩ ص ١٠١ وفيه خالد بن طهمان وثقه أبو حاتم وبقية رجاله ثقات.

(١) الغدير ج٢ ص ٣١٣ عن الطبراني والبيهقي، والعدني، ومجمع الزوائد وكفاية الطالب وإكمال كنز العمال ولسوف يأتي في حديث الغار حين الكلام عن تلقيب أبي بكر بالصديق المزيد من المصادر لهذا الحديث، وفرائد السمطين ج١ ص ٣٩.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ج١٣ ص ٢٢٥.

(٣) الغدير ج٣ ص ٢٢٠ عن فرائد السمطين باب ٤٧ بأربعة طرق.

(٤) مصادر ذلك ستأتي بعد الهامش التالي.

ثلاث أو خمس سنين فترة الدعوة الإختيارية غير المفروضة بعد البعثة.

أو لعله عبد الله حقاً مع رسول الله قبل البعثة سبع سنين إذا كان قد أسلم(ع) وهو إبن إثني عشر سنة أو حتى عشر سنين. حيث كان الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» يتعبد قبل البعثة وكان «صلى الله عليه وآله وسلم» على دين الحنيفية، فكان علي «عليه السلام» يعبد الله معه «صلى الله عليه وآله وسلم».

إلّا أن يكون الصحيح في الرواية هو ماذكره إبن بطريق أنه قال: صلت الملائكة عليّ وعلى علي سبع سنين[١].

ومهما يكن من أمر فإن الكلمات الدالة على هذا الأمر كثيرة، كما أنه، «عليه السلام» قد كتب هو نفسه بهذا الأمر الى معاوية، ورده في كلماته الكثيرة المتضافرة[٢].

دليل آخر:

وإن إحتجاجه «عليه السلام» بأنه أول من أسلم، واحتجاج أصحابه

---

(١) كشف الغمة للإربلي ج١ ص ٣٣٤.

(٢) راجع هذه النصوص كلها عن أمير المؤمنين في الغدير ج٣ ص ٢١٣ و٢٢١ و٢٢٢ وج١٠ ص ١٥٨ - ١٦٤ وج٢ ص ٢٥ - ٣٠ و٣١٤ عن: شرح النهج ج١ ص ٥٠٣ و٤٠٤ و٢٨٣ وج٢ ص ١٠٢ وأبي داود بإسناد صحيح، وتاريخ بغداد للخطيب ج٤ ص ٢٢٤، ومجمع الزوائد ج٩ ص ١٠٢ عن أبي يعلى، وأحمد، والبزار والطبراني في الأوسط، وفرائد السمطين باب ٤٨، والأوائل ج١ ص ١٩٥ ووقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٣٥٥ و٣٦٠ و١٣٢ و١٠٠ و١٦٨ وجمهرة الخطب ج١ ص ١٧٨ و٥٤٢ و٤٢٨ وجمهرة الرسائل ج١ ص ٥٤٢، ومروج الذهب ج٢ ص ٥٩، وتذكرة سبط ابن الجوزي ص ١١٥، ومطالب السؤل ص ١١، والمحاسن والمساوي ج١ ص ٣٦ وتاريخ القرماني هامش الكامل ج١ ص ٢١٨. وثمة مصادر أخرى في الغدير ج١٠ ص ٣٢٢ فراجع.

من الصحابة والتابعين بهذه الكثرة العجيبة على خصومهم، في صفين وغيرها واهتمامهم الواضح بهذا الأمر ليدل على ذلك دلالة واضحة.

ولم نجد أحداً من أعدائه «عليه السلام» حاول إنكار ذلك، أو التشكيك فيه، أو طرح إسم رجل آخر على أنه هو صاحب هذه الفضيلة دونه، رغم توفر الدواعي لذلك، ورغم أن الطرف المقابل لايتورع حتى عن الإختلاق والكذب على الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، بل على الله سبحانه وتعالى. فلو أنهم عرفوا: أن كذبتهم هذه تجوز على أحد لكانوا لها من المبادرين. ولكن التسالم على هذا الأمر كان بحيث لايمكنهم معه التوسل بأية حيلة، فكل ذلك يدل على أن ذلك قد كان أمراً مسلماً به ومجمعاً عليه، ولا يمكن إنكاره لأحد.

وكشاهد على هذا التسالم نذكر هنا حادثة واحدة فقط، جرت لسعد بن أبي وقاص، الذي كان منحرفاً عن علي «عليه السلام»، ـ كما سيأتي في معركة أحد إن شاء الله تعالى ـ ونترك ماعداها وهو كثير جداً. وهذه الحادثة هي أنه:

سمع رجلاً يشتم علياً، فوقف عليه وقرره بقوله: ياهذا، علامَاتشتم علي بن أبي طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلى مع رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»؟ ألم يكن أعلم الناس؟ إلخ[1].

كما أن المقداد كان يتعجب من قريش لدفعها هذا الأمر عن أول المؤمنين إسلاماً، يعني علياً[2].

---

(١) مستدرك الحاكم ج٣ ص ٥٠٠، وصححه هو والذهبي في تلخيصه هامش نفس الصفحة، وحياة الصحابة ج٢ ص ٥١٤/٥١٥.

(٢) الغدير ج٩ ص ١١٥ عن اليعقوبي ج٢ ص ١٤٠.

خاتمة المطاف:

وأظن أن ماذكرناه كاف ووافٍ في هذا المجال، ومن أراد المزيد فعليه بالمراجعة إلى الكتب المعدة لذلك.

وبعد هذا، فلا يصغى لقول النواصب والحاقدين، الذين يهتمون في طمس فضائله «عليه السلام» بكل وسيلة، ولو عن طريق الدجل والتزوير، ومنهم إبن كثير، الذي قال: «وقد ورد في أنه أول من أسلم أحاديث كثيرة، لايصح منها شيء[1]».

لايا إبن كثير: لقد تجنيت على الحقيقة وعلى التاريخ كل التجني، ولم تستطع أن تكتم مايعتلج في صدرك من إحن ـ فجرّك ذلك إلى المكابرة، وإلى إنكار مايكاد يلحق بالضروريات. فإن الروايات الصحيحة والصريحة الدالة على هذا الأمر كثيرة وكثيرة جداً، كما يعلم بالمراجعة[2].

القول بأن خديجة أول من أسلم:

ونجد في مقابل ذلك قولاً آخر مفاده: أن خديجة كانت هي السباقة إلى الإسلام وانها أول مخلوق آمن به. بل لقد ادعى البعض الإجماع على هذا القول[3].

ولكنه قول مردود، لأن العديد من الروايات عن النبي «صلى الله

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص ٣٣٥.

(٢) راجع الغدير ج٣ وإحقاق الحق، قسم الملحقات، وغير ذلك.

(٣) راجع: السيرة الحلبية ج١ ص ٢٦٧، وفي تهذيب الأسماء واللغات ج٢ ص ١٨٢ نقل عن الثعلبي الاتفاق عليه. وقال ابن الأثير: إنها أول خلق الله إسلاماً بإجماع المسلمين. راجع السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٩٠. وإسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار ص ١٤٨ والأوائل للطبراني ص ٨٠.

عليه وآله وسلم»، وعن علي «عليه السلام»، وعن الصحابة والتابعين تعبر بأن علياً أول من صلى، أو أول من آمن، أو أول الأمة أو الناس إسلاماً[١]، ولا يمكن أن يكون المقصود بالأمة أو الناس خصوص الرجال بناء على هذا القول، ولا خصوص الصبيان، بناء على قول آخر يأتي.

أبو بكر، وسبقه إلى الإسلام:

وبعد كل ماتقدم نعرف: أن ادعاء سبق غير أمير المؤمنين «عليه السلام» إلى الإسلام قد جاء متأخراً عن عهد الخلفاء الأربعة، ووضع بعد وفاة أمير المؤمنين «عليه السلام»، ولربما يكون قد حصل ذلك حينما كتب معاوية إلى الأقطار يأمرهم أن لايدعوا فضيلة لعلي إلا ويأتوه بمثلها لغيره من الصحابة[٢].

ومن هنا، فإننا نعتقد: بأن القول بأولية إسلام أبي بكر، والمروي عن: ١ ـ إبن عباس ٢ ـ الشعبي ٣ ـ أبي ذر ٤ ـ عمرو بن عبسة ٥ ـ ابراهيم النخعي ٦ ـ حسان بن ثابت، الذي يروى عنه قوله:

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر وما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... إلا النبي وأوفاها بما حصلا
والثاني الصادق المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا
عاش حميداً، لأمر الله متبعاً ... بهدي صاحبه الماضي وما انتقلا[٣]

---

(١) راجع: السيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٩١، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٦٨ و٢٧٥ ومناقب المغازلي، ومناقب الخوارزمي، ص ١٨ ـ ٢٠ والغدير ج٣ ص ٢٢٠ ـ ٢٣٦ وج١٠ ص ١٦٨ و٢٩٠ و٣٢٢ وج٩ ص ٣٩٢ تجد الكثير من التصريحات بذلك وكذا في تاريخ بغداد ج٤ ص ٢٣٣ وحلية الأولياء ج١ ص ٦٦ وتهذيب تاريخ دمشق ج٣ ص ٤٠٧.

(٢) راجع: النصائح الكافية لمن يتولى معاوية من ٧٢ حتى ص ٧٤.

(٣) ديوان حسان ص ٢٩ ط أوروبا.

نعم، إننا نعتقد: أن ذلك كله موضوع في وقت متأخر، تزلفاً للأمويين، كما أن شعر حسان هذا لايبعد أن يكون منحولاً، إذ لايمكن أن يبادر إلى مخالفة ما كان متسالماً عليه بين الأمة، ولاسيما الصحابة منهم.

كما أننا نلاحظ: أن البيتين الأخيرين، فيهما حشو ظاهر، وليس لهما صياغة منسجمة[1].

ولربما يقال: إنهما بعيدان عن نَفَس حسان، وعن شاعريته، وعن سبكه، وطريقته

ومما يدل على عدم صحة ذلك بالإضافة الى ماتقدم:

أولاً: إنه قد تقدم: أن إبن عباس، والشعبي، وأبا ذر الذين روي عنهم القول بأولية أبي بكر هم أنفسهم يقولون: إن أمير المؤمنين «عليه السلام» هو أول من أسلم. ويقول الإسكافي[2]: إن حديثهم في علي أقوى سنداً، وأشهر من الحديث الآخر المنسوب إليهم في أبي بكر.

وأما رواية أبي ذر، وعمر بن عبسة؛ فهي مضطربة، لأنها تذكر: أن أبا ذر، وعمرو بن عبسة كلاهما ربع الإسلام، وأن بلالاً أسلم قبل أبي بكر، ولاتذكر علياً «عليه السلام»، ولاخديجة، وهذا يعني: أن بلالاً قد أسلم قبل خديجة وعلي؛ مع أن العكس هو الصحيح، فإذا كانت خديجة رحمها الله وعلي «عليه السلام» وبلال، وعمرو بن عبسة قد أسلموا أولاً؛ فأين يكون إسلام أبي بكر بعد هذا؟!

وثانياً: إن عائشة نفسها تعترف بأن أباها كان رابعاً في الإسلام، وقد

---

(١) فليلاحظ مثلاً: كلمة منهم في البيت الثالث.
وقوله في الرابع: (متبعاً بهدي) وقوله: وما انتقلا إلى غير ذلك من وجوه الضعف في السبك والصياغة.

(٢) راجع، الغدير، وشرح النهج للمعتزلي ج١٣، وآخر كتاب العثمانية.

سبقه إلى ذلك خديجة، وزيد بن حارثة، وعلي «عليه السلام»[١].

وثالثاً: قد تقدم: أننا لم نجد أحداً يعترض على الصحابة، ولا على التابعين، ولا على أمير المؤمنين «عليه السلام» في إحتجاجاتهم المتعددة على معاوية وغيره بأن علياً هو أول الأمة إسلاماً ـ لم نجد أحداً يعترض، ويقول: بل أبو بكر هو الأول.

وماروي من ذلك من أن أبا بكر قد احتج به، فقد فنّده العلامة الأميني في الغدير واثبت أنه غير صحيح فليراجع[٢].

فإلى متى يدخرون هذه الحجة؟! ولماذا يدخرونها؟!

بل إننا لم نجد أبا بكر، ولا أحداً من أنصاره ومحبيه يحتج له بأنه أول من أسلم، رغم احتياجاتهم الشديدة إلى ذلك، ولاسيما في السقيفة؛ حيث لم يجدوا مايحتجون به من فضائله إلا كونه كبير السن، وصاحب رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» في الغار ـ كما احتج به صاحبه عمر، وغيره ثمة[٣] ـ وستأتي الإشارة إلى إحتجاجاتهم تلك حين الحديث على قضية الغار إن شاء الله تعالى.

هذا كله، عدا عن تصريح البعض بأن أبابكر كان رابع أو خامس من أسلم[٤].

---

(١) راجع: الأوائل ج١ ص ٢٠٢ وراجع ص ٢٠٦.

(٢) راجع: الغدير ج٧ ص ٩١ ـ ٩٤. و٢٢٤ فما بعدها.

(٣) مستدرك الحاكم ج٣ ص ٦٦، وسنن البيهقي ج٨ ص ١٥٣ والغدير ج٥ ص ٣٦٩ وج٧ ص ٩٢ وج١٠ ص ٧ و١٣ عن عدد كبير من المصادر، وكنز العمال ج٨ ص ١٣٩ عن ابن أبي شيبة، وعن الكنز أيضاً ج٣ ص ١٤٠. ولسوف نذكر طائفة من المصادر حين الكلام عن قضية الغار.

(٤) راجع: سير اعلام النبلاء ج١ ص ٢١٦.

وعدا عن قول أمير المؤمنين علي «عليه السلام»: أنا الصديق الأكبر، أسلمت قبل أن يسلم أبو بكر[١].

وعدا عن الرواية التي تقول: إن العباس قد أخبر عفيفاً بأنه لم يسلم سوى خديجة وعلي، فلو أن عفيفاً أسلم حينئذ كان في الإسلام ثانياً[٢].

ورابعاً: إننا نقول: إن إسلام أبي بكر قد تأخر عن البعثة عدة سنوات ويدل على ذلك ـ ونحن نلزمهم بما ألزموا به أنفسهم ـ الأمور التالية:

١ ـ ماقالوه من أنه لما أسلم سماه النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» صديقاً[٣] مع أن تسميته هذه ـ كما يدّعون ـ إنما كانت بعد الإسراء حين صدقه أبو بكر وكذبته قريش[٤].

أو حين الهجرة في الغار(وكلاهما لايصح أيضاً كما سيأتي في حديث الغار إن شاء الله تعالى). وهم يدّعون: أن الإسراء كان بعد البعثة بإثنتي عشرة سنة وإن كنا نحن نعتقد بخلاف ذلك. وأنه كان في السنة الثانية أو الثالثة، كما سيأتي في الفصل الآتي.

٢ ـ يروي البعض: أنه أسلم وآمن بعد الإسراء والمعراج فسمي يومئذٍ ب «الصديق»[٥] مع قولهم: أن الإسراء والمعراج كان قبل الهجرة بقليل ـ كما سنرى ـ

---

(١) ستأتي مصادر ذلك في أواخر الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) راجع: لسان الميزان ج١ ص ٣٩٥ وغير ذلك.

(٣) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٧٣، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨.

(٤) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٧٣.

(٥) مجمع الزوائد ج١ ص ٧٦ عن الطبراني في الكبير.

٣ ـ لقد روى الطبري ـ بسند صحيح كما يقول الأميني[١] ـ عن محمد بن سعيد، قال: قلت لأبي: أكان أبو بكر أولكم إسلاماً؟ فقال: لا، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين[٢].

وهذا يعني: أنه قد أسلم بعد انتهاء الفترة الإختيارية للدعوة، وبعد خروجه «صلى الله عليه وآله وسلم» من دار الأرقم، لأنهم قد خرجوا بعد أن تكاملوا أربعين رجلاً، كما يقولون. وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى. حين الكلام حول إسلام عمر بن الخطاب.

٤ ـ ولسوف نذكر إن شاء الله في أواخر حديث الغار: أن أبا قحافة يذكر: أن إبن مسعود قد أسلم هو وجماعة قبل إسلام أبي بكر، وإبن مسعود قد أسلم قبل إسلام عمر كما ذكره النووي في تهذيب الأسماء واللغات.

٥ ـ لقد ورد: أنه «صلى الله عليه واله وسلم» قد بعث وأبو بكر غائب في اليمن، قال أبو بكر، فقدمت مكة، وقد بعث النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فجاءني صناديد قريش. إلى أن قال: «فقالوا: يا أبا بكر، أعظم الخطب، وأجل النوائب، يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي. ولو لا أنت ـ أو: ولولا انتظارك ماانتظرنا به؛ فإذ قد جئت فأنت الغاية والكفاية[٣]».

والذي عند أبي هلال، عن الشعبي، عن أشياخه، منهم جرير، في خبر طويل هو: «قال أبو بكر: فلما قدمت مكة استبشروا، وظنوا أنه فتح عليهم بقدومي فتح، واجتمعوا إلي، وشكوا أبا طالب، وقالوا: لولا

---

(١) الغدير ج٣ ص ٢٤٠.

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص ٦٠ والبداية والنهاية ج٣ ص ٢٨ والتعجب للكراجكي ص ٣٤.

(٣) الصواعق المحرقة ص ١٤٨ ط سنة ١٣٢٤ هـ. والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٧٥، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٨٩، وتاريخ الخميس ج١ ص ٢٨٧.

تعرّضه دونه لما انتظرنا به. قلت: ومن تبعه على مخالفة دينكم؟ قالوا: بني أبي طالب[1]».

ولكن لنا تحفظ على هذا النص الذي يعطي لأبي بكر منزلة كبيرة في قريش، وهي منزلة لا يؤيد التأريخ أن أبا بكر كان قد بلغها أصلاً، كما سنشير اليه في موضعه.

٦ ـ وعن إبن اسحاق، قال: إن أبا بكر لقي رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، فقال: أحق ماتقول قريش يامحمد، من تركك آلهتنا، وتسفهيك عقولنا، وتكفيرك آباءنا إلخ. ثم ذكر إسلام أبي بكر[2].

وان كنا نشك في صحة هذا النص الأخير، إذ أن رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يعبد تلك الآلهة قط، فما معنى سؤاله عن ذلك؟! إلا إذا قلنا إنه لم يكن يتجاهر برفضها، فصحّ أن يسأله عن ذلك.

ويؤيد ذلك مارواه المقدسي، قال: «إسلام أبي بكر ـ زعم بعض الرواة: أنه كان في تجارة له بالشام، فأخبره راهب بوقت خروج النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» من مكة، وأمره باتباعه، فلما رجع سمع رسول الله يدعو الى الله، فجاء وأسلم[3]».

ويؤيد ذلك أيضاً قولهم: إن أبا بكر قال للنبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: فقدت من مجالس قومك، واتهموك بالعيب لآبائها وأمهاتها. فدعاه «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى الإسلام فأسلم[4].

---

(١) الأوائل للعسكري ج١ ص ١٩٤.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ج١ ص ٤١٦/٤١٧. والسيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ٤٣٢/٤٣٣. وسيرة ابن إسحاق ص ١٣٩.

(٣) البدء والتاريخ ج٥ ص ٧٧.

(٤) البداية والنهاية ج٣ ص ٢٩/٣٠ والسيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ٤٣٩.

فكل ذلك يدل على أن إسلام أبي بكر كان بعد الفترة السرية وبتعبير أدق بعد(فترة الدعوة الإختيارية، وغير المفروضة) التي استمرت ثلاث أو خمس سنوات.

وبعد أن أنذر عشيرته الأقربين، وبعد أن أمر بالصدع بالأمر، ودعوة الناس عامة.

وبعد تكفيره للآباء والأمهات.

وبعد عرض قريش على أبي طالب أن يقنع ولده بالعدول عن هذا الأمر.

وبعد عرضهم عليه ولداً آخر على أن يخلي بينه وبينهم.

وبعد وقوع المواجهة بين قريش وبينه، ثم قيام أبي طالب دونه، ولولا انتظارهم لأبي بكر ما انتظروا به. وكل ذلك يدل على أن إسلامه قد تأخر إلى السنة الرابعة أو الخامسة إن لم يكن بعد ذلك أيضاً؛ فقد قال أبو القاسم الكوفي: إن أبا بكر قد أسلم بعد سبع سنين من البعثة[1].

ولربما يكون ذلك صحيحاً أو قريباً من الصحيح، إذا أخذنا بالروايات المتقدمة الدالة على أنه قد أسلم بعد اشتداد المواجهة بين الرسول وبين المشركين، وقيام أبي طالب دونه، وبعد أكثر من خمسين رجلاً، فلربما يكون المراد بالخمسين هو خصوص من أسلم بعد الإعلان بالدعوة. أو بعد الهجرة الى الحبشة.

وهكذا يتضح أن القول بأن أبا بكر هو أول من أسلم لايمكن إلا أن يكون من القول الجزاف، والدعوى الفارغة، ومن المختلقات التي افتعلت في وقت متأخر.

---

(١) الاستغاثة ج٢ ص ٣١.

طريق جمع فاشل:

وقال البعض: الأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن العبيد بلال[١].

وهو كلام فارغ، بعد أن ثبتت أولية علي «عليه السلام» على كل احد.

وقولهم: إنه أول من أسلم من الصبيان عجيب، وذلك لما يلي:

١ ـ إنه قد جاء عنه «عليه السلام»، وعن غيره القول: بأنه أول رجل أسلم[٢]، مما يعني أنه كان حينئذ رجلاً بالغاً. وقد قلنا: إنه قد أسلم وعمره عشر سنوات أو إثنتا عشرة سنة ومن الواضح: أن الرجولية والبلوغ لاينحصر بالسن، فإن عمرو بن العاص ـ كما يقولون ـ كان يكبر ولده عبد الله بإثنتي عشرة سنة فقط[٣]. والراشد بالله قد وطأ جارية وهو إبن تسع سنين، فحملت منه كما يدّعون[٤].

كما أن ثمة أقوالاً كثيرة في سن علي «عليه السلام» حين إسلامه، وقد راينا الحافظ عبد الرزاق، وابن ابي شيبة، والكليني، والحسن البصري، والاسكافي وغيرهم كثير، يذكرون في سن علي رقما يتراوح ما بين ١٢ سنة الى ١٦ سنة، وبعضهم يتجاوز ذلك ايضا، كما تقدم بيانه في

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٧٥، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٩٠ ونزهة المجالس ج٢ ص ١٤٧ والبداية والنهاية ج٣ ص ١٧ و٢٦ و٢٩.

(٢) وفي سيرة إبن إسحاق ص ١٣٨: أول الرجال إسلاماً. وفي مصادر أخرى: أول أصحابي إسلاماً: راجع السيرة الحلبية ج١ ص ٢٦٨.

(٣) المعارف لابن قتيبة ص ١٢٥ ط دار إحياء التراث العربي سنة ١٣٩٠ هـ.

(٤) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٦٩.

مبحث ولادته عليه السلام .

٢ـ قد ذكر غير واحد: ان البلوغ قد حدد بعد الهجرة، اي في غزوة الخندق، في قضية ردّ ابن عمر وقبوله في الغزو. اما قبل ذلك فقد كان المعتمد هو التمييز والإدراك[1]، وعليه يدور مدار التكليف، والدعوة الى الاسلام والايمان وعدمه .

ولولا ان امير المؤمنين عليه السلام كان في مستوى الاسلام والايمان، لم يقدم النبي الاعظم «صلى الله عليه واله وسلم» على دعوته الى الاسلام ، ثم قبوله منه. والا لكان ذلك سفهاً، ولا يمكن صدور السفه من الرسول الاكرم«صلى الله عليه واله وسلم».

٣ـ بل اننا نستطيع ان نستفيد من دعوته الى الاسلام وهو صبي امتيازا له خاصاً، يؤهله لأن يكون هو الوصي له «صلى الله عليه واله وسلم»، اوليس قد تكلم عيسى في المهد صبيا. ويحيى ايضا قد أوتي الحكم صبياكما نص عليه القران؟

٤ ـ وأيضاً، لو كان الأمر كما ذكروه؛ فلا يبقى معنى لقول النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عنه: إنه أول من أسلم، أو: أولكم إسلاماً؛ فإن معنى ذلك هو أن أوليته بالنسبة إلى النساء والرجال والعبيد والأحرار على حد سواء.

٥ ـ وأخيراً، فإن هذا الورع المصطنع لم يوجد إلا عند هؤلاء المتأخرين، ولم نجد أحداً واجه احتجاج أمير المؤمنين والصحابة والتابعين بحجة من هذا القبيل، ولعله لم يكن لديهم ورع يبلغ ورع هؤلاء الغيارى على أبي بكر وعلى فضائله!!.

---

(١) راجع إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار ص١٤٩ والسيرة الحلبية ج١ ص٢٦٩ . والكنز المدفون ص ٢٥٦/٢٥٧ عن البيهقي.

هدف الورعين من الجمع بين الروايات.

ونستطيع أن نرجح : أن هدف أولئك الورعين من هذا الجمع بين الروايات هو إظهار: أن إسلام غير علي (ع) كان أفضل من إسلامه، لأن إسلام ذلك الغير كان عن تدبر وتعقل، ونظر وتبصر. أما أمير المؤمنين «عليه السلام»، فقد كان إسلامه عن طيش وتقليد، كما هو شأن الصبيان كما ذكره الجاحظ[١].

ولا نريد أن نُفيض في الرد على هذه المزعمة، فإن إسلام علي «عليه السلام» كان عن تدبّر وتعقّل، وعن تفكير وتأمل وقد أسلم استناداً الى فكره ورأيه، ولم يستشر حتى أباه رضوان الله تعالى عليه[٢].

وقد أجاب الإسكافي وإبن طاووس عن كلام الجاحظ بما فيه الكفاية، فليراجع[٣].

تنبيه:

وبالمناسبة فإن من الملاحظ: أن عمر بن الخطاب كان يعتبر البلوغ بالشبر؛ فمن بلغ ستة أشبار أجرى عليه الأحكام، ومن نقص عنها ولو أنملة تركه. وكذلك كان رأي إبن الزبير أيضاً[٤].

وعلى ذلك جرى العباسيون من بعد، فقد أمر ابراهيم الإمام

---

(١) راجع: العثمانية ص ٦ و٧.

(٢) الفصول المختارة ص ٢٢٧.

(٣) راجع شرح النهج للمعتزلي ج١٣ حينما يورد كلام الإسكافي وراجع أيضاً: بناء المقالة الفاطمية، الصفحات الأولى من الكتاب، والبحار ج٣٨ ص ٢٨٦.

(٤) المصنف ج١٠ ص ١٧٨ وعن خصوص عمر راجع: الغدير ج٦ ص ١٧١ عن كنز العمال ج٣ ص ١١٦ عن ابن أبي شيبة وعبد الرزاق، ومسدد، وابن المنذر في الأوسط.

العباسي أبا مسلم الخرساني: أن يقتل في خراسان كل من يتهمه، إذا كان قد بلغ خمسة أشبار[1].

ونحن لانريد التعليق على هذا، ونكل ذلك إلى القارىء نفسه؛ ليحكم حسبما يقتضيه ضميره ووجدانه.

مقارنة، وهدف:

وجدير بالملاحظة هنا: أن البعض يذكر: أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» قال لعلي: «أدعوك إلى ترك(أو الكفر بـ) اللات والعزى[2]».

ونحن نجزم بعدم صحة هذا القول عنه «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ إذ لم يسبق لعلي «عليه السلام» إيمان بها، ليدعوه «صلى الله عليه وآله وسلم» إلى تركها[3]. كيف وقد تربى في حجر الرسول الأعظم «صلى الله عليه وآله وسلم»، وتلقى التوحيد، وكل المكارم والفضائل عنه «صلى الله عليه وآله وسلم».

ولنقارن بين هذا وبين مايذكره البعض عن أبي بكر من أنه لم يسجد لصنم قط[4]، رغم أنه كان حين أسلم قد بلغ الأربعين أو تجاوزها؟!

فأبو بكر إذن قد ضارع النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في عدم

---

(١) راجع حياة الإمام الرضا للمؤلف ص ١٢٢ عن: الطبري ط ليدن ج٩ ص ١٩٧٤ وج١٠ ص ٢٥، والكامل لابن الأثير ج٤ ص ٢٩٥، والبداية والنهاية ج١٠ ص ٢٨ و٦٤ والإمامة والسياسة ج٢ ص ١١٤، والنزاع والتخاصم للمقريزي ص ٤٥، والعقد الفريد ط دار الكتاب ج٤ ص ٤٧٩، وشرح النهج للمعتزلي ج٣ ص ٢٦٧ وضحى الإسلام ج١ ص ٣٢.

(٢) السيرة الحلبية ج١ ص ٢٦٨، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٩١.

(٣) الامتاع للمقريزي ص ١٦.

(٤) السيرة النبوية لدحلان ط دار المعرفة ج١ ص ٣٩ و٩٢.

السجود للأصنام.

ولكننا لاندري لماذا ترك دين قومه؟، وكيف لم يشتهر هذا الأمر عنه، في زمن الصحابة والتابعين؟ وبقي هكذا مخفياً الى زمان متأخر جداً، حتى اكتشفه هؤلاء؟

وكيف غفل عنه الصحابة ومنافسوه منهم، وغفل عنه هو نفسه وأنصاره يوم السقيفة، فلم يحتج ولا احتجوا به على استحقاقه للخلافة، رغم أنهم احتجوا بكبر سنه، وماشاكل ذلك، مما لايجدي ولا يسمن ولا يغني من جوع؟!.

من أسلم بدعاية أبي بكر:

ويذكرون أن عدداً من كبار الصحابة قد أسلموا على يد أبي بكر، واستجابة لدعوته، منهم: «طلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة الجراح، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبو ذر، وعثمان بن عفان، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم[١]».

قال الجاحظ: «وقالت أسماء بنت أبي بكر: ماعرفت أبي إلا وهو يدين بالدين. ولقد رجع الينا يوم أسلم فدعانا إلى الإسلام، فما دمنا حتى أسلمنا، وأسلم أكثر جلسائه[٢]».

ولكن ذلك كله محل شك وريب وذلك للأمور التالية:

---

(١) راجع: البداية والنهاية ج٣ ص ٢٩، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٩٤ - والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٧٦ وتهذيب الأسماء واللغات ج٢ ص ١٨٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص ٧٨.

(٢) شرح النهج للمعتزلي ج١٣ ص ٢٧٠ وعثمانية الجاحظ ص ٣١.

١ ـ إنه قد تقدم مايدل على أن إسلام أبي بكر قد كان بعد الخروج من دار الأرقم، وبعد اشتداد الأمر بين النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» وقريش، وقيام أبي طالب دونه ينافح عنه ويكافح. وهؤلاء قد أسلم أكثرهم قبل ذلك، وذلك لأنه «صلى الله عليه وآله وسلم» قبل نزول قوله تعالى: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ لم يكن مأموراً بدعوة أحد. بل كان من يسلم إنما يسلم باختياره. ثم أمر «صلى الله عليه وآله وسلم» بدعوة عشيرته، ثم أمر بإنذار أم القرى ومن حولها، حتى انتهى الأمر بإنذار كافة الناس. ولكنه «صلى الله عليه وآله وسلم» لما أسلم معه من أسلم وخشي حصول بعض الصدامات لهم مع قريش اختار دار الأرقم ليصلي أصحابه فيها، وبعد شهر اعلن بالأمر، فلم تكن هناك سرّية في دار الأرقم بالمعنى الدقيق للكلمة.

وأما الذين أسلموا قبل المواجهة مع قريش، فنذكر منهم:

زيد بن حارثة الذي أسلم ثانيا، وفي نفس الوقت أسلم خالد بن سعيد بن العاص، وسعد بن أبي وقاص، وعمرو بن عبسة، وعتبة بن غزوان، ومصعب بن عمير[١] أما الأرقم ابن أبي الأرقم فكان سابعاً[٢]، وقصة إسلام أبي ذر معروفة، وكان إسلامه على يد النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» نفسه، وعلي هو الواسطة، وسيأتي ذلك بعد صفحات يسيرة.

ومن الأولين أيضاً: جعفر بن أبي طالب، وبلال، وخباب بن الأرتّ، والزبير بن العوام، وكل هؤلاء اسلم قبل أبي بكر ـ على حد تعبير الاسكافي في نقض العثمانية[٣]، ويرى المقدسي: أن الزبير أسلم رابعاً،

---

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٣٢ وسيرة ابن هشام ج١ ص ٢٦٤ «عن ذلك».

(٢) الإصابة، ترجمة الأرقم ج١ ص ٢٨.

(٣) شرح النهج ج١٣ ص ٢٢٤، والعثمانية في أواخرها حيث ينقل كلام الإسكافي ص ٢٨٦ والغدير ج٣ ص ٢٤١.

أو خامساً .

٢ ـ وعدا عما تقدم، فان ابا اليقظان خالد بن سعيد بن العاص، كان هو نفسه يزعم: أنه أسلم قبل أبي بكر[١]

وعليه فلا يصغى لما حكاه البيهقي من أنه رأى في منامه النار، ثم لقي أبا بكر فأخذه الى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، فاسلم[٢] فان أبا اليقظان نفسه يكذب ذلك وينكره. وهو أعرف بنفسه من كل أحد.

وأما عثمان فقد اشترط لإسلامه أن يزوجه الرسول «صلى الله عليه وآله وسلم» رقية، ففعل، فأسلم[٣] فأين هي دعوة أبي بكر له، والحالة هذه؟!.

ويروي المدائني عن عمر بن عثمان: أن عثمان قال: إنه دخل على خالته أروى بنت عبد المطلب يعودها، فدخل رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، فجعل ينظر إليه، وقد ظهر من شأنه يومئذٍ شيء؛ فجرى له معه «صلى الله عليه وآله وسلم»، حديث، وقرأ عليه «صلى الله عليه وآله وسلم» بعض الآيات، ثم قام «صلى الله عليه وآله وسلم» فخرج. قال عثمان: فخرجت خلفه فأدركته، وأسلمت[٤]. فإذا أخذنا بهذه الرواية ايضا لم يكن لأبي بكر في اسلام عثمان يد ولا نصيب.

وأما سعد بن أبي وقاص فـ «كان سبب اسلامه: أنه رأى في المنام قال: كأني في ظلام، فأضاء قمر، فاتبعته، فإذا أنا بزيد وعلي قد سبقاني

---

(١) البدء والتاريخ ج٥ ص ٩٦.

(٢) مستدرك الحاكم ج٣ ص ٢٤٨، والبداية والنهاية ج٣ ص ٣٢ وطبقات ابن سعد ج٤ ص ٦٧/٦٨ والاستيعاب ج١ ص ٤٠١/٤٤٢ والإصابة ج١ ص ٤٠٦ ومع ذلك فإن الرواية لا تدل على أنه أسلم بدعوة أبي بكر بل هي في ضد ذلك أظهر.

(٣) مناقب آل أبي طالب ج١ ص ٢٢.

(٤) الاستيعاب ج٤ ص ٢٢٥.

إليه، وروي: فاذا أنا بزيد وأبي بكر، قال: ثم بلغني: أن رسول الله يدعو الى الاسلام مستخفياً، فلقيته بأجياد، فأسلمت، ورجعت الى أمي إلخ[1]».

وعن اسلام طلحة يقولون: انه كان في بصرى، فسمع خبر خروج نبي اسمه أحمد في ذلك الشهر من راهب، فلما قدم مكة سمع الناس يقولون: تنبىّ محمد بن عبدالله، فأتى إلى أبي بكر، فسأله فأخبره، ثم أدخله على رسول الله فاسلم، فأخذهما نوفل بن خويلد وقرنهما بحبل، فسميا القرينين[2].

ولكن هذه الرواية كما ترى، لا تدل على أنه اسلم بدعوة ابي بكر إياه، بل هي في خلاف ذلك أظهر كما هو واضح، كما أنهم يذكرون رواية أخرى مفادها: أن طلحة ذهب بنفسه إلى رسول الله فأسلم[3]. وأما أن أبا بكر وطلحة قد سميا القرينين فسيأتي أنه لا يصح أيضاً، وذلك ضعف اخر في هذه الرواية.

بل لقد كذّب علي «عليه السلام» أن يكون أحد من قريش قد عُذّب كما سنرى فكيف يكون طلحة وابو بكر قد عذّبا، وقرن احدهما الى الأخر؟!

٣ ـ يقول الاسكافي هنا ما ملخصه: إن أبا بكر قد عجز عن إدخال أبيه، مع أنه معه في بيت واحد، وابنه الوحيد عبد الرحمن في الاسلام، وبقيا على شركهما إلى عام الفتح، وكذا الحال في أخته أم فروة، وزوجته نملة ـ أو قتيلة ـ بنت عبد العزى، التي فارقها حين نزل قوله تعالى: ولا

---

(١) البدء والتاريخ ج٥ ص ٨٤/٨٥.

(٢) مستدرك الحاكم ج٣ ص ٣٦٩، والبدء والتاريخ ج٥ ص ٨٢ والبداية والنهاية ج٣ ص ٢٩ ودلائل النبوة للبيهقي ج١ ص ٤١٩.

(٣) البدء والتاريخ ج٥ ص ٨٢.

تمسكوا بعصم الكوافر، بعد الهجرة بعدة سنين.

ويمضي الاسكافي هنا فيقول: كيف استطاع أبو بكر أن يهيمن على سعد، والزبير، وطلحة، وعبد الرحمن وغيرهم وهم ليسوا من أترابه، ولا من جلسائه، ولا كان له معهم صداقة أو مودة، ولم يستطع أن يقنع عتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما من جلسائه، بل واكبر منه سنا، ويأنسان إلى حديثه وطرائفه ـ كما يزعم أنصاره ـ؟! وماله لم يدخل جبير بن مطعم في الاسلام، وهو الذي أدبه وعلمه، وعرفه أنساب العرب، وقريش وطرائفها وأخبارها كما يدعون؟!.

وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب الدخول في الاسلام في تلك الفترة، وكان صديقه وأقرب الناس شبها به، وبحالاته. ولئن رجعتم إلى الانصاف لتعلمن بأن اسلام هؤلاء لم يكن إلا بدعاء النبي«صلى الله عليه وآله وسلم» وعلى يديه[١].

٤ ـ وأما ما تقدم نقله عن اسماء، فهو يقتضي أن تكون اسماء وأهل بيت أبي بكر أسبق الناس إلى الاسلام، وقد عد ابن هشام ممن اسلم في الفترة الأولى من الدعوة بحيث يعد من السابقين الأول اسماء وعائشة ابنتي أبي بكر[٢]، وعند النووي وغيره: أن عائشة قد اسلمت بعد ثمانية عشر إنسانا وأختها أسماء أسلمت بعد سبعة عشر[٣].

---

(١) شرح النهج للمعتزلي ج١٣ ص ٢٧١ عن الإسكافي. ولا يردّ على الإسكافي بامرأة نوح وولده؛ حيث لم يكونا مؤمنين، فإن الإسكافي يريد أن يقول: إن المستفاد من القرائن العامة هو أن أبا بكر لم يكن يملك المؤهلات والكفاءات التي تعطيه القدرة على أن يقنع أحداً بالدخول في الإسلام.

(٢) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧١.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ج٢ ص ٣٢٩ و٣٥١ عن ابن أبي خيثمة في تاريخه عن ابن إسحاق، والإصابة ج٤ ص ٢٢٩ بالنسبة لأسماء فقط.

ولكن قد فات هؤلاء: أن كل ما تقدم يكذب هذا الذي ذكروه هنا. أضف الى ذلك: أن عمر اسماء كان حين البعثة أربع سنين على أبعد التقادير. أما عمر عائشة فنحن نقول: إنها أيضاً كان عمرها قريباً من هذا[١]. ولكن نفس اولئك يقولون: إنها قد ولدت بعد البعثة بخمس سنين[٢]، فكيف تكونان قد اسلمتا بعد ثمانية عشر انساناً؟ مع أن الفترة السرية أو فقل الدعوة الاختيارية، وعدم الاعلان، قد انتهت باسلام اربعين؟! وأما جلساؤه وأهل بيته فقد تكلمنا عنهم، ولم يبق الا ولده محمد، وهو إنما ولد بعد مبعث النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بثلاث وعشرين سنة، أي قبل وفاته «صلى الله عليه واله وسلم» بقليل.

سر التأكيد على دور أبي بكر:

وأما سر التأكيد على دور أبي بكر فقد أوضحه لنا الجاحظ، حين قال: «ولذلك قالوا: إن من اسلم بدعاء أبي بكر اكثر ممن اسلموا بالسيف. ولم يذهبوا في ذلك إلى العدد، بل عنوا الكثرة في القدر، لأنه اسلم على يديه خمسة من أهل الشورى، كلهم يصلح للخلافة، وهم اكفاء علي «عليه السلام» ومنازعوه في الرياسة والامامة، فهؤلاء اكثر من جميع الناس[٣]».

نعم يا جاحظ: لقد تجاوز أبو بكر كل التوقعات، حتى لقد بز النبي نفسه، ولم يستطع وهو الرسول الاعظم أن يجاريه في تلك الفضائل

---

(١) وعد المقدسي عائشة مع الذين أسلموا في السنوات الأولى من البعثة في الفترة السرية قبل أن يدخل (ص) دار الأرقم وقال: انها كانت صغيرة فراجع البدء والتاريخ ج٤ ص ١٤٦.

(٢) سيأتي بعض الكلام في ذلك، في فصل: حتى بيعة العقبة.

(٣) العثمانية للجاحظ ص ٣٢/٣١ وشرح النهج ج١٣ ص ٢٧١/٢٧٠.

المجعولة ـ كما قدمنا ـ ولا ندري لماذا غلط جبرئيل ونزل عليه دونه!.

وحسبنا هنا ما ذكرناه حول هذا الموضوع؛ فان استقصاء الكلام فيه يحتاج إلى جهد مضن ووقت طويل.

هل عمير بن أبي وقاص من السابقين؟!

ويذكر ابن هشام هنا: أن عمير بن أبي وقاص كان من جملة السابقين إلى الاسلام[1].

ولكن ذلك لا يصح؛ لأنهم يقولون: إن عميراً قد قتل في بدر، وله ستة عشر عاماً. فيكون عمره حين البعثة سنة واحدة[2]؛ فكيف يكون من السابقين إذن؟!.

اسلام أبي قحافة:

وفي رواية: أنه لما نُبّيء رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم»، وهو ابن أربعين سنة، صدّقه أبو بكر وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة، فلما بلغ أبو بكر أربعين سنة، قال: «رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي[3]». واستجاب الله له فاسلم والداه وأولاده كلهم.

ولكن هذه الرواية لا تصح، وذلك.

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٧٢.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ج٢ ص ٣٩ والإصابة ج٣ ص ٣٦.

(٣) فتح القدير ج٥ ص ١١٨ والغدير ج٧ ص ٣٢٧ عنه وعن الكشاف ج٣ ص ٩٩، وتفسير القرطبي ج٢ ص ١٩٣/١٩٤ والرياض النضرة ج١ ص ٤٧، ومرقاة الأصول ص ١٢١، وتفسير الخازن ج٤ ص ١٣٢، وتفسير النسفي بهامشه ج٤ ص ١٣٢.

أولاً: لما تقدم من أن أبا بكر إنما اسلم بعد عدة سنوات من البعثة. وكان عمره حينئذٍ حوالي خمس وأربعين سنة.

وثانياً: إن أبا قحافة إنما اسلم سنة ثمان عام الفتح[١] وأم أبي بكر أسلمت ـ كما قالوا ـ سنة ست من البعثة[٢]، وأولاد أبي بكر حالهم معلوم، حتى إن احدهم قد طلب مبارزة أبيه ـ أبي بكر ـ يوم أحد أو بدر، كما سيأتي، فكيف يقول: انه قد أنعم الله عليه وعلى والديه بعد النبوّة بسنتين، ويطلب من الله أن يوفقه لشكر هذه النعمة؟!.

وثالثاً: إن الآية المذكورة هي التي في سورة الاحقاف رقم ١٥، لأنها هي التي ذكرت الأربعين سنة، دون الآية التي في سورة النمل رقم ١٩.

وعلىٰ هذا نقول: الأحقاف قد نزلت في المدينة، لا في مكة. واسلام ابي بكر كان في مكة قبل عدة سنوات.

الدعوة في مراحلها، التي اجتازتها:

ويرى البعض: أن الدعوة قد مرت بمراحل أربع:

الأولى: المرحلة السرية، واستمرت ثلاث أو خمس سنوات.

الثانية: الإعلان بالدعوة إلى الله بالقول فقط، دون اللجوء إلى العنف، واستمرت حتى الهجرة.

الثالثة: مرحلة الدفاع عن الدعوة بالسيف. واستمرت إلى صلح الحديبية.

---

(١) أسد الغابة ج٥ ص ٢٧٥ والاستيعاب (مطبوع بهامش الإصابة) ج٤ ص ١٦٢ وقاموس الرجال ج١٠ ص ١٦٦ عن المعارف لابن قتيبة.

(٢) راجع الغدير ج٧ ص ٣٢٤.

الرابعة: قتال كل من وقف في سبيل الإسلام، من الوثنيين والمشركين، وغيرهم، وهو ما استقر عليه أمر الدعوة وحكم الجهاد[1].

المرحلة السرية:

ولكننا لا نوافق على إستعمال مصطلح «الفترة السرية» هنا إذ أن الظاهر هو أن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» لم يكن حينما بعث مأموراً بدعوة عموم الناس كما قدمنا، ولكنه كان يعرض هذا الدين بصورة طوعية وعفوية، وبدون أن يوجه الأنظار الى ذلك. فكان هناك أفراد يسلمون تباعاً.

وقد كان هذا الأسلوب في تلك الفترة ضرورياً من أجل الحفاظ على مستقبل الدعوة، حتى لاتتعرض لعمل مسلح يقضي عليها في مهدها، حيث لابد من إيجاد ثلة من المؤمنين، ومن مختلف القبائل يحملون هذه العقيدة ويدافعون عنها، حتى لايبقى مجال لتصفيتهم السريعة والحاسمة من قبل أعدائهم الأشرار.

كما أنه «صلى الله عليه وآله وسلم» أراد أن لاتهدر الطاقات، وتذهب الجهود سدى، وينتهي الأمر الى تمزق، وتوزع في الثلة المؤمنة، ثم الى ضياع مدمّر.

وأيضاً، فقد كانت هذه الفترة بمثابة إعداد نفسي، وتربية عقيدية وروحية لتلك الصفوة المؤمنة بربها، وبرسالة نبيه الأكرم «صلى الله عليه وآله وسلم»، تمكنهم من الصمود في وجه التحديات التي تنتظرهم.

وإذا كان «صلى الله عليه وآله وسلم» يريد: أن يقود عملية تغيير شاملة، فلا بد له من إتاحة الفرصة لتهيئة وإعداد القوى، التي تستطيع أن تحقق هدفاً كبيراً كهذا، وتتمكن من الحفاظ والإحتفاظ بالوجود الفعال

---

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٩١.

والمؤثر في بقاء ذلك الهدف.

دخول النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» دار الأرقم:

قال المؤرخون: ولما صار عدد المسلمين ثلاثين رجلاً ـ كما قيل ـ وصار بعض المسلمين يخرجون الى الشعاب والجبال خارج مكة لأداء الفرائض، وإقامة الشعائر، وصار بعض المشركين يترصدونهم، ويتعمدون إيذائهم، وحصلت صدامات فردية لهم معهم، ومنها أنه كما يقولون: خرج جماعة من المسلمين الى شعاب مكة للصلاة، فظهر عليهم نفر من قريش كانوا يرصدونهم، ويتبعون آثارهم، وهم يصلون؛ فناكروهم، وعابوا عليهم مايصنعون، حتى قاتلوهم، فضرب سعد ابن أبي وقاص ـ والعهدة على الراوي ـ يومئذٍ رجلاً من المشركين بلحى بعير، فشجه، فكان أول دم اهريق في الإسلام[1].

ولكن قد قال الزبير (أي إبن بكار): وطليب أول من دمّى مشركاً في الإسلام؛ بسبب النبي «صلى الله عليه واله وسلم» فإنه سمع عوف بن صبرة السهمي يشتم النبي«صلى الله عليه واله وسلم»، فأخذ له لحى جمل، فضربه فشجه الخ[2].

ومرة أخرى تعقب مشركان مسلمين، خرجا للصلاة في أحد الشعاب، فباطشاهما[3].

فهذه الحوادث الجز ئية ـ على مايظهر ـ قد دفعت بالنبي «صلى الله

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص ٦٢ وسيرة ابن هشام ج١ ص ٢٨٢، والبداية والنهاية ج٣ ص ٣٧، والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٨٣، والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٩٩.

(٢) الإصابة ج٢ ص ٢٣٣.

(٣) أنساب الأشراف للبلاذري ج١ ص ١١٧.

عليه وآله وسلم» الى اختيار دار الأرقم[1]، الواقعة على الصفا ليجعلها مركزاً لدعوته، ومحلاً لاجتماع أصحابه به، ثم الإبتعاد عن أنظار المشركين في عبادتهم وشعائرهم، بدلاً من الخروج الى الشعاب من أجل الصلاة.

فكانت هذه الدار هي مركز حركته ونشاطاته وبقي فيها شهراً[2] ولم يخرج منها حتى تكامل المسلمون أربعين رجلاً كما قيل[3]. وقيل: أكثر. وقيل: أقل. وحينئذٍ خرج «صلى الله عليه وآله وسلم» ليعلن دعوته، وليبدأ مرحلة جديدة هي أصعب مرحلة، وأخطرها، وأكثر عنفاً، وأشد بلاءً.

هذا، ولكن بعض المحققين[4]، يحتمل أن يكون «صلى الله عليه وآله وسلم» قد دخل دار الأرقم مرة أو مرات، ولكن يد السياسة قد طوّرت هذا الأمر؛ لتكون دار الأرقم في مقابل شعب أبي طالب، بل يدعون: أنها دعيت دار الإسلام[5].

لكننا في المقابل لانرى أن دار الأرقم كانت لها هذه الأهمية، ولا هذا الدور، ولذلك تجد ابن اسحاق وهو من نعرف ـ لا يشير إلى دار الأرقم لا من قريب ولا من بعيد ـ كما أن البلاذري يذكرها بصورة عابرة، دون أية أهمية.

---

(١) أسلم سابع سبعة، أو بعد عشرة كما في الإصابة ج١ ص ٢٨ والاستيعاب هامش الإصابة ج١ ص ١٠٧.

(٢) وقيل: أربع سنين. راجع السيرة الحلبية ج١ ص ٢٨٣ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٩٩.

(٣) الإصابة ج١ ص ٢٨ والسيرة الحلبية ج١ ص ٢٨٥ والسيرة النبوية لدحلان ج١ ص ٩٩ والاستيعاب هامش الإصابة ج١ ص ١٠٨.

(٤) هو العلامة السيد مهدي الروحاني حفظه الله.

(٥) التراتيب الإدارية ج١ ص ٤٠٨.

والذي يهتم بدار الأرقم ويبرزها على انها مفصل تاريخي هو الواقدي بالدرجة الأولى. فلعل المسلمين ترددوا على هـذه الدار مـرات، فعظمت السياسة ذلك وطورته، حتى دعيت هذه الدار دار الإسلام، للتعتيم على شعب أبي طالب حسبما تقدم، وذلك عن منطق السياسة الذي عرفناه وألفناه غير بعيد.

قريش لاتهتم لمرحلة ما قبل الإعلان:

كان المشركون قد عرفوا بتنبؤ النبي «صلى الله عليـه وآله وسلم» من أول الأمـر، ولكنهم لم يهتموا كثيـراً بالأمـر ـ باديء ذي بـدء ـ ربمـا لأنهم اعتبروا أن القضية ليست بذات أهمية كبيرة؛ إلّا من وجهة قبلية بالـد رجة الاولى، ولكنهم ظلوا يتنسمون الاخبار، ويستطلعونها وكانـوا يقولـون: ان فتى عبد المطلب ليكلّم من السماء.

اسلام ابي ذر رحمه الله:

وفي هذه الفترة كان اسلام ابي ذر «رحمه الله» الذي كـان رابع، او خـامس من اسلم[1]، حيث انه سمـع بمبعث النبي «صلى الله عليـه وآلـه وسلم» فارسل اخاه ليستقصي له الخبر، فرجع اليه، ولـم يشف له غليلاً.

فذهب هو بنفسه الى مكة؛ فكره ان يسأل عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» علانية ورآه علي «عليه السلام» مضطجعـاً في ناحيـة المسجد

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج١ ص ٤٥٨، طبقات ابن سعد ج٤ قسم١ ص ١٦٤، وحلية الأولياء ج١ ص ١٥٧. ومستدرك الحاكم ج٣ ص ٣٤٢، والاستيعاب هامش الإصابة ج١ ص ٣١٣، والإصابة ج٤ ص ٦٣، وأسد الغابة ج٥ ص ١٨٦، والغدير ج٨ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ عن بعض من تقدم وعن شرح الجامع الصغير للمناوي ج٥ ص ٤٢٣.

الحرام، فعرف انه غريب، فاستضافه ثلاثة ايام لا يسأله عن شيء، ثم سأله ابو ذر عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»، فاخذه اليه بصورة سرية؛ حيث امره ان يتبعه، فان رأى ما يخاف منه عطف كأنه يريد أن يقضي حاجة، او يصلح نعله.

وبعد ان أسلم أبو ذر خرج الى المسجد الحرام؛ فنادى باعلى صوته: أشهد ان لا إله إلا الله، وان محمداً رسول الله، فقام اليه المشركون فضربوه حتى اضجعوه، فاتى العباس؛ فاكبّ عليه، وقال: ويحكم، الستم تعلمون: أنه من غفار، وان طريق تجارتكم الى الشام؛ فتركوه، ولكنه عاد في اليوم الثاني الى مثل ذلك، فخلصه العباس[1]. وثمة نصوص اخرى لا مجال لذكرها هنا.

ولما ضُرِب أبو ذر جاء الى النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» فقال: يا رسول الله، اما قريش فلا ادعهم حتى أثار منهم، ضربوني.

فخرج حتى اقام بعسفان، وكلما اقبلت عير لقريش، يحملون الطعام، ينفّر بهم على ثنية غزال؛ فتلقي احمالها؛ فجمعوا الحنط، ويقول ابو ذر لقومه: لا يمسّ احد حبة حتى تقولوا: لا إله إلا الله. فيقولون: لا إله إلا الله، ويأخذون الغرائر[2].

وحسب نص آخر: كان ابو ذر رجلاً شجاعاً يتفرد وحده بقطع الطريق، ويغير على الصرم في عماية الصبح على ظهر فرسه، أو على

---

(١) هذا ملخص ما في البخاري ج٢ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ط سنة ١٣٠٩. والبداية والنهاية ج٣ ص ٣٤، وحلية الأولياء ج١ ص ١٥٩، ومستدرك الحاكم ج٣ ص ٣٣٩، والغدير ج٨ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ عن بعض من تقدم وصحيح مسلم ج٧ ص ١٥٦ والاستيعاب هامش الإصابة ج٤ ص ٦٣ دلائل النبوة لأبي نعيم ج٢ ص ٨٦، وطبقات ابن سعد ج٤ قسم١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ و١٦٤ ـ ١٦٥ والإصابة ج٤ ص ٦٣.

(٢) طبقات ابن سعد ج٤ قسم ١ ص ١٦٤.

قدميه كانه السبع . . . إلى أن قال: «فكان يعترض لعيرات قريش، فيقطعها، فيقول: لا أرد اليكم منها شيئاً، حتى تشهدوا: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله: فكان على ذلك حتى هاجر رسول الله، ومضى بدر، وأحد، ثم قدم فأقام بالمدينة[1]».

واسلم على يده نصف قبيلته غفار، ووعده الباقون بأن يسلموا إذا قدم النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» المدينة[2].

وكان أبو ذر يتأله في الجاهلية، ويقول: لا إله إلا الله، ولا يعبد الاصنام، ويقال: إنه صلى قبل مبعث النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» عدة سنوات[3].

ما يستفاد من حديث اسلام أبي ذر:

أولاً: إن عدم عبادة أبي ذر للاصنام، ليس إلا من أجل منافرتها لحكم العقل، وللفطرة السليمة، حين لا تطغى على الانسان أي من العوامل الخارجية التي تجعل على قلبه وبصره غشاوة.

ويلاحظ: أن القرآن ما زاد في مقاومته لعبادة الاصنام، والتوجيه إلى الله تعالى على أن نبه العقل، وأثاره، وارشد إلى ما تقتضيه الفطرة السليمة في هذا المجال. وكل من يستعرض الآيات القرآنية يرى كيف أن القرآن يهتم في الارجاع إلى الفطرة، وحكم العقل، ويعتبر أن، لهما وحدهما الحق في الحكم في هذا المجال.

وثانياً: إن اسلوب علي «عليه السلام» في المحافظة على عنصر

---

(١) و(٢) طبقات ابن سعد ج٤ قسم١ ص ١٦٣، وراجع تاريخ الإسلام للذهبي ج٢ ص ١٠٠.

(٣) طبقات ابن سعد ج٤ ق١ص ١٦٣. ولا بأس بمراجعة ما كتبناه حول أبي ذر في مقال لنا في كتاب: دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام. وحلية الأولياء ج١ ص ١٥٧.

السرية، حتى لا يلتفت المشركون إلى طبيعة تحركاته وأهدافه، واسلوبه في ايصاله أبا ذر إلى الرسول الاعظم «صلى الله عليه وآله وسلم» - وهو لم يبلغ الحلم بعد - إن دل على شيء؛ فانما يدل على دراية وروية، وتبصر وتدبر بالأمور، مما يؤكد امتيازه عليه السلام على غيره، ممن عاش ومارس الامور.

كما أن اتكال ابي ذر رجل الحكمة والتبصر على دعوة علي «صلى الله عليه وآله وسلم» له، واستجابته لدعوته ونزوله ضيفاً عليه، يدل على أنه كان يرى في علي من الحكمة والروية ما لا يراه في غيره. مهما كان فارق السن بينه وبين ذلك الغير كبيراً.

ولقد كان «عليه السلام» يهدف الىٰ الحفاظ علىٰ أبي ذر من جهة، وعلىٰ ان لا يُلفت نظر المشركين الىٰ أنه يقوم بنشاط من أجل إدخال الناس في هذا الدين الجديد من جهة اخرىٰ. وهذا الثاني هو الاهم بالنسبة اليه. فانه لا يمكن أن يتخلى عن الدعوة في سبيل الشخص، ولكن الشخص هو الذي يضحي بنفسه وبكل ما لديه في سبيل الحفاظ على الدعوة وبقائها. ولكن هذه التضحية لابد أن تكون في وقت الحاجة إليها، وحين يكون لابد منها ولا غنى عنها. وإلا فلربما يكون ضررها اكثر من نفعها، أو على الأقل يكون هدراً لطاقات، واتلافاً لقدرات ربما تكون الدعوة في يوم مّا بامسّ الحاجة إليها.

ثالثاً: ما فعلته قريش بأبي ذر لم يكن بسبب أن المواجهة كانت قد وقعت بينها وبين النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»؛ فان هذه المواجهة لم تكن حصلت حينئذٍ، وإنما رأت في تصرف أبي ذر هذا تحدياً لها، واعتداء على شرفها، وكبريائها، ولا يقصد منه إلا تحقيرها وإذلالها، من دون مبرر ظاهر تراه وتتعقله لتصرف كهذا سواه. ولعلها أرادت من بطشها بهذا الرجل الغريب والوحيد ردع الآخرين، وارهابهم، ومنعهم من الإقبال علىٰ الدخول في الإسلام، أو من التظاهر به.

رابعاً: انتقام أبي ذر من قريش على ذلك النحو قد أثر فيها نفسياً، وروحياً إلى حد بعيد، وعرفها: أنها لا يمكن أن تتعامل مع الآخرين، كما يحلو لها، وعلى حسب ما تشتهي، لأن الآخرين يملكون من الوسائل الفعالة للضغط عليها مالا تجد معه حيلة، ولا تستطيع سبيلاً.

خامساً: إن نجاح أبي ذر في دعوته قومه من قبيلتي غفار وأسلم، حتى إنه يستغل تشوقهم للحصول على غرائر الحنطة لطرح الخيار النهائي عليهم ـ إن نجاحه هذا ـ ليدل على أنه كان بعيد الهمة والنظر عاقلاً لبيباً أريبا، يدرك أهداف الرسالة السماوية الحقة التي اعتنقها خير إدراك، ويدرك واجباته تجاهها، ثم هو ينفذ مهمته، ويقوم بواجباته على النحو الاكمل والامثل.

سادساً: إن محاولات أبي ذر الجادة للتعرف على صدق النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» في دعواه، وارساله أخاه أولاً، ثم ذهابه هو بنفسه، وبقاؤه ثلاثة أيام يبحث عن النبي الاكرم «صلى الله عليه وآله وسلم»، إنما كانت بدافع ذاتي ينبع من داخله، يدفعه إلى البحث عن الحق، والعمل من أجله، وفي سبيله.

وهذا يؤيد القول بأن العقل هو الذي يحكم ويدفع إلى تعلم ما ينفع، وما يضر، للالتزام بذاك، والابتعاد عن هذا. بل هو امر فطري مغروس في فطرة الانسان وطبيعته وسجيته، حتى انك تجد الطفل الذي يحس بألم النار ليس فقط لا يحاول بعد ذلك الاقتراب منها، وانما هو يجهد بكل ماأوتي من قوة وحول في الابتعاد عنها.

سابعاً: ان موقف علي «عليه السلام» من أبي ذر ليعكس لنا: أن هذاالشاب الذي ربما لم يكن قد بلغ الحلم آنذاك؛ لأنه إنما أسلم وعمره عشر أو اثنا عشرة سنة ـ إن هذا الشاب ـ الناشىء كان يعتز بنفسه، ويثق بها، فيدعو أبا ذر ليكون ضيفه ثلاثة أيام، ثم هو يساعده على الوصول إلى

النبي «صلى الله عليه وآله وسلم» بشكل ذكي وحذر. ثم هو يتركه ثلاثة أيام لا يسأله عن أمره حتى لا يشعر هذا الضيف بأن مضيفه ربما يكون قد ضاق به ذرعاً، أو ملّ وجوده؛ وليكون قد أتاح له الفرصة ليستأنس في هذا البلد الذي يراه غريباً عليه، ويألفه، ويرتاح إليه نفسياً، كما ارتاح جسدياً؛ وليكون أنفذ بصيرة، واكثر اطميناناً في بيان حاجته التي جاء من أجلها.

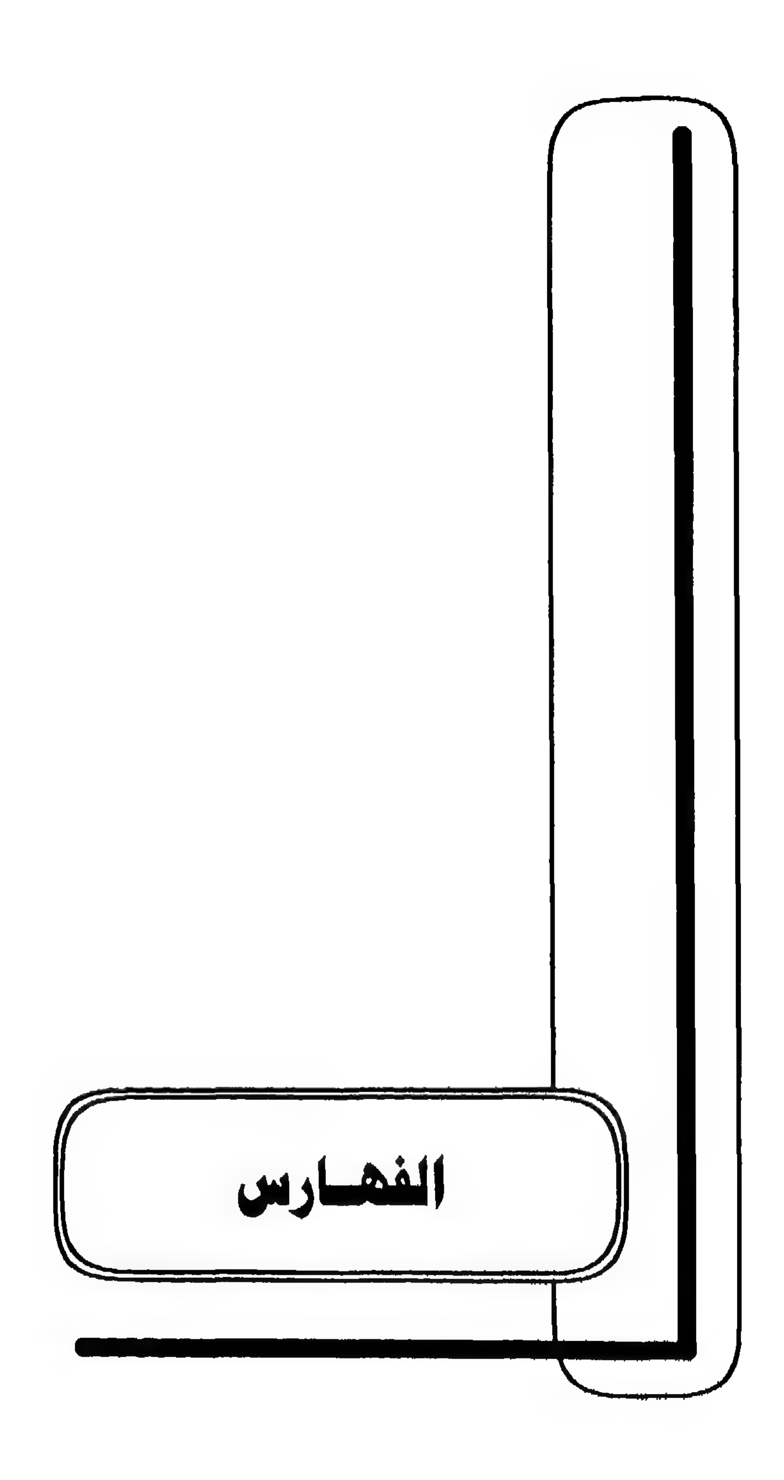
وثامناً: ان جهر أبي ذر باسلامه، وتعريضه نفسه للضرب والاهانة من قبل المشركين، إنما يعكس لنا مدى اعتزاز أبي ذر باسلامه هذا، ومدى استعداده للتضحية في سبيله. ثم هو يعكس مدى حنق قريش ورعونتها في مواجهة الدعوة إلى الله تعالى، حتى إنها تنسى: أن من تبطش به ربما يكون في المستقبل سبباً في عرقلة تجاراتها إلى الشام، ومضايقتها اقتصادياً. نعم، تنسى ذلك، وتهجم عليه لتضربه، ثم ترتد عنه لا بدافع انساني، ولا عن قناعة فكرية، وإنما لدوافع اقتصادية دنيوية، تعكس أنانيتها، ومستوى تفكيرها أولا وأخيراً. ولا شيء أخطر على الانسان من الانانية التي ربما تضع على عينيه غشاوة؛ فلا يبصر الحق الابلج، ولا يهتدي سواء السبيل.

وتاسعاً: لعل أبا ذر قد اراد كسر شوكة اعداء الاسلام، وفتح ثغرة في هذا الجبروت. ثم كسر حاجز الخوف لدىٰ المسلمين، ليتشجعوا علىٰ مواجهة الأخطار، وضرب المثل الحي لهم في مجال التضحية من اجل الدين والحق، كما أن ذلك لسوف يؤثر علىٰ من يميلون الىٰ هذا الدين ويتعاطفون مع المسلمين، ويثير إعجابهم بصورة كبيرة.

وأخيراً، فلسوف نرى: أن ثمة محاولات لنسبة موقف أبي ذر الشجاع والجريء، والفذ هذا تجاه قريش إلى غيره من الصحابة، كابي بكر تارة، وعمر أخرى.

ولكن كل ذلك لا يمكن أن يصح، كما سنذكره حين الحديث عن إسلام عمر، وهجرة ابي بكر.





الفهـارس



الدليل الاجمالي للكتاب:



الدليل التفصيلي للكتاب:

والحمد لله والصلاة والسلام على محمد وآله وسلم











